

جامعة الأزهر الشريف
كلية الدراسات الإسلامية
بدسوق

دراسات
فى
الملل والنحل

دكتور
عبد العزيز موسى الدبور
مدرس العقيدة والفلسفة
بجامعة الأزهر

رقم الإيداع
٢٠٠٣/٢٥٤٦



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه إلى يوم الدين

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير)

وبعـــد

فهذه دراسات فى الملل والنحل جاءت هذه الدراسات فى سبعة مباحث على النحو التالى :

المبحث الأول : فى التدين والفطرة .

المبحث الثانى : فى معنى الدين .

المبحث الثالث : فى معنى الملة .

المبحث الرابع : فى معنى النحلة .

المبحث الخامس : فى تصنيف الأديان وخصائصها .

المبحث السادس : فى صورة الإله بين أمم الحضارات القديمة .

المبحث السابع : فى صورة الإله عند اليهود .

وأسأل الله العلى العظيم أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعله صواباً ونافعاً إنه نعم المولى ونعم النصير .

(إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

(إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)

صدق الله العظيم

دكتور

عبد العزيز موسى الدبور

المبحث الأول
فى
التدين والفطرة

المبحث الأول
فى
التدين والفطرة

نتناول فى هذا المبحث أراء الباحثين فى تاريخ الأديان فى كل من ظاهرة التدين ونشأة العقيدة الإلهية ثم نسترشـــد بآيـــات الكتـــاب العزيز فى ذلك .

وفى البداية أود أن أشير إلى أنه يجب التفرقة بين أمرين :

الأول : فطرية التدين .

الثانى : فطرية التوحيد .

أولاً : فطرية التدين :

هل فكرة التدين متأصلة فى نفوس البشر بحيث لم يوجد مجتمــع بشرى إلا وهو متشبع بهذه الفكرة ؟

أم أن فكرة التدين تأخرت عن نشأة الإنسان وأن هنـــاك شــعوباً وقبائل لا دين لها ؟

فى هذا الموضوع رأيان للعلماء :

الرأى الأول : <u>المعارض لفكرة عالمية الدين والقائل بأن فكـرة التدين قد تأخرت عن نشأة الإنسان :</u>

ذهب بعض كتاب القرن الثامن عشر الذين مهدوا للثورة الفرنسية إلى أن الديانات والقوانين ما هى إلا منظمات مستحدثة وأعراض طارئة على البشرية حتى قال (فولتير) :

" إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قروناً متطاولة فـى حيـاة مادية خالصة قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة والنجـارة قبل أن تفكر فى مسائل الديانات والروحانيات " .

بل قال : " إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء " (١) .

وكذلك كان نظر (جان جاك روسوه) إلى فكرة القـانون حيـث ظن أنها ليس لها إلا قيمة وضعية تحكمية وفسر ذلك بقوله :

---

(١) الدين صـ ٨١- ٨٢ .

" إن الأفراد الذين سبقوا إلى وضع أيديهم على بعض مساحات من الأرض حدا بهم جشعهم وحرصهم على المحافظة على ملكيتهم إلى أن يأتمروا فيما بينهم على وضع تلك النظم والقوانين ليخدعوا بها الجمهور وليضللوا بها الفقراء " (٢) .

هذه النظرة الساخرة إلى الأديان والقوانين ليست مبتكرة وإنما هي ترديد لصدى مجون قديم كان يتفكه به أهل السفسطة من اليونان وكانوا يروجونه فيما روجوه من المغالطات والتشكيكات .

فقديماً زعم هؤلاء السوفسطائية : أن الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع عن قانون ولا وازع من خلق وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة ثم كان أن وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهنالك فكر بعض العباقرة في إقناع

---

(٢) الدين صـ ٨٢ .

الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شئ وتسمع كل شئ وتهيمن بحكمتها على كل شئ .

وهكذا لم تكن القوانين والديانات فى تصويرهم إلا ضروباً من السياسة الماهرة التى تهدف إلى علاج أمراض المجتمع بكل حيلة ووسيلة .

ولقد أعان على بعث هذه الآراء وترويجها فى أوروبا الحديثة سببان:

أحدهما : الإنحلال الخلقى عند نفر من رجال الكنيسة .

والثانى : ظلم القوانين الوضعية وسوء توزيع الثروة العامة فكان من السهل أن يظن الناس أن الدين والقانون كانا كذلك فى كل زمان ومكان (1) .

الرأى الثانى : المؤيد لفكرة عالمية الدين والقائل بأن فكرة الدين متأصلة فى نفوس البشر بحيث لم يوجد مجتمع بشرى إلا وهو متشبع بهذه الفكرة وأنها لم تتأخر عن نشأة الإنسان :

---

(1) الدين صـ ٨٢ – ٨٣ .

اتفق جمهور الباحثين فى تاريخ الأديان إلا من شذ علـــى فطرية التدين وذكروا أن التدين أمر طبيعى فى الإنسان وأنه أمر جبلى مركوز فى نفوس البشر جميعاً وملازم لهـــم منـــذ نشـــأتهم فالتدين بمعنى الخضوع والتذلل لكائن أعلى أو الخوف من كـــائن ما ومحاولة إرضاء هذا الكائن بالخضوع والتذلل له أمر غريزى وأمر يكاد أن يكون متفقاً عليه بين العلماء الـــذين بحثـــوا هـــذا الموضوع بحثاً جاداً وقدموا العديد من الأدلة والآثار الدالة علـــى أن التدين قديم وأنه أمر عام (٢) ونعرض فيما يلى بعض أقوالهم حول هذا الموضوع :

لقد أشار إلى الرأى السالف المعارض لفكرة عالمية الدين (تايلور) عندما تساءل وقال :

هل توجد حقاً قبائل عريقة فى التوحش وليس لها دين ؟

(٢) د / عوض الله حجازى / مقارنة الأديان صـ ١٤

لقد تناول هو هذا الموضوع بالدراسة والبحث وذكـر أن فيه خلاف بين الباحثين والمفكرين ولكنه ذهب إلى تأييـد الـرأى القائل (بعالمية الدين) وذلك حيث يقول :

" إن الشعوب البدائية مهما انحط إدراكها فإن لهـا شـكلاً مـن دين"([1]) .

وهاهو (ماكس موللر) العالم والباحث فى تاريخ الأديان انتهى هذا العالم بعد بحث طويل إلى النتيجة التالية :

" إن الدين قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها وأن البشـر بتأثير هذه القوة وبأسماء ورموز مختلفة ومتعددة تتأهـب لإدراك الأسرار الغامضة " .

وذهب هذا العالم كذلك إلى أن فكرة التدين مـن الغرائـز البشرية التى فطر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى " ([2]) .

([1]) د/ عوض الله حجازى / مقارنة الأديان صـ ٢١ .

([2]) نفسه صـ ٢٠.

ولقد اتضح للمؤرخين المحققين وظهـر لهـم أن جميـع الأقوام المتحضرة والبدائية كانت تؤمن بقوة كبيرة تسيطر عليهـا ثم تعبدها .

ويقول أحد مؤرخى الأديان :

" إن الدين من العوامل التى سيطرت على البشـر وأن الـتحمس الدينى من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة ومن المستحيل أن نتصور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى ذهننا فكرة الدين :

ولم يذكر التاريخ أناساً عاشوا من دون أن يتـدينوا بـدين ومن غير أن ينقادوا إلى رسوم وطقوس . من هنا نرى أن الفكرة الدينية كانت منتشرة بين جميع الأقـوام القديمـة فقـد وجـد أن السومريين قد عبدوا الإله (آنو) وأن البابليين عبدوا الإله (بعل) وأن المصريين عبدوا (رع ، وأوزوريس) وعبـد الفينيقيـون (أودونيس) وعبد الفرس (أورموزدا) وعبد الهنـود (برهمـا)

والصينيون عبدوا (تيشانج وشانج لى) والمكسيكيون (نشلى بوشلى) ([1]) .

وكتب (بارتيلمى سانت هيلير) عن نشأة الدين فقال :

" هذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذى يجب أن يقود عقولنا فى أثناء عبورنا فى هذه الدنيا ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شئ بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ؟ .

هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة مقبولة أو سخيفة ثابتة أو متحولة ..."([2]).

([1]) د / عوض الله حجازى / مقارنة الاديان صـ ٢٠ – ٢١ .
([2]) الدين صـ ٨٤ .

ويقول (شاشاوان) :

" مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر علمياً وصناعياً واقتصادياً واجتماعياً ومهما يكن اندفاعنا فى هذه الحركة العظيمة للحياة العملية وللجهاد والتنافس فى سبيل معيشتنا ومعيشة ذوينا فإن عقلنا فى أوقات السكون والهدوء عظاماً كنا أو متواضعين خياراً كنا أو أشراراً يعود إلى التأمل فى هذه المسائل الأزلية : لما وكيف كان وجودنا ووجود هذا العالم ؟ وإلى التفكير فى العلل الأولى أو الثانية وفى حقوقنا وواجباتنا " ([٣]) .

ويقول (هنرى برجسون) :

" لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة " ([٤]) .

وقد أشار الأب الإيطالى (فنتورى) إلى عالمية الدين وذكر العناصر المكونة له وذلك حيث يقول :

([٣]) الدين صـ ٨٤ – ٨٥ .

([٤]) نفسه صـ ٨٥ .

" يتبين من استعراض المواد الدينية وهى كثيرة ومتنوعة أن رأى بعض الكتاب الذين يدَّعون وجود شعوب محرومة من الفكرة الدينية ولا يشعرون بالحاجة إلى الدين إنما هو رأى لا أساس له ويتجلى من الوثائق ما كان للدين من سلطان عند الأقوام المتحضرة القديمة مثل : السومريين والبابليين والهنود والصينيين.

لهذا نرى أن الدين يؤلف جزءاً أساسياً من حياة الشعوب المتحضرة وهو ينظم علاقتها ويصاحب البشر من يوم ولادتهم حتى مماتهم ويكرس الناس أوقاتاً جليلة من حياتهم لأمور الدين ويبدو أن العقيدة بالقدرة العظمى قد توصل إليها البشر على أنها شئ يتسامى علىْ كل القوى البشرية وأنها مستقلة عنها وهذه العقيدة تؤدى بالإنسان لأن يشعر بخضوعه للإله وقد تم الاقتناع بإمكان تأسيس علاقة بين الإنسان والإله " (١) .

---

(١) تاريخ الأديان لفنتورى نقلاً عن د / عوض الله حجازى / مقارنة الأديان صـ ٢١ – ٢٢ .

ويقول معجم (لاروس) للقرن العشرين :

" إن الغريزة الدينية : مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعية هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية " .

ويقول : " إن هذه الغريزة الدينية لا تختفى بل لا تضعف ولا تذبل إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد " (٢) .

ويقول العقاد :

" ففى الطبع الإنسانى جوع إلى الإعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام.. " (٣) .

ويقول : " حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان .

---

(٢) الدين صـ ٨٤ .
(٣) كتاب الله صـ ١٤ .

وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ولا يستقر في وسط هذه العوالم بغير إيمان وهو قد وجد في وسط هذه العوالم لا مراء فإذا كان الإيمان هو الحالة التي يتطلبها منه وجوده فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين ويدل على خلل في الكيان .
وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصل العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ " ... ([1]) .

ويقول المؤرخ الدكتور / سليم حسن :

" دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة مهما كانت ثقافتهم منحطة ديناً يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه ولما كانت السلالات البشرية تضرب بأعراقها إلى عهود.قديمة قبل التاريخ فإنه يكاد يكون من المستحيل على الباحث المدقق في أصول الديانات أن يتتبع الخطوات الأولى التي نهجها دين ما من الأديان القديمة المعروفة لنا من البداية حتى النهاية " ([2]) .

([1]) كتاب الله صـ ١٤ ــ ١٥ .
([2]) د / عوض الله حجازي / مقارنة الاديان صـ ١٦ .

ويقول الدكتور / دراز :

" إن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان هى أنه.ليست هناك جماعة إنسانية بله أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه ودون أن تتخذ لها فى هذه المسائل رأياً معيناً حقاً أو باطلاً يقيناً أو ظناً تصور به القوة التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها والمآل الذى تصير إليه الكائنات بعد تحولها ... " (٣) .

ويقول بعد أن عرض الرأى المعارض لعالمية الدين :

" على أنه لم ينقض القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم حيث كثرت الرحلات إلى خارج أوروبا واكتشفت العوائد والعقائد والأساطير المختلفة وتبين من مقارنتها :

أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث رغم تفاوتهم فى مدارج الرقى ودركات الهمجية .

وهكذا ظهر :

---

(٣) الدين صـ ٣٤ .

أنها أقدم فى المجتمعات من كل حضارة مادية .

وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاة .

ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة بل كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس " (١) .

ويقول :

" واعلم أن عموم الأديان لجميع الأمم لا يعنى عمومها لكل أفرادها :

▪ فإنه لا تخلو أمة من وجود ذاهلين قد غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال وفراغ الوقت ما يمكنهم من رفع رؤوسهم للنظر فى تلك الحقائق العليا .

▪ كما لا تخلوا أمة من منكرين ساخرين يحسبون الحياة لهواً ولعباً ويتخذون الدين وهماً وخرافة لكن هؤلاء دائماً هم الأقلون فى كل أمة وهم فى الغالب من المترفين الذين لم يصادفهم من

---

(١) الدين صـ ٨٣ .

عبر الحياة وأزماتها ما يشعر نفوسهم معنى الخضوع والتواضـــع وما ينبه عقولهم إلى التفكير فى بدايتهم ونهايتهم . .

وهذا الإستثناء من القاعدة لا ينفى كمون الغريزة الدينيـــة بصفة عامة فى طبيعة النفس الإنسانية كما أن الغريزة بقاء النوع لا يمنع من عمومها أن بعض الناس لا يتزوجون ولا ينسلون .

ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت فـــى عصر ما أو أن يكون ثمة وضع خاص من أوضاع العبادات قـــد جاء مجلوباً مصنوعاً فذلك سائغ فى العقل بل واقع بالفعل .

أما فكرة التدين فى جوهرها فليس هناك دليل واحد علـــى أنها تأخرت عن نشأة الإنسان (٢) .

ويقول الدكتور عوض الله حجازى :

" يذهب جمهور الباحثين فى تاريخ الأديان إلى أن الـــدين أمـــر ضرورى للإنسان لا تستغنى عنه جماعة بشرية مهما كانت بدائية وإن فكرة التدين موجودة فى الإنسان وملازمة له منذ نشأته .

---

(٢) الدين صـ ٨٣ – ٨٤ .

وقد دل البحث والتنقيب فى آثار الأقدمين على أن البشـــر حتى أدوار ما قبل التاريخ كانوا متأثرين بالدين فقد عثر العلمـــاء فى أنحاء أوروبا الغربية والشمالية على آثار لمقابر دفن البشــر الأول فيها موتاهم وقد أقاموا حول هذه المقابر أحجاراً كبيرة .

كما دلت البحوث على أن البشر قبل التاريخ كانوا يدفنون موتاهم فى اتجاه معين ويضعون بجانبهم بعــض الأدوات التـــى كانوا يستعملونها فى حياتهم كالسلاح وغيره كما كانوا يضـــعون بجانبهم شيئاً من الطعام ظناً منهم أنهم يأكلون أو أن ذلــك كـــان بمثابة رشوة منهم أو هدية لمن سيقوم بمحاسبة الميت بعد وفاتـــه كذلك دل البحث على أنهم كانوا يؤدون فى الدفن طقوساً معينـــة تدل على أنهم كانوا يلتمسون بها الخير للميت ويبعدون بها الشـــر عنه .. (1)".

ويقول : " ومن الواضح أنه ليست هناك ظاهرة اجتماعية تضاهى سلطان الدين فى سيطرتهم على الأفراد وزجرهم وتخويفهم وكبح

---

(1) مقارنة الأديان صـ ١٤ – ١٥ .

جماحهم سواء أكان الفرد بدائياً ساذجاً أو متحضراً ذلك أن الأديان البدائية مع أنها ساذجة كانت تقسم الأشياء الممكنة إلى مجموعتين : مجموعة تجعلها حراماً تحرم فعلها وتجعل وقوعها من الإنسان غير جائز ومجموعة تجعلها حلالاً تأمر بفعلها وتدعو إلى الاتصاف بها وكان الحرام فى عرفهم هو الذى لا يجوز فعله أو التقرب منه فإذا خالف العبد هذا التحريم وفعل المنهى عنه والمحرم يعاقب عقاباً غيبياً (٢) .

ويقول :

إن الدين أمر ضرورى وأنه أصل ثابت وقديم وطريق سلكه البشر منذ نشأتهم وإن كان هذا التدين وعبادات الأقدمين قد اختلفت صورها باختلاف العصور والبيئات .

إن الأديان جميعها تقوم على فكرة الحلال والحرام ما يجوز فعله وما لا يجوز فعله تقوم كلها على مبدئى الخوف والرجاء وتقوم على طقوس وعبادات تؤدى يقصد بها جلب الخير

---

(٢) نفسه صـ ١٥ .

للإنسان أو دفع الضرر عنه كل ذلك قد جاء به الدين الوضعى والدين السماوى وإن اختلفت كيفيات العمل والأداء فى كل منهما([1]) .

ويقول الدكتور أحمد شلبى :

" هناك حقيقة متفق عليها بين علماء تاريخ الأديان أن الإنسان متدين بطبعه ويقرر الفلاسفة العالميون أن الإنسان شديد الإرتباط بالتدين ..

وعلى هذا إذا ظهر فى الدنيا أفراد أو جماعات ينكرون وجود الله أو يحاربون التدين فليس ذلك إلا مقاومة للغريزة الموجودة فيهم وطالما تقاوم الغرائز لدافع من الدوافع ، ثم إن الغريزة الدينية صفة من الصفات التى تربط بين البشر وهى تفوق فى قوتها علائق الدم والجنس والوطن " ([2]) .

ويقول : " وقد أدرك الغرب كل هذه القوانين أدرك أن الغريزة الدينية موجودة دائماً كما أدرك أنها من أقوى الصلات بين البشر

([1]) نفسه صـ ١٧ .

([2]) مقارنة الأديان صـ ٧ – ٨ .

وأدرك كذلك سهولة إيقاظ هذه الغريزة عند من يواجهون قوى الطبيعة من سكان أفريقية وآسيا فاستغل الغرب هذه المعارف لنشر المسيحية فى هذه البقاع " (٣) .

مصير نزعة التدين أمام التقدم العلمى :

إذا كان علماء تاريخ الأديان قد اتفقوا على أن نزعة التدين أصيلة فى الفطرة الإنسانية وأنها ملازمة للبشر جميعاً منذ نشأتهم وذلك استناداً إلى العديد من الأدلة والآثار فهل هذه العراقة فى القدم وهذا التقدم الزمانى سيكسب هذه النزعة صفة الثبات والاستقرار والخلود وستبقى ما بقيت الإنسانية أم أن مصيرها إلى الاضمحلال والفناء لتحل العلوم التجريبية محلها ؟

نقول على الرغم من أن جمهور الباحثين فى تاريخ الأديان بحثوا مسألة نزعة التدين بحثاً جاداً وانتهى معظمهم من دراسته إلى أن التدين قديم وأنه أمر عام وأصيل فى الفطرة الإنسانية وعلى الرغم من أن القرن التاسع عشر جاء وقد تقرر هذا المعنى

---

(٣) نفسه صـ ٩ .

فى النفوس فلم يجرؤ أحد أن يشكك الناس فيه على الرغم من كل ذلك ، ظهرت نظرية جديدة فى الطرف المقابل مضمونها أن الأديان وإن كانت عريقة فى القدم لكن تقدمها الزمانى لا يكسبها صفة الثبات والخلود بل هو بالعكس يطبعها بطابع الشيخوخة والهرم وينذر بأن مصيرها إلى الإضمحلال والفناء هذه هى نظرية (أوجست كونت) .

فقد ذهب هذا الفيلسوف إلى أن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة:

- دور الفلسفة الدينية .
- دور الفلسفة التجريدية .
- ثم دور الفلسفة الواقعية .

وهذا الدور الثالث فى نظره هو آخر الأطوار وأسماها . فبعد أن كان الناس يعللون الظواهر الكونية بقوة أو بقوى إرادية خارجة عنها إنتقلوا إلى تفسيرها بمعان عامة وخصائص طبيعية كامنة فيها كقوة النمو والمرونة والحيوية ... إلخ ثم انتهوا إلى رفض

كل تفسير خارجي أو داخلي واكتفوا بتسجيل الحوادث كما هـي ومعرفة ما بينها من ترابط وجودي بقطع النظـر عـن أسـبابها وغاياتها وعلى هذا يكون دور التفكير الديني يمثل الحالة البدائيـة التي تلهت بها الإنسانية في مرحلة طفولتها فلما كبرت عن الطوق خلعتها لتستبدل بها ثوباً وسطاً في دور مراهقتها حتى إذا بلغـت رشدها واكتمل أخذت حلتها الأخيرة من العلوم التجريدية (١) .

خطأ هذه النظرية :

يعلق الدكتور دراز على هذه النظريـة بالتحليـل والنقـد فيقول:

" نقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوري هي أن أنصـاره جعلوا منه قانوناً يستوعب التاريخ كله في شرط واحـد قطعـت الإنسانية ثلثيه بالفعل ونفضت أو كادت تنفض يدها منهمـا إلـى غير رجعة فلن تعود إليهما إلا أن يعـود الكهـل إلـى طفولتـه وشبابه.

---

(١) الدين صـ ٨٥ – ٨٦ .

ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلمـا ختمـت شـوطاً رجعت عوداً على بدء مكان الخطأ فى هذه النظرية أقل شـناعة ولكنها بعد ذلك تظل دعوى غير مسلمة لا لأنهـا مجـردة عـن البرهان فحسب بل لأنها تحرف التاريخ وتصادم العيان .

فنحن مازلنا نسمع ونرى فى كل عصر تقديساً للروحانيات وشغفاً بالمعنويات والمعقولات الكلية عند فريق من النـاس إلـى جانب الكلف بالحوادث والحقائق الجزئية عند فريق آخر ولـيس الحد الذى يفصل بين المعسكرين هو جهـل أحـدهما بالتجـارب الكونية وخبرة الآخر بها إذ كثيراً ما نجـد مـن بـين الجهـلاء جاحدين متعصبين كما نجد مـن بـين علمـاء المـادة مـؤمنين متحمسين .

وها نحن أولاء فى القرن الحادى والعشرين وفـى قلـب الحضارة وفى قلب الحضارة الأوروبية نرى إلى جانب البحـوث المادية المتشعبة دراسات روحية واسـعة تقـوم بهـا جماعـات محترمة من كبار علماء الطب والفلسفة والطبيعة علـى منهـاج

علمي دقيق وبأسلوب برهاني يعتمد على التحليل والنقد الصارم الذى ينحي عن الوقائع كل ما عساه أن يعلق بها تزوير وخداع وكل ما يحوم حولها من وهم وتسرع فى الحكم ولا يقبل منها إلا ما يؤيده اليقين وما ينتهى إليه البحث الدقيق الرزين (1) .

ويقول :

فالواقع أن الحالات الثلاث التى يصورها (كونت) لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة فى كل الشعوب وليست كلها دائماً على درجة واحدة من الإزدهار أو الخمول فى شعب ما ولكنها تتقلب بها الأقدار بين بؤس ونعمى ونحوس وسعور .

بل نقول أن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة فى نفس كل فرد وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً فى إقامة الحياة الإنسانية على وجهها ولكل واحدة منها مجال يوائمها ففى الوقت الذى نفسر فيه الحوادث العادية بأسبابها المباشرة خارجية أو

---

(1) الدين صـ ٨٦ – ٨٧ .

داخلية فنقول : هلك فلان بضربة سيف أو بالشيخوخة أو المرض لا يزال كل واحد منا يفسر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر أو بسبب غيبى مجهول .

بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنقرر أن النظرة الوقوعية تقع فى مبدأ الطريق لا فى نهايته وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية لا مرحلة النضج والكمال ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة وضروزة الحياة اليومية وبأنها وظيفة الحس لا العقل وبأنها من معدن القابلية والانفعال لا من معدن الفاعلية والإنشاء .

أما نظرة التعليل بالمعانى العامة فإنها تنبثق فى النفس على أثر ذلك متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم فى التصورات والأحكام . فلا يكتفى الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة فى سلسلة متعاقبة كما تجمع الأعواد فى الحزمة بل يحاول ربطها برباط معنوى تدور فى فلكه ويكون كالسلك الداخلى الذى ينظم حبات العقد .

ونؤكد أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم الذى يضع كل مجموعة فى نطاق يضبطها تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها ويكون لها بمثابة قانون كلى تعلل به جزئياتها بل العلوم الواقعية تسعى الآن جاهدة للإندماج برمتها فى منظمة تنسقها وتخضع جميع ظواهرها لناموس واحد وهذا هو ما يسمى بمبدأ " وحدة الوجود " بمعناه العلمى وسواء أبلغت العلوم هذا الهدف قريباً أو بعيداً أم لم تبلغه أبداً فالذى لا شك فيه هو أن هذه النزعة إلى استنباط المعانى الكلية لم تفتر بل تزداد قوة .

بقيت النظرة الروحية أو الدينية وواضح أنها لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أفقها فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه فهى أوسع النظريات مجالاً وأبعدها مطلباً .

وهكذا ينقلب الترتيب الذى تخيله الفيلسوف رأساً على عقب وتعود الحاجات النفسية الثلاثة إلى أوضاعها الطبيعية

المعقولة : حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح وإن شئت قلت: حاجة الحس فحاجة العقل القانع فحاجة العقل المتسامى .

على أن الذى يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمى لكل واحدة من هذه النزعات وإنما هو دخولها جميعاً فى كيان النفس الإنسانية فكما أننا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان([1]).

خلود ظاهرة التدين فى رأى علماء الأديان :

ونقدم فيما يلى نموذجاً من أقوال علماء تاريخ الأديان والفلاسفة العالميين حول ثبات واستقرار وخلود ظاهرة التدين وملازمتها للإنسانية .

([1]) الدين صـ ٨٧ – ٨٩ .

يقول (سالمون ريناك) :

" ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب بل لنا أن نكـون على يقين من أنه سيبقى فى الكون دائماً أسرار ومجاهيـل ولأن العلم لن يحقق أبداً مهمته على وجه الكمال " ([٢]) .

ويقول الدكتور (ماكس نوردوه) عن الشعور الدينى :

" هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين كما يجده أعلى الناس تفكيراً أو أعظمهم حساً وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية وستتطور بتطورها وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التى تبلغها الجماعة " ([٣]) .

ويقول الفيلسوف (وليم جيمس) :

" يرجع لدينا أن الناس سيظلون يصلون إلى آخر الزمان " ([٤]) .

([٢]) الدين صـ ٨٩ .
([٣]) الدين صـ ٨٩ .
([٤]) د / أحمد شلبى / مقارنة الأديان صـ ٧ .

ويقول (أرنست رينان) فى تاريخ الأديان :

" أن من الممكن أن يضمحل كل شئ نحبه وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحى التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية " ([1]).

وقد عبر معجم (لاروس) للقرن العشرين عن هذه الحقيقة بقوله:

" أن الغريزة الدينية : مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية " .

ويقول : " إن هذه الغريزة الدينية لا تختفى بل لا تضعف ولا تذبل إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد " ([2]) .

([1]) الدين صـ ٨٩.
([2]) الدين صـ ٨٤.

ولقد أحسن الأستاذ (محمد فريد وجدى) حين يقول فـى دائرة معارفه تعليقاً على نظرية (أوجست كونت) :

" نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميـول النفس وأكرم عواطفها ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان بل إن هذا الميـل سيزداد ، ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل بـه الجمال والقبح وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علـو مداركـه ونمو معارفه " ([٣]) .

ولنقف قليلاً عند هذه الكلمة لأنه قد يبدو مـن المفارقـات العجيبة أن يكون إزدياد العلم ونمو المعرفة سبباً فى نمو غريـزة التدين والمبنية على طلب الغيب المجهول ولكننا لو تأملنا لتحققنا صحة هذه المفارقة ولعرفنا أن تقدمنا الحثيث فى العلوم يقر بنـا حقيقة من الإعتراف بجهالتنا والإقرار بأن مثل مـا نعلمـه مـن الكون فى جانب ما نجهله منه كمثل قطرة واحدة من محيط خضم عميق ذلك أن كل باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكـون

([٣]) نفسه صـ ٨٩ .

وامتداده ينفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهـذا الميـدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة ..

وهكذا كان اتساع نطاق المعلومات هو بنفسه اتساعاً لنطاق المجهولات لأن محيط كل دائرة جديدة يمـاس الحـدَّين بباطنـه وظاهره فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعهـا من عالم الشهادة مراحل أخرى من عالم الغيب فى آماد وآبـاد لا يدرك الإنسان نهايتها إلا إذا انقلب المحاط محيطاً والحادث الفانى أزلياً باقياً وصدق القرآن الكريم حين يقول :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (١) (٢) .

.. هكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار وتتكشف المادة عـن أصلها الأصيل فإذا هى طاقة أى قوة مجردة يلزم البحـث عـن مصدرها خارج ذلك الهيكل المادى المحطم وذلك الضم السـاقط المهدَّم وهكذا يقترب عالم المادة رويداً رويداً من عالم المجردات

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٢) الدين صـ ٨٩ – ٩٠ .

ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى كما يتصل به من جهة حده الأعلى وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره لأنه يحس أثره ويكاد يلمس خطره .

أجل لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر المزود بأدق المقاييس والموازين وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للوجود وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى فى القاعدة التى تقوم عليها الأديان (٣) .

على أن هذا الضرب من التجارب العلمية التى سَرَّحنا فيها النظر مصعدين طوراً ومنحدرين طوراً والتى حولت المادة فى كلا طرفيها إلى هباء أو سراب ورجعت بالعلم فى كلتا مرحلتيه من الغرور والكبرياء إلى التواضع والاستسلام هذا الضرب من التجارب لا يمثل من العلم الواقعى إلا جانبه التطبيقى الذى هو إلى الصناعات والفنون أقرب منه إلى حقيقة العلوم إذا العلم فى

---

(٣) الدين صـ ٩١ – ٩٢ .

جوهره ليس تحليلاً وتركيباً عمليين وإنما هو نظرة عقلية تـــربط النتائج بمقدماتها وتستنبط القوانين من جزئياتها وتفسر الموجودات تفسيراً تستسيغه النفس ويطمئن إليه العقل ترى هل فـــى طبيعـــة العلوم التجريبية وطبيعة مناهجها وأدواتها ما يؤهلها للقيام بهـــذه المهمة على كمالها بحيث لا تتطلع النفس من ورائها إلى تفســـير آخر ؟ هيهات هيهات ([1]) .

وبعد فأى شئ أكبر شهادة على أن نهاية العلـــم البشـــرى ليست هى إطفاء غريزة التدين بل زيادة اشعالها من أن مؤســـس الفلسفة الواقعية وكبار أنصارها قد انتهوا إلى الإعتراف صراحة أو ضمناً بهذه الحقيقة بناء على تجربتهم فى أنفسهم ؟

فهذا (كونت) الذى كان يتنبأ بأن فناء الديانات ســـيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم قد عاد فى آخر أمـــره متصـــوفاً عجيباً وكلل حياته بوضع ديانة جديدة طبعها على غرار النظـــام الكنسى للديانة الكاثولوكية : فى عقائـــدها وطقوســـها وأعيادهـــا

([1]) نفسه صـ ٩٢ .

وطبقات قساوستها رواية كاملة أعـاد فصـولها ولـم يغيـر إلا أشخاصها .

وهذا (سبنسر) ينتهى بأن يقول عن المجهـول : إنـه : " تلك القوة التى لا تخضع لشئ فى العقول بل هـى مبـدأ كـل معقول وهى المنبع الذى يفيض عنه كل شئ فى الوجود " .

أليس هذا " المجهول " هو بعينه موضوع الديانات يجيئنـا الآن باسم آخر على لسان العلم ؟

وما أجمل الصفحة التى كتبها (ليتريه) يصف نفسه حين كانت خاتمة مطافه فى العلوم الواقعية أن رأى نفسه محوطاً مـن كل جانب ببحر لجىّ من الأسرار الغامضة وهو لا يملك سـفينة يخوض بها لجته وليس معه إبرة يتعرف بها وجهة سـفره تـرى كيف كان موقفه بإزاء هذا المحيط الرهيب ؟ أراه وقـف أمامـه وقفة الشاعر الهائم أو وقفة العاشق المتدله ؟ كـلا ولكـن وقفـة الناسك الخاشع المتأله [٢] .

---

(٢) الدين صـ ٩٦ – ٩٧ .

ثانياً : فطرية التوحيد وأصالته :

إذا كان الباحثون قد أجمعوا تقريباً على أن نزعة التدين متأصلة فى نفوس البشر جميعاً وأنها ملازمة لهم من نشأتهم وأنها ثابتة وخالدة وستبقى ما بقيت الإنسانية وأنه لا يوجد دليل واحد على أن نزعة التدين تأخرت عن نشأة الإنسان كما لا يوجد دليل واحد على أنها ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان إذا كان ذلك كذلك .

فما موضوع هذا التدين ؟ وما هو المعبود الذى يتعلق به هذا التدين الغريزى فى الإنسان ؟ وهل تعلق هذا التدين أول ما تعلق بالإله والموجد لهذا الكون المتصرف فيه ؟

أو أن هذه الغريزة انصرفت إلى عبادة أى شئ الطبيعة نفسها المكونة من جماد وحيوان .. أو الأرواح الخفية التى تحل فى بعض كائنات هذه الطبيعة وأن العقيدة الإلهية تطورت من هذه الخرافات والأوهام إلى أن وصلت إلى معرفة الإله الخالق وعبادته .

انقسم الباحثون فى الموضوع إلى شعبتين عظيمتين تسيران فى خطين متعاكسين :

الفريق الأول : ذهب إلى أن الدين بدأ فى صورة الخرافة والوثنية وأن الإنسان أخذ يترقى فى دينه على مدى الأجيال حتى وصـل إلى الكمال فيه بالتوحيد كما تدرج نحـو الكمـال فـى علومـه وصناعاته حتى زعم بعضهم أن عقيدة (الإله الواحد) عقيدة جد حديثة وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى .

هذه النظرية نادى بها أنصار مذهب " التطور التقـدمى أو التصاعدى " الذى ساد فى أوروبا فى القرن التاسع عشر فى أكثر من فرع من فروع العلوم وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء منهم (سبنسر) و (تيلور) و (فريـزر) و (دور كاييم) وغيرهم من علماء الغرب : مسيحيين ويهود وإن اختلفت وجهات نظرهم فى تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها ([1]).

([1]) الدين صـ ١١٢ .

ويتبع هذا الرأى عدد غير قليل من المسلمين ومنهم الأستاذ العقاد فى كتابه : (الله) والأستاذ طه الهاشمى فى كتابه : (تاريخ الأديان وفلسفتها) والدكتور أحمد شلبى فى كتابه : (مقارنة الأديان والاستشراق) .

يرى هذا الفريق أن التدين بدأ بالخرافة والأوهام ثم انتقل إلى الوثنية والشرك وأخذ يتطور الإنسان الأول فى دينه وعقيدته على مدى الأجيال حتى وصل إلى التوحيد .

والفريق الثانى : قرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب [١] ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث فتكون الوثنيات إن هى إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

---

(١) سيأتى بعد قليل نقد المذهب التطورى .

وهذه هى نظرية (**فطرية التوحيد وأصالته**) **التى** انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلمـــاء الـــنفس ومن أشهر مشاهيرهم :

(لانج) الذى أثبت وجود عقيدة (الإله الأعلى) عنـــد **القبائـــل** الهمجية فى أوستراليا وأفريقيا وأمريكا .

ومنهم (شريدر) الذى أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة .

و(بروكلمان) الذى وجدها عند الساميين قبل الإسلام .

و (لرواه) ، (وكاترفاج) عند أقزام أواسط أفريقيا .

و(شميدت) عند الأقزام وعند سكان أوستراليا الجنوبية الشرقية وانتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة (الإله الأعظم) توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية [٢] .

نقد المذهبين التطورى والفطرى :

إن النظريات والمذاهب التى حاولت تجديد ديانة **الإنســـان** الأول مبنية على مجرد احتمالات وافتراضات لا ترقى إلـــى أن

---

(٢) الدين صـ ١١٢ – ١١٣ .

توصف بالحق الثابت الذى هو مطلب العلم الصحيح ومن ثم فهى لا تقدم لنا ضماناً من المنطق ولا من الواقع تثبت به أن الحوادث كانت تسير بالفعل دائماً على وقف ما الفناه مـن الأوضـاع ولا على الوجه الذى كان ينبغى أن يكون .

وأستاذنا المرحوم الدكتور دراز يكشف لنـا عـن خطـأ البحوث الحديثة التى حاولت باسم العلم أن تحدد الأصل الأصـيل للعقيدة والمظهر الذى ظهرت به فى أول الأزمنة والوقوف علـى بزوغ الدين فى النوع الإنسانى فيقول :

" غير أنه مهما تتفاوت النتائج فى نظـر المـذهبين " التطـورى والفطرى " فإنهما متفقان على موضوع البحث وهو تحديد صورة العقيدة " البدائية " الحقيقية وعلى منهاجه وهو دراسـة الشـعوب المتأخرة والأمم الغابرة .

ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجـه ومحاولـة حلها من هذا الطريق ينطوى على خطأ مزدوج :

خطأ فى الغاية وخطأ فى الوسيلة :

- أما من حيث الغاية التى يهدف إليها البحث وهى تحديد الأصل الأصيل للعقيدة والمظهر الذى ظهرت به فى أول الأزمنة بإطلاق فلان هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقة حراماً حظرها على نفسه وأعلن فى صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف وتستر بثوب مستعار وكل حكم يصدر تحت هذا الإسم يكون صادراً عن قاض معزول فاقداً للركن الأول من سلطته الشرعية ومؤرخوا الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب .
- وأما من حيث المنهج وهو الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية فلأنه مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت من بدايتها على الحالة

التى وصل إليها بحثنا وأنها لم تمر بهـا أدوار متقلبـة وهـو افتراض لم يقم عليه دليل بل الذى أثبته التاريخ واتفـق عليـه المنقبون عن آثار القرون الماضية هـو أن فتـرات الركـود والتقهقرات سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسـبوقة بمـدنيات مزدهرة وأن هذه المدنيات قامت بدورها على انقاض مـدنيات بائدة قريبة أو بعيدة فى أدوار تتعاقب على البشرية كما تتعاقب الفصول السنوية على الطبيعة بحيث يصبح مـن العسـير أن نحكم بصفة قاطعة بأيهما بدأت دورة الزمان وليس تعيين أحـد الأمرين للابتداء الحقيقى بأثبت تاريخياً من مقابله فكذلك نقـول فى شأن العقائد الدينية : أنه من الممكن أن تكـون الخرافـات القديمة بداية ديانات كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريـف لديانة صحيحة مزقت أهلهـا الحـروب أو أفسـدت الآفـات الاجتماعية فقلت عنايتهم بأصول دينهم وتلقوا بالتسليم والقبـول كل ما سمعوه من أفواه الأدعياء والدجالين وشاعت بينهم هـذه

الروايات وتوارثوها حتى أصبحت سنناً مقدسة ولقد أنصف العلامة (هوفدنج) حين قال :

" إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الإنسانى فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى فى موضع ما وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة لديانات متقدمة قليلاً أو كثيراً حتى إن أحط القبائل الهمجية التى نعرفها قد مرت بأدوار شتى وتطورت تطوراً بعيداً " .

فقد بان لنا مبلغ ثبات الفرض الذى بنيت عليه البحوث الحديثة كلها وأنها أسست على جرف هار لا تطمئن إليه الأقدام"([1]) .

ويقول :

" وجملة القول أن كل النظريات التى حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضية أو الأمم الهمجية

([1]) الدين صـ ١١٣ – ١١٤ .

فصورتها لنا تارة سليمة وتارة سقيمة وتارة ملفقة إنما هي افتراضات مبنية على افتراضات فهى لا تصف بالحق الثابت الذى هو مطلب العلم الصحيح وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلاً أو كثيراً " ([1]) .

عرض المذهب التطورى ونقده :

والآن وحتى نقف على حقيقة المذهب التطورى نقدم عرضاً موجزاً من خلال أحد أتباعه هذا المذهب وهو الأستاذ العقاد من كتابه (الله) وهو كتاب يبحث فى نشأة العقيدة الإلهية ثم نتبع ذلك بعرض الانتقادات العنيفة الموجهة لهذا المذهب .

يشرح العقاد مذهبه التطورى فيقرر الآتى :

أن ترقى الإنسان فى العقائد موافق تماماً لترقيه فى العلوم والصناعات وأن تطور الدين أشق من تطور العلوم والصناعات .

" ترقى الإنسان فى العقائد كما ترى فى العلوم والصناعات فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى وكذلك كانت علومه

([1]) نفسه صـ ١١٩.

وصناعاته فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديــان والعبادات وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منهــا بــأوفر مــن عناصر الحقيقة فى الأخرى .

وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشــق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات . لأن حقيقــة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشــياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى " (٢) .

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجل للناس كاملة فى عصــر واحد :

" فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ولا على أنها تبحث عن محال وكل مــا يــدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد وأن الناس يستعدون لعرفانها عصراً بعد عصر وطوراً بعد طور وأسلوباً بعد أسلوب كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى

---

(٢) كتاب الله صـ ١٣ .

بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان " ([1]) .

ويواصل العقاد بيانه عن أطوار العقيدة الإلهية وساق رأى علماء المقابلة بين الأديان الذين حددوا أطواراً ثلاثة عامة مــرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب فيقول :

" يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بهــا الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب وهى :

- دور التعدد .
- ودور التمييز والترجيح .
- ودور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعــد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذه تنوب عن الــرب فى الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

([1]) نفسه صـ ١٣ .

وفى الدور الثانى وهـو دور التمييـز والتـرجيح تبقـى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها فى شئون المطالب التى تحققها الأربـاب المختلفة كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجـة إليـه أو رب الزوابع والرياح وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضـع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسـيير غيرهـا مـن العناصر الطبيعية .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبـادة واحـدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقـاليم المتفرقـة ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كمـا تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرضها ويحـدث أيضـاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقائـه وبقـاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية وكثيراً ما ينفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية([1]) .

ويؤكد العقاد على تطور الديانات وأن التوحيد هو نهاية الأطوار فيقول:

فالتطور فى الديانات محقق لا شك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى وقد أوجب هذا الاختلاف أن الشعب على

([1]) المصدر السابق صـ ٢٨ – ٢٩ .

حدته لا يطرد فى التقدم عقيدة بعد عقيدة ولا تزال له عقائد شتى قلما يسرى عليها حكم واحد فى عوامل التطـور والارتقـاء وأن الديانات نشأت فى شعوب كثيرة لا فى شعب واحد فما تقدم هنا لم يلزم أن يتقدم هناك وما استعاره شعب من شعب غريب عنه قـد يكون أرفع من طبقته التى ارتقى إليها من طبقات الحضارة فيتفق له فى الوقت الواحد ضربان من العبادة أحدهما سـابق والآخـر متخلف ويتقهقر السابق أحياناً قبل أن يتقدم المتخلف إليه وربمـا سمت قبيلة متخلفة رباً من أربابهم باسم خالق الأشياء جميعاً ولـم يكن ذلك دليلاً على ارتفاع فى فهم الربوبية على ضيق فى حصر نطاق المخلوقات وقصرها على الحيز المحدود الذى تعيش فيـه القبيلة .

إلا أن المشاهدات التى أحصاها علماء المقابلة قد تتوافى كلهـا إلى نتيجة يجمعون عليها وهى :

أن الإيمان بالارواح شائع فى جميع الأمـم البدائيـة وأن الأمم التى جاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة وإقامة الدول

لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية أو عبـادة الكواكـب علـى الخصوص وفى طليعتها الشمس والقمر والسيارات المعروفة وأن عبادة الأسلاف تتخلل هذه الأطوار المتتابعة على أنماط تناسـب كل طور منها حسب نصيبه من العلم والمدنية .

أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطـوار كافـة فـى جميـع الحضارات الكبرى فكل حضارة منها قد آمنت بإله يعلـو علـى الإله قدراً وقدرة وينفرد بين أرباب تتضاءل وتخفت حتى تـزول أو تحتفظ ببقائها فى زمرة الملائكة التى تحـف بعـرش الإلـه الأعلى" ([1]) .

ويقرر العقاد أن الديانة اليهودية والنصرانية هـى التـى حققت التوحيد الكامل وعلمت الناس عبادة الإله الأحد :

" لكن الأديان الكتابية – بعد كل هذا – هى التى بلغت بالتوحيـد غاية مرتقاه وعلمت الناس شيئاً فشيئاً عبادة الإله " الأحد " الـذى خلق الوجود من العدم ووسعت قدرته علـى كـل موجـود فـى

([1]) كتاب الله صـ ٣٢ .

السماوات والأرض ولم يكن له شـريك فـي الخلـق ولا فـي القضاء"[٢] [٣] .

ويقرر العقاد في النهاية رأيه من أن ديانة الشمس كانـت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح وأن الترتيب التطـوري للعقيدة حسب رأيه ينطبق على ما ورد في القرآن الكريم بشـأن إبراهيم - عليه السلام - :

" فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيـد الصـحيح لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة فإذاً دخلت هي أيضاً في عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار .

---

[٢] نفسه صـ ٣٢ - ٣٣ .

[٣] لعل العقاد يقصد أن هذه الأديان كانت كذلك في بادئ أمرها ديانة التوحيد خالص أما الآن فعلى عكس ذلك حيث ضل أهلها فصاروا في وهاد الوثنية وحرفوا وبدلوا وغيروا في كلام الله وجعلوا لله شركاء وأسندوا له الولد (**وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أن يؤفكون**) (**الآية ٣٠ سورة التوبة**) .

وينطبق هذا الترتيب تمام الإنطباق علـــى فحـــوى قصـــة إبراهيم فى القرآن الكريم :

(فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحـــب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين وحاجـــه قومـــه قـــال أتحاجونى فى الله وقد هدانى ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشـــاء ربى شيئاً وسع ربى كل شئ علماً أفلا تتذكرون) [1] [2] .

ويوجز العقاد مذهبه التطورى فيقول :

وجملة القول إن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين النـــاس فلم تطرد على مراحل متشابهة فى جميع الأمم ولا فـــى جميـــع الأزمان ولكننا إذا أحطنا بوجهتها العظمـــى وجـــدنا أن عقيـــدة الأرواح لم تفارق أطوارها الأولى وأن عبادة الأسلاف امتزجـــت

---

[1] سورة الأنعام الآية ٧٦ – ٨٠ .
[2] كتاب الله صـ٣٦ – ٣٧ .

بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء فكانت الشمس هى أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ثم أصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى فهى القنطرة الأخيرة بعد العدوتين : عدوة التعديد ، وعدوة التوحيد . ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزاً للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح فتعلمه الإنسان من الديانات الكتابية شيئاً فشيئاً حتى بلغ بالقوة الإلهية نهاية التنزيه"(٣) .

هذه إطلالة موجزة على مضمون المذهب التطوى الذى ذهب إلى أن بداية التدين خرافات وأوهام ثم أوثاناً وتعدد آلهة إلى أن كان التوحيد نهاية تلك الأطوار ولقد عرفنا أن هذا المذهب قد استدل بأمور وشبه فى غاية الضعف لا يمكن أن تقف أمام النقد العلمى والدليل العقلى .

---

(٣) كتاب الله صـ ٣٩ – ٤٠ .

نقد المذهب التطورى :

والدكتور دراز بعد أن وجه نقداً للمذهبين التطورى والفطرى لمحاولاتهما تحديد ديانة الإنسان الأول - كما مر - يسوق من الأدلة المنطقية والبراهين الموضوعية ما نقد به المذهب التطورى وأثبت أن التحليل النفسى وشواهد التاريخ والتطور الصحيح لا يقف شئ منها فى صف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية والتى تجعل الخرافة والأسطورة هى بداية الأديان وذلك حيث قال :

" .. إن المذهب التطورى مبنى على افتراض آخر لم يقم عليه دليل كذلك وهو قياس الملكات والأحاسيس الروحية على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية : فكما أن الإنسان ينتقل فى نموه البدنى من الضعف إلى القوة وفى نموه العقلى من الجهالة إلى المعرفة قد يلوح أيضاً أنه بدأ حياته الروحية بالسخف والخرافة ولم يصل إلى العقيدة السليمة إلا بعد جهد وعناء .

ونحن نسأل قبل كل شئ عن الأصل الذى بنى عليه هـذا القياس :

هل صحيح أن قوى النفس المختلفة تسير فى نموها علـى قدم المساواة وأن حياة الناس الروحية تمشى فى كل أدوارها جنباً إلى جنب مع حياتهم المادية ؟ .

أولسنا نرى هاتين الظاهرتين تسيران أمامنا فى طـريقين متعارضين ؟

فإذا صح ما يقال من أن الإنسان كان فـى بدايتـه قانعـاً بكهف يؤويه وجلد حيوان يستر به بشرته وشئ مـن الأعشـاب يدفع مخمصته ألا تكون قلة مشاغله ومطامحه المادية قد تركـت فى نفسه فراغاً عميقاً للتأملات التى ترهف حاسته الدينية وتنمـى مشاعره الروحية العليا ؟ كما أن اشتغال النـاس فـى عصـور المدنيات بترف الحياة الجثمانية يؤدى إلى عكس هذه النتيجة ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص بقـدر مـا تنمـو وتقـوى

أضدادها ككفتـــى الميـــزان : لا ترفـــع إحـــداهما إلا انخفضـــت الأخرى"(١) .

ويقول :

" على أن قليلاً من التأمل يهدينا إلى أن قياس الأديان على الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلـــف بينهمـــا حقيقة نوعية مشتركة بل تتباين طبائعها ووسائلها فبينمـــا حقـــائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس فى طلبها واكتســـابها ويتطلـــب اقتناؤها وتنميتها علاجاً ومثابرة واستعانة بأدوات منفصـــلة فـــى غالب الأمر حقيقة الدين توجد عناصرها قـــارة بـــين الجـــوانح وتعرض دلائلها لائحة أمام الحس حتى إن التفاته يســـير لتكفـــى للظفر بها فى حدس سريع كالبرق الخاطف ولـــيس إدراك هـــذه الحقيقة الكبرى محصول إدراكات لحقائق الكون ودقائقه الجزئيـــة ولا هو أشق منها كما ظن بل إنه يتقدمها ويمهد لها فى نظرة كلية تلم بها جملة قبل أن تفحص أجزاؤها تفصيلاً ولذلك يستوى العالم

---

(١) الدين صـ ١١٥ .

والجاهل فى أصل هذا الإحساس كل على فهمه يجد فى الكون ما يبهره ويستولى على مشاعره .

لقد كان مقتضى الوضع السليم فى التعرف ما كانت عليه بداية الأديان فيما قبل التاريخ أن نسترشد فى مقارنتها لا بسير الفنون والصناعات بل بسير الديانات المعروفة منذ طفولة التاريخ إلى اليوم إلا وإننا نعرف بالإستقراء أن كل واحدة من هذه الديانات بدأت بعقيدة التوحيد النقية ثم خالطها الشوائب والأباطيل على طول العهد فالأشبه أن تكون هذه سنة التطور فى الديانات كلها : أن بدايتها دائماً خير من نهايتها .

فإذا أبينا إلا أن نقيس تطور الدين على تطور الفن كان من الحق علينا ألا نأخذ فى هذه المقارنة بالمقاييس السطحية والتشابه اللفظى الأجوف بل ننظر إلى جوهر الأشياء وأعماقها وحينئذ ينقلب هذا القياس نفسه حجة فى يد أنصار " الفطرية " ذلك أن معنى " التطور " فى الفنون كما فى كل كائن حى هو أنها تبدأ فى صورة ساذجة متحدة متجانسة ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من

التكثر والتركيب تزداد به تعقيداً كلما بعدت عن أصلها وواضح أن تطبيق هذا القانون التطورى بمعناه العلمى الحيوى على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة ومن النقاوة والسهولة واليسر إلى التعقيد بالإضافة إلى الأسطورية والنزوات الخيالية التى لا ضابط لها من العقل السليم .

أما " التطور " بمعناه الأدبى وهو الترقى من النقص إلى الكمال فليس قانوناً علمياً ولا سنة طبيعية مطردة ولا يمكن تطبيقه بصفة آلية على التاريخ البشرى وإنما هو إحدى القيم العليا التى تطمح إليها النفوس وتشرئب إليها الأعناق فتبلغها حيناً وتنحصر عنها أحياناً نعم إن كل مصلح لابد أن يكون مؤمناً بإمكان تحقيق هذه الغايات السامية إذ لولا الأمر فى قابلية الأخلاق والعقائد للتحول والرقى لبطل كل تشريع ولأصبح من العبث بذل أدنى مجهود للتقدم ولكن شتان ما بين قابلية الترقى وبين تحقيقه بالفعل فهذا مطمح لا يناله إلا من أدى مهره من العزيمة الصادقة

والمجاهدة المتواصلة وتاريخ الإنسانية لا يسير فى هــذا الاتجــاه على خط رأسى مستقيم ([1]) .

ويقول :

هكذا نرى أن التحليل النفسى وشواهد التــاريخ والتطــور الصحيح لا يقف شئ منها فى صـــف الــدفاع عــن النظريــات الموسومة بالتطورية والتى تجعل الخرافة والأسطورة هى بدايــة الأديان بل أنها بالعكس تميل إلى تأييد النظرية المقابلة .

غير أن تأييدها لهذه النظرية الأخيرة لا يرفعها إلى صف الحقائق التاريخية المفروغ منها لأن هذه الدلائل كلها لا تقدم لنــا ضماناً من المنطق ولا من الواقع تثبت به أن الحــوادث كانــت تسير بالفعل دائماً على وفق ما الفناه من الأوضاع ولا على الوجه الذى كان ينبغى أن يكون ([2]) .

([1]) الدين صـ ١١٥ – ١١٧ .
([2]) الدين صـ ١١٧ .

والدكتور دراز بعد أن أكد على أن الدلائل التـــى قـــدمها أنصار المذهبين وعلى الأخص التطورى لا تقدم لنا ضماناً مـــن المنطق ولا من الواقع تثبت به تحديد. ديانة الإنسان الأول وأنهـــا كانت فى البداية خرافات وأوهام وأساطير كما أن التحليل النفسى وشواهد التاريخ والتطور الصحيح كل ذلك يقــف فـــى مواجهـــة النظرية التطورية بعد أن أكد كل ذلك يقدم فضيلته نظرية ثالثـــة يمكن الأخذ بها فى المسألة التى نحن بصددها فيقول :

" إن الرشد والضلال فى الفكرة الدينية ليستا ظاهرتين متعـــاقبتين فقط صعوداً أو انحداراً على مدى العصور بل همـــا ظاهرتـــان متعاصرتان موزعتان فى كل أمة وجيل تبعاً لاختلاف الأفراد فى درجات استقامة الحدس العقلى ونبل الحس الباطنى فلا يخلو جيل ما من نفوس صافية تدرك الحقيقة نقية مـــن شـــوائب الخرافـــة وأخرى دون ذلك ولعل هذا الوصف هو أقرب الأوصاف تصويراً للواقع المعروف فقد اتفق الموثوقون بهم من مؤرخى الأديان على أن أشد الشعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو

رب الأرباب لكن بين القدر الذى عرفناه من تاريخ.البشرية وبين عصر نشأتها لا تزال الثغرة واسعة لم تسد ولن تسد إذ لـم يقـل أحد أن الوقائع المفقودة الوثائق يمكن اثباتها على وجه قاطع بمثل هذا الضرب من التخمين اعتماداً على مجرد حسن المقابلة وجمال التناسق بينها وبين الوقائع المعروفـة دون تثبـت مـن تشـابه الظروف والملابسات فى طرفى القياس (١) .

ويؤكد على أصالة التدين فى الفطـرة الإنسـانية وعلـى فطرية التوحيد وأصالته فيقول :

" فاعلم أن كلمات الباحثين فى نفسيات المتدينين وعقليـاتهم قـد تطابقت على أنه ليس هناك دين أيا كانت منزلته مـن الضـلال والخرافة وقف عند ظاهر الحس واتخذ المادة معبودة لذاتها وأنـه ليس أحد من عُبَّاد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته فى الحقيقة هياكلها الملموسة ولا رأى فى مادتها من العظمـة الذاتيـة مـا يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم وكل أمرهم هو أنهم كانوا

---

(١) الدين صـ ١١٨ .

يزعمون هذه الأشياء مهبطاً لقوة غيبية أو رمزاً لسر غامض يستوجب منهم هذا التقديس البليغ فهى فى نظرهم أشبه شئ بالتمائم والتعويذات التى يتفائل أو يتبرك بها أو يستدفع بها شئ من الحسد أو السحر لا على أن لها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار فى الرماد أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس بل على أن وراءها أو حولها روحاً عاقلاً مدبراً مستقل الإرادة يستطيع أن يغير بمشيئته سير الأمور ومجرى العادات فيعطى ويمنع ويضر وينفع من حيث لا ينتظر الناس ذلك فى العادة وأن تلك المواد المشاهدة ما هى فى اعتقادهم إلا مظهر ومطلع يطل منه هذا الروح الخفى ويبارك من يتمسح بتلك الهياكل التى اتخذها له مظهراً ومزاراً " (١) .

ويقول :

" إن القوة التى يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة وصورة عقلية خالصة بل هى حقيقة خارجية وأن هذه الحقيقة ليست مادة يقع

---

(١) الدين صـ ٣٨ – ٣٩ .

عليها الحس بل هى سر غيبى لا تدركه الأبصار إن هــذه القــوة الغيبية قوة عاقلة تتصرف بالإرادة لا بالضـــرورة كالمغنـــاطيس والكهرباء وإن لهذه القوة عناية مستمرة بشئون العالم الذى تدبره وإن لها تجاوباً نفسياً مع نفوسه " ([٢]) .

وإذاً فإن التدين كما يقول الدكتور دراز شوق غريزى إلى الأزلى الأبدى وهذا الطلب الحثيث للكل اللانهائى .. وهو عنصر ضرورى لتكميل قوة الوجدان فالعواطف النبيلة من الحب والشوق والشكر والتواضع والحياء والأمل وغيرها إذا لم تجـد ضـــالتها المنشودة فى الأشياء ولا فى الناس وإذا جفت ينابيعها فـــى هــذا العالم المتبدل المتبدد وجدت فى موضوع الدين مجالاً لا تـــدرك غايته ومنهلاً لا ينفذ معينه .

وأخيراً هو عنصر ضرورى لتكميل قـــوة الإرادة يمـــدها بأعظم البواعث والدوافع ويدرعها بأكبر وسائل مقاومة لعوامـــل اليأس والقنوط .

([٢]) نفسه صـ ٣٩ – ٤٠ .

وهكذا نرى الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها حتى إنه كما صح أن يعرّف الإنسان بأنه " حيوان مفكر " أو بأنه " حيوان مدنى بطبعه" يسوغ لنا كذلك أن نعرّفه بأنه " حيوان متدين بفطرته " (١) .

والدكتور حب الله فى أثناء نقده للمذهب التطورى يقدم لأنصار هذا المذهب مع فروضهم المطروحة فرضاً آخر ليس من العسير قبوله وليس من السهل رده وذلك حيث يقول :

" يذهب كثير من علماء الأديان إلى أن العقائد الدينية : تطورت عن الأساطير والقصص والخرافات ويرى آخرون أن السحر قد وجد قبل الدين .

ويذهب آخرون إلى أن الفيتشية (٢) هى أصل العقائد وهى أسبقها.

---

(١) الدين صـ ٩٩ – ١٠٠ .

(٢) الفيتشية : إعتقاد أن لكل مادة روح تحل بها وأن الاستحواذ على تلك المادة يمكن الإنسان من استخدام روحها والإنتفاع بها (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء .. صـ ٩) .

ويرى آخرون أن منشأ الإعتقاد هـو الإحسـاس بروعـة المجهول . ويرى آخرون أنه الشعور بالضعف وبالحاجـة إلـى ظهير .

بيد أن ذلك كله لا يعدو أن يكون فروضاً قد يكون لها مـا يسمح بافتراضها فلا شك أن هناك حالات كثيرة ذكرها العلماء قد تشهد لبعض العقائد ولكن ليس هناك ما يمكن أن يدل على صحة التعميم فهى كلها فروض ولابد أن تظل كذلك وهى على الـرغم من هذا فروض غير حاضرة إذ قد بقى أن يقال أن العقيدة وحـى إلهى ولست أدرى ما الذى يمنعنا من وجهة منطقية محضة أو من وجهة البحث العلمى أو من وجهة تاريخية محضة من قبول هـذا الفرض الأخير فنقول إن العقائد الدينية الصحيحة كانت وحياً إلهياً من أول الأمر جاء إلى الإنسان منذ وجوده فوافق ميوله النفسـية فقبله وآمن به ؟ " (٣) .

---

(٣) د/ رؤوف شلبى / يا أهل الكتاب تعالوا .. صـ ٨ – ٩ .

ويوجه الدكتور عوض الله حجازى نقداً لنظريـــة التطـــور فيقول :

" إنهم يقولون أن الإنسان قد تطـــور فـــى الناحيـــة الإجتماعيـــة والناحية الصناعية تطوراً ملموساً ويتفق العلماء على ذلك وهو ما يسمى بالتقدم الصناعى والحضارى وإذا ثبت هذا فلابد أن يكـــون قد تطور فى العقيدة أيضاً .

إن الإنسان قد تطور حضارياً واجتماعياً من السكنى فـــى الكهوف وأغوار الجبال إلى السكنى فى البيوت المتخذة من الشعر والوبر إلى البيوت المتخذة من الطين إلـــى العمـــارات الكبيـــرة الفخمة المعدة بأحدث ما توصل إليه العلم من الحضارة والمدنيـــة والإضاءة بالكهرباء والتكييف بالحرارة والبرودة وتطور اجتماعياً من إيقاد النار بواسطة الأحجار أو الشعاع الشمسى إلى صـــناعة الكبريت ثم الإيقاد بواسطة الكهرباء .

وتطور فى الصناعة من إجراء العملية الجراحية للإنســـان وغيره بواسطة الأدوات البدائية من النصل والحديد والسكين إلى

الآلات الحادة الدقيقة فى حجرات مغلقة غاية فى النظافة ومطهرة غاية التطهير .

إذا كان الأمر كذلك فلابد أن يكون الإنسان قد تطور فـــى العقيدة كذلك من عبادة الطبيعة أو الأرواح الخفية إلى عبادة الإله الواحد.

ولكن الواقع أن هذه الشبهة شبهة واهية ذلك أنه قياسى مع الفارق فالتقدم الاجتماعى والحضارى والصناعى تقدم فى **الأمور** المادية والدين إنما يتعلق بالناحية الروحية ، الناحيـــة المعنويـــة التجردية فالجامع بين المقيس والمقيس عليه معدوم فيبطـــل هـــذا القياس .

وأيضا فإن التقدم الحضارى والصناعى قـــد تطـــور مـــن الأمور الساذجة البسيطة من الأمور السهلة إلى الأمور المركبـــة المعقدة .

وليس التطور فى الأديان كذلك فإنه على رأيهم قد تطـــور من الأمور المعقدة من الأمور الغير مفهومة وهى العلاقـــة بـــين

الإنسان والرياح والأنهار أو العلاقة بين الإنسان والحيوان الـذى عقد صلة بينه وبين هذه الأشياء حتى عبدها وهو أمر معقد غيـر مفهوم إلى عبادة الإله الخالق الواحد الأحد المتصرف فـى هـذا الكون وهو أمر يسهل تصوره ويمكن إدراكه لأنه أمر سهل يلائم الطبيعة والفطرة فكيف يكون التطور فى الأديان من المعقد إلـى الأسهل ومن المركب إلى البسيط إن القياس أيضـاً قيـاس مـع الفارق .

أيضاً أصحاب المذهب التطورى يستدلون على رأيهم بأن بعض القبائل المتخلفة فى وسط أفريقيا وفى أوسـتراليا وبعـض سكان أمريكا مازالوا يعبدون الأوثان والأصنام وهـم مـع ذلـك متخلفون اجتماعياً فهناك ارتباط بين هذا التخلف الاجتماعى وبين عقائدهم الدينية الباطلة المبنية على الأوهام والأساطير .

ويمكن الرد على هؤلاء بأنها شبهة واهية وأنه ليس هناك ارتباط بين الحضارة والمدنية والتدين والعبادة فلقد بلغـت الهنـد

شأناً بعيداً فى الحضارة والمدنية ولازال أغلب سكانها يعبدون الأبقار ويقدسون الحيوانات والأشجار .

ولقد بلغت روسيا والصين مبلغاً عظيماً فى الحضارة المدنية ولازال الجمهور من سكانها لا يؤمنون بالله ولا يعترفون بخالق .

ونخلص من هذا بأنه ليس هناك ارتباط بين التقدم الحضارى والصناعى والعقيدة الدينية لأنه ليس هناك جامع بينها[1] .

كما أن استدلال العقاد بآيات من القرآن الكريم وهو ما ورد فى سورة الأنعام فى قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – استدلال فى غير محله فهو يقول :

" وينطبق هذا الترتيب تمام الإنطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن الكريم (فلما جن عليه الليل ..) الآيات .

([1]) مقارنة الأديان صـ ٣٩ – ٤١ .

ذلك أنه يستنتج من هذه الآيات أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – كان متحيداً بادئ ذى بدء فى الإهتداء إلى الحق وأنه قد تدرج فى عقيدته وتدينه من الإيمان بالكواكب وهى متعددة إلى الإيمان بالقمر ثم الشمس وهى أكبر ما تقع عليه العين ولا يخفى ما لها من آثار فى هذه الحياة ولهذا قال إبراهيم فى شأنها (هـذا ربى هذا أكبر) ثم انتهى – عليه السلام – إلى عقيدة التوحيد ونفى الشرك فيدل ذلك فى نظر العقاد على مذهب التطور فى العقيدة على رأيه (١) .

واستدلال العقاد وغيره بهذه الآيات على مذهب التطور فى العقيدة والتدين فى غير محله – كما أشرنا – وقد جانبه التوفيق والصواب لأنه أخذ بظاهر الآية واستدل بها على أن سيدنا إبراهيم كان يريد أن يصل إلى المعرفة ففكر ونظر وقارن ثم هداه الله فى النهاية .

---

(١) د / عوض الله حجازى / مقارنة الأديان صـ ٤١ بتصرف .

والواقع أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لم يكن شاكاً فى عقيدته ولم يكن حائراً فى الإيمان بوجود الله تعالى الواحد الأحد ولم يكن يؤمن بأن الكواكب والقمر والشمس آلهة وإنما وجد إبراهيم – عليه السلام – فى وسط قوم يعبدون هذه الأشياء فأراد أن يقيم الأدلة العقلية المأخوذة من الحس على بطلان هذه العقيدة وعلى بطلان عبادة الكواكب والإشراك بالله التى يدين بها قومه فاستدرجهم – عليه السلام – إلى الإيمان بالإله الواحد الذى خلق السماوات والأرض وأبدع هذا الكون الجميل الفسيح بعد أن أبطل عقيدتهم فى الإيمان بالكواكب والقمر والشمس لأنها أشياء تغيب وتزول ولا يصح للإله أن يغيب ويأفل ([٢]) .

يقول الشهرستانى :

" وإبراهيم – عليه السلام – بعد أن " ابتدأ بكسر مذاهب أصحاب الأشخاص فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم (**بل**

([٢]) المصدر السابق صـ ٤١ – ٤٢ والأديان فى القرآن صـ ٢٩ .

فعله كبيرهم هذا) كما أفحمهم حيث أحال الفعل منهم وكـل ذلـك على طريق الإلزام عليهم وإلا فما كان الخليل كاذباً قط .

ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل وكمـا أراه الله تعالى الحجة على قومه قال (وكـذلك نـرى إبـراهيم ملكـوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين) فأطلعـه علـى ملكـوت الكونين والعالمين تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها وترجيحـاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة .. فأقبل على إبطال مـذهب أصحاب الهياكل (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قـال هـذا ربى) على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام (بل فعله كبيرهم هذا) وإلا فما كان الخليل – عليه السلام – كاذباً فى هـذا القـول ولا مشركاً فى قوله (هذا ربى) .

ثم استدل بالأفول : الزوال والتغير والإنتقال على أنـه لا يصلح أن يكون رباً إلهاً فإن الإله القديم لا يتغير وإذا تغير احتاج إلى مغير هذا لو اعتقدتموه رباً قديماً وإلهاً أزلياً ولو اعتقـدتموه بواسطة وقبلة وشفيعاً ووسيلة فإن الأفول والزوال يخرجه أيضـاً

عن حد الكمال وعن هذا ما استدل عليه بالطلوع وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول فإنهم انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول فأتاهم الخليل – عليه السلام – من حيث تحيرهم فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته وذلك أبلغ في الإحتجاج ...

فإن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج وعن هذا قال (**فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر**) لإعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك وهو رب الأرباب الذى يقتبسون منه الأنوار ويقبلون منه الآثار (**فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**) قرر الخليل – عليه السلام – مذهب الحنفاء وأبطل مذاهب الصابئة وبين أن الفطرة هى الحنيفية وأن الطهارة فيها وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها وأن النجاة والإخلاص متعلقة بها وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها وأن الأنبياء والرسل مبعوثون

لتقريرها وتقديرها وأن الفاتحة والخاتمة والمبدأ والكمـال منـوط بتحصيلها وتحريرها (**ذلك الدين القـيم**) والصـراط المسـتقيم والمنهج الواضح والمسلك اللائح " ([١]) .

هذا علاوة على أن مفتتح هذه الآيات ومختتمها ومسـراها كل ذلك يدل على أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام– كان يريد أن يقدم الدليل المحسوس لقومه على بطلان عقيدة الشرك فاستدرجهم بهذا القول ليسلمهم فى النهاية إلى التسليم بالوحدانية .

فاستهلاك الآية ينعى فيه إبراهيم – عليه السـلام – علـى أبيه وقومه وشركهم وضلالهم وكيف ينعى عليهم عقيـدتهم هـذه وهو لما يصل بعد إلى العقيدة التى يطمئن إليها كل الإطمئنان :

(**وإذ قال إبراهيم لأبيه آذر أتتخذ أصنام آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين**) ([٢]) .

([١]) الملل والنحل جـ ٢ صـ ٥١ – ٥٤ .
([٢]) سورة الأنعام الآية ٧٤ .

فهذه الآية الواردة فى صدر القصة التى تدل على أن الخليل كان مؤمناً وأنه كان ينبغى على أبيه وقومه الإشراك بالله وكان يبين لهم ضلالهم وبعدهم عن الطريق المستقيم :

كما أن مختتم الآيات يدل على أن اعترافه – عليه السلام– بالربوبية والوحدانية لفاطر السماوات والأرض .

(إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) ([٣]) .

يضاف إلى ذلك أن الله تعالى قد أتاه رشده من قبل .

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) ([٤]) .

وأراه سبحانه ملكوت السماوات والأرض فهداه وعصمه :

(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين) ([٥]) .

وعلى هذا فلم يكن الأمر إذن إلا أمر مجاراة واستدراج .

([٣]) سورة الأنعام الآية ٧٩ .
([٤]) سورة الأنبياء الآية ٥١ .
([٥]) سورة الأنعام الآية ٧٥ .

ويحدثنا الدكتور يحيى هاشم عن خطأ نظرية التطور وخطرها على العقيدة الإسلامية فيقول :

" .. لا مجال للحديث عن التطور باعتباره سبباً من أسباب تعدد الأديان أو تعدد الأنبياء وذلك .. لأن نظرية التطور فى هذا المجال من أخطر المقولات التى تموج بها التيارات الفكرية المعاصرة وخطرها على العقيدة الإسلامية يأتى من طرفين : طرف البداية وطرف النهاية جميعاً .

- فمن حيث طرف البداية تقتضى النظرية أن يكون (آدم) – عليه السلام – فى درجة منحطة من التفكير والتدين بينما هو الذى يتحدى القرآن بعلمه علم الملائكة وهو الذى قام بين يدى الله يأخذ العلم منه **(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسمائى هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسماءهم فلما**

أنبئهم بأسماءهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) ([1]) .

وهذا مناقض تماماً لما تقتضيه نظرية التطور .

•وهى – أى نظرية التطور – خطر من طرف النهاية لأنها تقتضى انفتاح المستقبل أمام رسالات جديدة لأن الباب مفتوح دائماً وفق لنظرية التطور لنضج إنسانى جديد وتقدم جديد يقتضى عقيدة جديدة وهكذا ..

وهذا مناقض تماماً لما تقتضيه العقيدة الإسلامية .

وإذن فنظرية التطور مرفوضة تماماً من الناحية الإسلامية كتفسير لتعدد الأنبياء .

ومن جهتنا فإن التفسير الإسلامى لتعدد الأنبياء المختوم بمحمد – صلى الله عليه وسلم – قائم فى وسائل الحفظ والاتصال عند اختفائها أولاً ثم وجودها واستقرارها أخيراً ([2]) .

([1]) سورة البقرة الآية ٣١ – ٣٣ .

([2]) الفكر الإسلامى فى مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة صـ ٢٧٧ – ٢٧٨ .

ويستدل فضيلته بقول النبى – صلى الله عليــه وســلم – (مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه وترك منه موضـــع لبنــة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة ختم بى الرسل) .

وهذا التشبيه الذى جاء فى هذا الحديث لا يتفق مع نظــرة التطور التى ترى أن الجديد أفضل من القديم أما هنا فتبلغ فضيلة التواضع أقصاها عند الرسول – صلى الله عليه وســلم – فهــو " لبنة " يتم بها القصر وأفضلية محمد – صلى الله عليه وســلم – تتقرر بطريق آخر ليس هو طريق التطور والتمام المشار إليه فى الحديث السالف إنما هو للبناء التاريخى تــاريخ الأنبيــاء فهــذا التاريخ مجرد متواليات تنتهى بظهور محمد – صــلى الله عليــه وسلم – وهذه النظرية تختلف تماماً عــن البنــاء التطــورى لأن التطور لا يعرف النهاية وإنما هو مفتوح دائماً وذلك لا يتفق مــع كون محمد – صلى الله عليه وسلم – هو النهاية أو الخاتم (١) .

(١) نفسه صـ ٢٩١ – ٢٩٢ .

وأخيراً فإننا نرى أن كلمة " تطور " كلمة دخيلة فى هـذا المجال العقيدى فالعقيدة الإلهية واحدة وهى : الوحدة والتوحيد أما التطور فإنما الذى يوصف به فى الحقيقة إنما هم البشر بالنسـبة للعقيدة أو موقف البشرية بالنسبة للعقيدة الإلهية فالبشرية مـرت بأطوار كان لكل طور فيها تشريع إلهى مناسباً فى الفروع وفـى صور العبادات وتفصيلات الأحكام .

أما الأصول العقيدية وأصول الشرائع فكان ذلك واحد فى كل دين وفى كل وقت منذ منشأ الإنسان الأول إلى دعـوة خـاتم الأنبياء .

فليس هناك حضارة عقيدية ولكن هناك تشريع حضارى أو حضارة تشريعية وتقنين إنسانى وقانون اجتماعى .

لم يكن التوحيد هو نهاية الأطوار بل هو البدء والمختتم[٢] كما سيأتى .

---

(٢) د / الشريف / الأديان فى القرآن صـ ٣٠ بتصرف .

التفسير القرآنى لظاهرة التدين :

ولئن كانت النظريات والمذاهب قد عجزت عن التوصل إلى الصواب فى تفسير ظاهرة التدين أو تحديد ديانة الإنسان الأول كما يقول (جروف) : " يصعب جداً أن يرد الإنسان نشوء الدين إلى نظام معين ولابد فى استعراض شئ من هذا القبيل أن يتجاوز الكاتب عن كثير مما يصادفه من الشواذ والاستثناءات وأن يكتفى بتحديد القليل من التواريخ والعهود الزمنية (١) .

فإن القرآن الكريم قد وضح ذلك غاية الوضوح حيث عرض (الباعث) على التدين فى نفس الإنسان وذلك على النحو التالى :

١- فقد قرر القرآن الكريم أن الله تعالى قد استخرج من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم التى سوف توجد جيلاً بعد جيل فى قرن بعد قرن وأنه سبحانه قد فطرهم جميعاً على معرفته منذ أن كانوا فى عالم الذر وأنه عز وجل قد أشهدهم على أنفسهم وقررهم بهذه

(١) د / رؤوف شلبى يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء / صـ ١٠ .

المعرفة وأنهم جميعاً قد اعترفوا له سبحانه بالربوبية وأقروا لـه بالعبودية وشهدوا له بالوحدانية يقول تعالى :

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) ([٢]).

تعرض هذه الآيات قضية التوحيد من زاوية الفطرة التى فطر الله عليها البشر وأخذ بها عليهم الميثاق فى ذات أنفسهم وذات تكوينهم وهم بعد فى عالم الذر فالاعتراف بربوبية الله وحده فطرة فى الكيان البشرى فطرة أودعها الخالق فى هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته وحكم ما تستشعره فى أعماقها من هذه الحقيقة أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى فيحتاجون إلى التذكير والتحذير ، إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر

([٢]) سورة الأعراف الآية ١٧٢ – ١٧٤ .

من كينونتهم الأولى فلا حجة لهم فى نقض الميثاق حتى لـــو لـــم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم ولكن رحمتـــه وحــدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ، وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التى أعطاها لهم فقد تضل ، وأن يبعث إليهم رســلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ([١]).

ويحدثنا ابن كثير عن هذا الميثاق الأكبر الــذى أخـــذه الله تعالى على فطرة البشر فيقول :

" يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصـــلابهم شـــاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ... ([٢]) .

وقد أورد إبن كثير عدداً من الأحاديث فى تفسير هذه الآية فمن ذلك قوله :

" .. وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صـــلب آدم – عليـــه السلام – وتميزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشـــمال وفـــى بعضها الإستشهاد عليهم بأن الله ربهم :

([١]) الظلال جـ ٣ صـ ١٣٩١ .

([٢]) مختصر تفسير ابن كثير جـ٢ صـ ٦٣.

" قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شئ أكنت مفتدياً به ؟ قال: فيقول : نعم ، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى) .

وقال الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم- قال :

(إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال : " ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيام إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - إلى قوله - المبطلون) .

وعن ابن مسعود عن جرير قال : " مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال : يا جابر إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فإن ابنى مجلس ومسؤل ففعلت به الذى أمر فلما فرغت قلت : يرحمك الله عم يسأل من

يسأله إياه ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذى أقّر به فى صـــلب آدم قلت يا أبا القاسم : وما هذا الميثاق الذى أقَرّ به فى صـــلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس : إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منـــه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبــدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم فى صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك مـــنهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومـــن أدرك الميثـــاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة " ([1]) .

ويقول ابن كثير : " ومن ثم قـــال قـــائلون مـــن الســـلف والخلف: أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشـــعى ومـــن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع وقد فســـر الحســـن الآية بذلك قالوا ولهذا قال : **(وإذا أخذ ربك من بنى آدم)** ولم يقل

([1]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٦٣ .

من آدم (**من ظهورهم**) ولم يقل من ظهره (**ذرياتهم**) أى جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى (**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض**) ([٢]) وقال (**ويجعلكم خلفاء الأرض**) ([٣]) وقال (**كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين**) ([٤]) .

ثم قال : (**وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى**) أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً .

- والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : (**قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين**) ([٥])
- وتارة تكون حالاً كقوله تعالى : (**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر**) ([٦]) أى حالهم شاهد عليهم

([٢]) سورة الأنعام الآية ١٦٥ .
([٣]) سورة النمل الآية ٦٢ .
([٤]) سورة الأنعام الآية ١٣٣ .
([٥]) سورة الأنعام الآية ١٣٠
([٦]) سورة التوبة الآية ١٧ .

بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى : **(وإنـــه علـــى ذلـــك لشهيد)** [١] .

كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله: **(وآتاكم من كل ما سألتموه)** [٢] .

قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعـــل هـــذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فـــإن قيـــل : إخبـــار الرسول – صلى الله عليه وســـلم – بـــه كـــاف فـــى وجـــوده ؟ فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جـــاءتهم به الرسل من هذا وغيره وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهـــذا قـــال : **(أن تقولوا)** أى لئلا تقولوا يوم القيامة **(إنا كنا عن هذا)** أى عن التوحيد **(غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا)** الآية [٣] .

---

(١) سورة العاديات الآية ٧ .
(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٤ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٦٤ – ٦٥ .

وفي مختتم الآيات التي قررت أن هناك ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها على توحيده سبحانه يقول الله عز وجل :

(وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون)

يرجعون إلى فطرتهم وعهدها مع الله وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بانتفاض حقيقة التوحيد في القلوب وردها إلى بارئها الوحيد الذى فطرها على عقيدة التوحيد ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير [٤] .

إن قضية الفطرة والعقيدة قد عرضها السياق القرآنى فى صورة مشهد وإنه لمشهد فريد مشهد الذرية المكنونة فى عالم الغيب السحيق والمستكنة فى ظهور بنى آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود ، تؤخذ فى قبضة الخالق المربى فيسألها : (ألست بربكم؟) فتعترف له سبحانه بالربوبية وتقر له سبحانه بالعبودية وتشهد له سبحانه بالوحدانية وهى منثورة كالذر مجموعة فى

---

[٤] الظلال جـ ٣ صـ ١٣٩٦.

قبضة الخالق العظيم إنه مشهد كونى رائع باهر لا تعرف اللغة له نظيراً فى تصوراتها المأثورة وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشرى جهد طاقته وحينما يتصور تلك الخلايا التى لا تحصى وهى تجمع وتقبض وهى تخاطب خطاب العقلاء بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التى أودعها إياها الخالق المبدع وهى تستجيب استجابة العقلاء فتعترف وتقر وتشهد ويؤخذ عليها الميثاق فى الأصلاب .

وإن الكيان البشرى ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد وهو يتمثل الذر السابح وفى كل خلية حياة وفى كل خلية استعداد كامن وفى كل خلية كائن إنسانى مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور فى الصورة المكنونة له فى ضمير الوجود المجهول ويقطع على نفسه العهد والميثاق قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم ([1]) .

([1]) نفسه جـ ٣ صـ ١٣٩٢ .

٢- وكما أوضح القرآن الكريم فى النص السالف العهد والميثـاق الذى أخذه الله تعالى على ذرية بنى آدم على الإعتراف له سبحانه بالربوبية والإقرار له سبحانه بالعبودية والشـهادة لـه سـبحانه بالوحدانية وهم فى عالم الذر فإن القرآن الكريم قد أوضح كـذلك أنه سبحانه قد أنشأهم مفطورين على الإعتراف له تعالى بالربوبية وحده وجبلهم على ذلك : قال تعالى :

(**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبـديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) ([٢]) .

يقول ابن كثير : " يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال ولازم فطرتك السليمة التى فطـر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنـه لا إله غيره .. وجبلهم عليه " ([٣]) .

([٢]) سورة الروم الآية ٣٠ .
([٣]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٣ – ٥٤ / جـ ٢ صـ ٦٣ .

" وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين وكلاهما من صنع الله وكلاهما موافق لناموس الوجود وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه والله الذى خلق القلب البشرى هو الذى أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب لـه مـن المـرض ويقومه من الإنحراف وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيـف الخبيـر والفطرة ثابتة والدين ثابت (**لا تبديل لخلـق الله**) فـإذا إنحرفـت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الـدين المتناسـق مـع الفطرة فطرة البشر وفطرة الوجود " ([1]) .

يقول ابن كثير : " وقوله تعالى : (**لا تبديل لخلق الله**) :

▪ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها فيكون خبراً بمعنى الطلب كقولـه تعـالى (**ومن دخله كان آمناً**) وهو معنى حسن صحيح .

([1]) الظلال جـ ٥ صـ ٢٧٦٧ .

• **وقال آخرون هو خبر على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ولهذا قال ابن** عباس لا تبديل لخلق الله أى لدين الله .. " ([٢]) .

يقول الدكتور رؤوف شلبى :

قال العلماء :

يكون معنى الجملة : الطلب فى صورة الإخبار يعنى : لا تبدلوا خلق الله .

أو يكون معنى الجملة الخبر على الحقيقة ويكون المفهوم : أن الله جلت قدرته خلق الخلق جميعاً على الجبلة المستقيمة التى لا يمكن تبديلها ولا يولد ولد إلا وهو مجبول على الدين الحنيف ولا يغير الله خلقه ... وإنما الذى يحاول التغييرهو الأب والأم... ففيه تهديد وتحميل للمسؤلية على إرادة التغيير .. " ([٣]) .

٣- وإذا كان القرآن الكريم قد أوضح أن التدين مرتبط بعليته الأساسية المركوزة فى فطرة الإنسان وهى الميثاق الأول الذى

([٢]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٤ .

([٣]) يا أهل الكتاب تعالوا .. صـ ١٣ .

أخذه الله سبحانه على البشر عامة فى عالم الذر وأن الله تعالى قد أنشأهم جميعاً على الإعتراف له تعالى بالربوبية وحـــده وجـــبلهم على ذلك .

فإن نصوص الكتاب العزيز تنادى بأن الناس بدؤا حيـــاتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه وأن الإنحراف والإختلاف إنما جاء عارضاً طارئاً بعد ذلك قال تعالى :

(وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) (١)

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (٢) .

يقول ابن كثير فى تفسير الآية الأولـــى : " .. ثـــم أخبـــر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس كائن بعد أن لم يكـــن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام .

---

(١) سورة يونس الآية ١٩ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قــرون كلهــم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بــين النــاس وعبــدت الأصــنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه **البالغــة** وبراهينه الدافعة **(ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينـــة)** وقوله **(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفــون)** أى لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وأنه أجّل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفــوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين " ([٣]) .

ويقول فى تفسير الآية الثانية : " عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فــاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . قال : وكذلك هى قراءة عبد الله **(كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)** .

([٣]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ١٨٨ .

وقال قتادة في قوله : (كان الناس أمة واحدة) قال : كانوا على الهدى جميعاً (فاختلفوا فبعث الله النبيين) فكان أول من بعث نوحاً ... " (١) .

يقول ابن كثير : " .. أن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً – عليه السلام – فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ولهذا قال تعالى (**وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم**) أى من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض .. " (٢) .

والقرآن الكريم يحدثنا عن بدأ نشوء فكرة الأصنام من زمن سيدنا نوح – عليه السلام – الذى دعا قومه إلى توحيد الله تعالى وترك ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر فيقول سبحانه :

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ١٨٧ .

(٢) نفسه جـ١ صـ ١٨٧.

(قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) (٣) .

يقول ابن كثير : " وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله " (٤) .

فهذه النصوص تؤكد على أن القرون التى سبقت رسالة نوح – عليه السلام – كانت خالية من الفكر الوثنى وكانت على التوحيد . وقد تقدم قول ابن عباس – رضى الله عنهما – .

يقوى هذا ويؤكده أن القرآن الكريم لما تكلم عن بدء نشوء الأصنام كان ذلك مساوقاً لبدأ رسالة سيدنا نوح – عليه السلام –.

٤– وإذا كان القرآن الكريم قد قرر أن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام وأن الشرك حادث فى الناس كائن بعد أن لم يكن . أو بعبارة أخرى : أن الناس بدؤا حياتهم مستقيمين على

---

(٣) سورة نوح الآية ٢١ – ٢٣ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٥٤ .

الحق مؤتلفين عليه ثم وقع الإختلاف بينهم وعبدت الأصنام والأنداد .

فإن السنة المطهرة قد أوضحت أن الإنحراف والإختلاف إنما جاء عرضاً طارئاً بعد ذلك وأن استمرار هذا الخلاف واتساع شقته إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه:

ففى الصحيحين – وغيرهما – عن أبى هريرة – رضى الله عنه– قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : **(ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)** ثم يقول أبو هريرة إقرؤا إن شئتم : **(فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)** ([1]) .

وروى الإمام أحمد عن جرير عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال : غزوت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ

([1]) صحيح البخارى جـ ١ صـ ٢٣٥ ومسلم جـ ١٦ صـ ٢٠٧ – ٢٠٩ .

ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاشتد عليه ثم قال : (**ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟**) فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال : (**إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها**) (٢) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : (**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً**) (٣) .

فهذا الحديث الشريف نص فى تفسير الآية الكريمة فطرة الله التى فطر الناس عليها وهما معاً متظاهران على أن الإسلام دين الله هو والفطرة الإنسانية السليمة شئ واحد وأن مبادئ الإسلام مطابقة تماماً لسنن الفطرة وأن ما يعترى الناس من عوج إنما هو أمر طارئ راجع إلى الخروج عن التربية الإسلامية

---

(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٦٣ .
(٣) نفسه جـ ٣ صـ ٥٤ .

الصحيحة أى إلى عدم تنشئة النشء على أصول الإسلام وأخلاقه وأعماله ([1]) .

فالحديث السالف (كل مولود ..) ظاهر الدلالة علـــى أن الإنسان يولد على الفطرة وهى التوحيد هـــى الإســـلام والإنقيـــاد والطاعة للخالق الأعظم أما اليهودية والنصرانية والمجوسية فهى أمور عارضة للإنسانية جاءت إليهم عن طريق الغواية والإضلال بواسطة الشياطين من الإنس والجن أو بواسطة التعليم والتثقيـــف من الآباء والأمهات أو المعلمين والأساتذة ([2]) .

وفى صحيح مسلم – وغيره – عن عياض ابن حمار عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن ربه عـــز وجـــل قال:

([1]) د / محمد أحمد الغمراوى نقلاً عن د/ رؤوف شلبى / يا أهل الكتاب تعالوا.. صـ ١٣ .

([2]) د / عوض الله حجازى / مقارنة الأديان صـ ٣٧ – ٣٨ .

(إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عـــن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً) ([3]) .

٥- كما أن القرآن الكريم قد قرر أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشـــد ومـــذكر بـــل تعهدتها السماء بنور الوحى من أول يوم قال تعالى :

(ولكل أمة رسول) ([4])

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ([5])

فالآية الكريمة تقرر صراحة أن كل أمة وجد فيهـــا نـــذير ينذرها ويعلمها أمور دينها يأمرها بالخير وينهاها عن الشر ويدل كل ذلك على أن الدين والتدين والاعتقاد قد وجـــد مـــع وجـــود الإنسان سواء كان ذلك بإحساسه الطبيعـــى الغريـــزى وشـــعوره الشخصى أو كان ذلك بوحى من الله تعالى وتعاليم منـــه للنـــاس

([3]) صحيح مسلم جـ ١٧ صـ ١٩٧ .

([4]) سورة يونس الآية ٤٧ .

([5]) سورة فاطر الآية ٢٤ .

بواسطة إرسال رسول ونبى لهم من البشر كما يشير إلـــى ذلـــك بعض آيات القرآن الكريم :

(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

يقول صاحب الظلال :

" إن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن توحده وأن حقيقـــة التوحيد مركوزة فى هذه الفطرة يخرج به كل مولود إلى الوجـــود فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خـــارجى عنهـــا عامـــل يستغل الاستعداد البشرى للهدى والضلال وهو اســـتعداد كـــذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف .

إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة فى فطرة الإنسان وحده ولكنهـــا كذلك مركوزة فى فطرة هذا الوجود من حوله وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله موصولة به غير منقطعـــة عنـــه محكومة بذات الناموس الذى يحكمه بينما هى تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة.

.. هذا الناموس بذاته هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها ميثاق مودع فى كيانها مودع فى كل خلية حية منذ نشأتها وهو ميثـاق أقدم من الرسل والرسالات وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد ذى المشيئة الواحدة المنشئة للنـاموس الواحـد الـذى يحكمهـا ويصرفها فلا سبيل إلى الإحتجاج بعد ميثاق الفطـرة وشـهادتها سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان المقال كما فى بعض الآثار، لا سبيل إلى أن يقول أحد : إنه غفل عن كتاب الله الهـادى إلـى التوحيد وعن رسالات الله التى دعت إلى هذا التوحيد (**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطـاغوت**) ([1]) أو يقـول: إننى خرجت إلى هذا الوجود فوجدت آبائى قد أشركوا فلم يكـن أمامى سبيل لمعرفة التوحيد إنمـا ضـل آبـائى فضـللت فهـم المسئولون وحدهم ولست بالمسؤول ومن ثم جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة : (**أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا**

([1]) سورة النحل الآية ٣٦ .

إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعـــدهم أفتـــهلكنا بمـــا فعـــل المبطلون؟) .

ولكن الله سبحانه رحمة منه بعباده لما يعلمه مـــن أن فـــى استعدادهم أن يضلوا إذ أُضلوا وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الإنحراف كما قال رسول الله – صلى الله عليه وســـلم – بفعـــل شياطين الجن والإنس الذين يعتمدون على ما فى التكوين البشرى من نقط الضعف . رحمة من الله بعباده قدر ألا يحاســـبهم علـــى عهد الفطرة هذا كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم مـــن عقـــل يميزون به حتى يرسل إليهم الرسل ويفصل لهم الآيات لإسـتنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والإنحراف وإستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقـــول تكفى وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هى الرسالة (1) .

---

(1) الظلال جـ ٣ صـ ١٣٩٥ – ١٣٩٦

(رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنـــاس علـــى الله حجـــة بعـــد الرسل) ([٢]) .

٥- كما أن القرآن الكريم قد أوضح لنا أن آدم أبو البشـــر وأول مخلوق على وجـــه الأرض كـــان أول الأفـــذاذ الملهمـــين وأول المؤمنين الموحدين وأول المتضرعين الأوابين :

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الـــرحيم)([٣])

(قالا ربنا ظلمنا أنفســـنا وإن لم تغفـــر لنـــا وترحمنـــا لنكـــونن مـــن الخاسرين) ([٤]).

ولقد وعده ربه بأن ينزل عليه وعلى ذريته هـــداه الـــذى يحقق له ولذريته السعادة فى الدنيا والآخر قال تعالى :

(قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هـــداى فـــلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكـــذبوا بآياتنـــا أولئـــك أصحاب النار هم فيها خالدون) ([١]) .

([٢]) سورة النساء الآية ١٦٥ .
([٣]) سورة البقرة الآية ٣٧ .
([٤]) سورة الأعراف الآية ٢٣ .

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) (٢) .

ولا شك أن التعاليم السماوية التى تعلمها آدم من ربه كان لها أثر إيجابى على ذريته نلمس ذلك من قصة ولدى آدم هابيل وقابيل وتقديمهما القربان وهو شعيرة من شعائر الدين وقبول القربان من أحدهما دون الآخر وهو عقيدة من عقائدهم فى ذلك الحين وكون الذى قد تقبل قربانه كان من المتقين وعدم اعتداء أحد الأخوين على الآخر خوف من الله رب العالمين كل ذلك يؤكد أن ولدى آدم- عليه السلام - كانت عندهم تعاليم دينية واتبعوا تعاليمه وساروا على هداه (٣) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٨ - ٣٩ .
(٢) سورة طه الآية ١٢٣ - ١٢٦ .
(٣) راجع د/ عوض الله حجازى / مقارنة الأديان صـ ١٦ .

يقول أستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلى :

" ومما يقطع بوضوح فكرة التوحيد لدى أولاد آدم من بعده كذلك ما نراه فى حادثة قابيل وهابيل عندما اختلفا فى الزواج وقدم كل منهما قرباناً وأصر الأول على رفض التحكم وانتهى الخلاف بينهما بأن قتل قابيل هابيل ومن خلال الحوار بينهما تسمع التدين القائم على الإيمان بالله والمبنى على تحريم قتل النفس والإيمان بالبعث والجزاء لا سيما فى الآية القائلة :

(لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) (٤) .

فإن المعقول أن يكون الإنسان الذى خلق بيد القدرة واستمع إلى الأوامر الإلهية عارفاً بالله على وجه صحيح وأن أولاده يتلقون عنه ذلك من خلال التربية والتنشأة كما هو متبع"(٥).

---

(٤) سورة المائدة الآية ٢٨ .

(٥) الحكمة العربية صـ ٢٨٨ .

فالإنسان منذ وجد وهو متدين وليس التدين خاضعاً لنظرية من النظريات التى ذكرها الكاتبون بقدر ما هو وحى أوحاه الله إلى الإنسان النبى الأول آدم – عليه السلام – .. وأن ذريته من بعده استمرت على التوحيد حتى جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دين الله .. وأرسل الله الرسل تباعاً ليوفى الناس بميثاقهم الأول ولتجد فطرة التدين عندهم سنداً ومرشداً وأسوة تهديهم إلى سواء السبيل.(1)

٦- وإذا كان القرآن الكريم قد وضح لنا علل التدين فى الإنسان وإذا كانت السنة قد وضحت كذلك أن الإنحراف عن التدين الصحيح مرجعه إلى النشأة والبيئة فإن القرآن يجلى لنا هذا (الباعث) فى صورتين :

(أ) صورة الضعف التى لابد وأن تلحق الإنسان يوماً إذا مسه الضر أو أحاط به الخطر .

---

(1) يا أهل الكتاب تعالوا .. صـ ١٦ .

(ب) صورة التحرر من ربقة المواريث الإجتماعية التى تشغل عقله بشيطانية التقاليد والعادات .

ويظهر أثر ذلك بارزاً فى حالتين متميزتين :

الصورة الأولى : حينما يقع أهل الغفلة والشرود عن الله فى كرب لا تنفع معه حيلة ولا سبب ، يصور ذلك قوله تعالى :

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) (٢) .

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما نجاهم إذاهم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها

---

(٢) سورة يونس الآية ١٢ .

الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) ([١]) .

(وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) ([٢]) .

(وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) ([٣]) .

(وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) ([٤]) .

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) ([٥]) .

([١]) سورة يونس الآية ٢٢ – ٢٣ .
([٢]) سورة النحل الآية ٥٣ – ٥٥ .
([٣]) سورة الإسراء الآية ٦٧ .
([٤]) سورة لقمان الآية ٣٢ .

ونلاحظ أن هذه الآيات قد قررت أمرين :

الأول : أن الإنسان سواءاً كان مؤمناً أو كافراً بـدافع الفطـرة المركوزة فى كيانه يتجه إلى الله عند الشدائد وتبدو الفطرة حينئذ كما هى فى أصلها الذى خلقها الله عليه .

" ولو لم يكن الإنسان مفطوراً على المعرفة الإلهيـة مـا وجـد مخرجاً يخرجه أو ملاذاً يلوذ به فى تلك الشدائد ولو لم تودع تلك المعرفة فى عمق نفوسنا ما استطعنا أن نحسها فى لحظة ما "(٦).

الثانى : أن الناس عندما تمر محنتهم ويفرج الله شدتهم ويكشـف كربتهم ويسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم يخالفون فطـرتهم مـن جديد . فهذا النمط من البشر يخلف وعده ويكذب نفسـه وآيـات القرآن تفضح نفسية هذا اللون من البشر – كما مر – .

الصورة الثانية : صورة النفس اللوامة التى تعود إلـى ربهـا إذا كشف عنها غطاء الغشوة الإجتماعية يقول تعالى :

---

(٥) سورة الزمر الآية ٨ .

(٦) د / عبد الله الشاذلى / الألوهية فى الفكر الإسلامى صـ ٧٩ .

(واللذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكـــروا الله فاســـتغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا علـــى مـــا فعلـــوا وهـــم يعلمون)(١) .

وهذه الصورة يرضى عنها القرآن الكريم ويضفى عليهـــا من ظلال التوبة والمغفرة والمثوبة :

(أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) (٢) .

٧- ولما كانت معرفة الله فطرية مركوزة فى نفوس كـــل النـــاس نجد أن أسلوب القرآن فى الاستدلال على وجود الله ووحدانيته قد جاء فى صورة التذكير والتنبيه يقول سبحانه :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يـــذكرون) (٣) (أفـــلا تـــذكرون) (٤)
(لعلهم يتذكرون) (٥) (لعلكم تذكرون) (٦)

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٥ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٦ .
(٣) سورة النحل الآية ١٣ .
(٤) سورة يونس الآية ٣ .

(إن فى ذلك لذكرى) [٧] (إن هذه تذكرة) [٨]

(فذكر إن نفعت الذكرى) [٩] (فذكر إنما أنتَ مذكر) [١٠]

(فهل من مدكر؟) [١١] .

فكل ما فى القرآن الكريم من ذلك إنما هو تذكير للإنسان بفطرته الأولى ومحاولة للعودة به إلى حالته الصحيحة قبل طريان الشبهات عليه فالقرآن الكريم يذكر ما فى الفطرة لا أنه يدعوها إلى شئ لم يكن موجوداً فيها .

هذا التذكير القرآنى تقف منه الفطرة السليمة موقف المتيقظ المستجيب للذكرى وتقف منه الفطرة المتغيرة موقف الغافل اللاهى لكن أسلوب القرآن الكريم الذى يكثر فيه الإستفهام قبل

---

[٥] سورة القصص الآية ٥١ .
[٦] سورة الأنعام الآية ١٥٢ .
[٧] سورة ق الآية ٣٧ .
[٨] سورة الإنسان الآية ٢٩ .
[٩] سورة الأعلى الآية ٩ .
[١٠] سورة الغاشية الآية ٢١ .
[١١] سورة القمر الآية ١٥ .

الإجابة يهز الفطرة اللاهية فتصغى وعندئذ تشترك مــع الفطــرة السليمة فى سماع الجواب .

٨- وهكذا فإن الإلتجاء إلى نصوص الكتــاب العزيــز والســنة المطهرة إعتراف ضمنى بأن وسائل العلم البشرى وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يقينى إلى نقطة البدء الحقيقى للــدين والواقع أن الحل النهائى لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحى لأنها داخلة فى منطقة الغيب التى هى موضوع الإيمان وليســت من شأن العلوم الإستقرائية ولا العلوم الإستنتاجية .

***

المبحث الثانى
فى
معنى الدين

المبحث الثانى
فى
معنى الدين

الدين فى اللغة والإصطلاح :

أولاً : معنى الدين فى اللغة :

لفظ الدين فى لغة العرب ورد فعله متعدياً ولازماً وفعلاً وإسماً ومصدراً كما ورد تبعاً لذلك على معان متعددة .

قال الراغب الأصفهانى فى مفرداته :

" (الدِّين) يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة .

و(الدين) كالملة لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والإنقياد للشريعة .

قال تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) ([1]) .

(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) ([2]) أى أطاعه.

([1]) سورة آل عمران الآية ١٩ .

([2]) سورة النساء الآية ١٢٥ .

(وأخلصوا دينهم لله) ([١]) .

(يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ..) ([٢]) .

وذلك حث على اتباع دين النبى – صلى الله عليه وسلم – الـــذى هو أوسط الأديان :

كما قال : **(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً)** ([٣]) .

وقوله تعالى : **(لا إكراه فى الدين)** ([٤]) :

قيل : يعنى الطاعة فإن ذلك لا يكون فى الحقيقة إلا بـــالإخلاص والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه .

وقيل : إن ذلك مختص بأهل الكتاب الباذلين الجزية .

وقوله تعالى : **(أفغير دين الله يبغون)** ([٥]) .

([١]) سورة النساء الآية ١٤٦ .
([٢]) سورة النساء الآية ١٧١ .
([٣]) سورة البقرة الآية ١٤٣ .
([٤]) سورة البقرة الآية ١٥٦ .
([٥]) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

يعنى الإسلام لقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ([6]).

وعلى هذا قوله تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ([7]).

وقوله تعالى : (ولا يدينون دين الحق) ([8]) .

وقوله تعالى : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن)([9]).

وقوله تعالى : (فلولا إن كنتم غير مدينين) ([10]) أى غير مجزيين والمدين والمدينة العبد والأمة .

قيل : هو من قولهم دُين فلان يدان إذا حمل على مكروه .

وقيل : " هو من دنته إذا جازيته على طاعته " ([11]) .

([6]) سورة آل عمران الآية ٨٥.
([7]) سورة الفتح الآية ٢٨ .
([8]) سورة التوبة الآية ٢٩ .
([9]) سورة النساء الآية ١٢٥.
([10]) سورة الواقعة الآية ٨٦ .
([11]) المفردات فى غريب القرآن صـ ٢٥٣ مكتبة الأنجلو المصرية .

وقال صاحب القاموس، المحيط (١) ما نصه :

" (الدين) بالكسر الجزاء وقد دِنْتُهُ بالكسر دَيْناً ويكسر والإسلام وقد دِنْتُ به بالكسر والعادة والعبادة والطاعة .. والذل والداء والحساب والقهر والغلبة والإستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد واسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به ، والمِلَّةُ والورع والمعصية والإكراه والحال والقضاء ..

(والدَّيَّانُ) : القهار والقاضي والحاكم والسائس والحاسب والمجازي الذى لا يضيع عملاً بل يجزى بالخير والشر .

و(المَدِينُ) : العبد و (المدينة) : الأمة لأن العمل أذلهما ، وفى الحديث " كان النبى – صلى الله عليه وسلم – على دين قومه " أى على ما بقى فيهم من إرث إبراهيم واسماعيل – عليهما السلام – فى حجهم ومناكحتهم وبيوعهم وأساليبهم ، وأما التوحيد فإنهم كانوا قد بدلوه والنبى – صلى الله عليه وسلم – لم يكن إلا عليه ، **(ودان يدين) : عز وذل وأطاع وعصى واعتاد خيراً أو**

---

(١) الفيروز آبادى : القاموس المحيط صـ ١٠٨٠ دار الفكر للطباعة والنشر .

شراً وأصابه الداء ، ودان فلان : حمله على ما يكره وأذله ودَيَّنَهُ تَدْيِناً : وكله إلى دينه .. " .

وقال صاحب مختار الصحاح (٢) : ما نصه

" (الدِّين) بالكسر العادة والشأن و (دَانَهُ) يَدِينه (دِيناً) بالكسر أذله واستعبده (فَدَانَ) وفى الحديث (**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**) .

(والدِّين) أيضاً الجزاء والمكافأة يقال (دَانَهُ) يدينه (ديناً) أى جازاه يقال : (كما تَدِينُ تُدَان) أى كما تُجَازِى تُجَــازَى بفعلــك وبحسب ما عملت وقوله تعالى : (**أإنا لمــدينون**) أى لمجزيــون محاسبون ومنه (الدَّيان) فى صفة الله تعالى .

و(المَدين) العبد و(المدينَةُ) الأمة كأنهما أذلهما العمل و(دانه) ملكه وقيل منه سمى المصر (مدينة) .

---

(٢) الرازى : مختار الصحاح صـ ٢١٨ دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة – القاهرة .

و(الدين) أيضاً الطاعة تقول (دان) له يدين (ديناً) أى أطاعه ومنه (الدين) والجمع (الأديان) ويقال (دان) بكذا (دِيَانَـةً) فهو (دَيِّنٌ) و(تَدَيَّن) به فهو (مُتَدَيِّن) و (دَيَّنَهُ تَدْيِيناً) وكلـه إلى دِينِه " .

وقال أبو البقاء الكفوى ما نصه (١) :-

" (الدين) بالكسر فى اللغة العادة مطلقاً.

و(الدين) الجزاء .

و(دان له) : أطاع (ومن أحسن ديناً) (٢) .

و(دانه) : أجزاه أو ملكه أو أقرضه .

و(دانه ديناً) : أذله واستعبده وفى الحديث : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) (٣) .

---

(١) الكليات صـ ٤٤٣ – ٤٤٤ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م مؤسسة الرسالة – بيروت .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٥ .

(٣) الحديث سنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ١٤٢٣ ومسند الإمام أحمد جـ ٤ صـ ١٢٤ .

ويكون بمعنى القضاء نحو:(**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**)[٤]
أي في قضاءه وحكمه وشريعته .
ويكون بمعنى الحال : سئل بعض الأعراب فقال : " لو كنت على دين غيره لأجبتك " أي على حال غيره " .

وقال التهانوي ما نصه (٥) :

" (الدين) بالكسر والسكون في اللغة يطلق على العادة والسيرة والحساب والقهر والقضاء والحكم والطاعة والحال والجزاء ومنه (**مالك يوم الدين**) [٦] و(**كما تدين تدان**) [٧] والسياسة والـرأي ودان عصى وأطاع وذل وعز فهو من الأضداد .. " .

---

(٤) سورة النور الآية ٢ .
(٥) كشاف إصطلاحات الفنون جـ ٢ صـ ٣٠٥ دار الكتاب العربي .
(٦) سورة الفاتحة الآية ٤ .
(٧) الحديث فتح الباري جـ ٨ صـ ٦ دار الريان للتراث .

وجاء فى المعجم الوسيط ([1]) ما نصه :

" (دان) ديناً : خضع وذل و(دان) أطاع ويقال : دان له ودان له منه : اقتص .

و(دان) بكذا أتخذه ديناً وتعبد به فهو دين و(الدين) : الديانـــة وهى ما يتدين به الإنسان .

و(الدين) اسم لجميع ما يعبد به الله و(الدين) الملة والإســـلام والاعتقاد بالجَنَان والإقرار باللسان وعمل الجـــوارح بالأركـــان والسيرة والعادة والحال والشـــأن والـــورع والحســـاب والملـــك والسلطان والحكم والقضاء والتدبير والعبادة والطاعة .. و(الديان) اسم من أسماء الله عز وجل و(الديان) القهار والقاضى والحاكم والمجازى بالخير أو الشر .. " .

([1]) المعجم الوسيط صـ ٣١٧ – ٣١٨ جـ ١ الطبعة الثالثة : مجمع اللغةالعربية وراجع المعجم الوجيز صـ ٢٤١ مجمع اللغة العربية ١٩٩٨م .

ونستأنس أيضاً بما ذكره الإمام القرطبى عن أهل اللغة من معانى لغوية لكلمة (دين) عند تفسيره لقـول الله عـز وجـل : (مالك يوم الدين) فقال رحمه الله :

" (الدين) : الجزاء على الأعمال والحساب بها :

كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتـادة وغيرهم وروى عن النبى – صلى الله عليه وسـلم – ويدل عليه قوله تعالى : (يومئـذ يـوفيهم الله دينـهم الحق)([٢]) أى حسابهم .

وقال : (اليوم تجزى كل نفس ما كسبت)([٣]).

و(اليوم تجزون ما كنتم تعملون) ([٤]) .

وقال : (أإنا لمدينون) ([٥]) أى مجزيـون محاسـبون

وقال لبيد :

([٢]) سورة النور الآية ٢٥ .
([٣]) سورة غافر الآية ١٧ .
([٤]) سورة الجاثية الآية ٢٨ .
([٥]) سورة الصافات الآية ٥٣.

حصادك يوماً ما زرعت وإنما يدان الغنى يوماً كما هو دائن

وحكى أهل اللغة : دنته بفعله ديناً بفتح الدال وديناً بكسرها جزيته ومنه الديان فى صفة الرب تعالى أى المجازى وفـى الحـديث : (**الكيس من دان نفسه**) أى حاسب " .

وقيل الدين بمعنى القضاء :

روى عن ابن عباس أيضا ومنه قول طرفة :

لعمرك ما كانت حمولة(١)معبد على جدها(٢)حرباً لدينك من مفر

وهذه المعانى الثلاثة : (الجزاء – الحساب – القضاء) متقاربة.

والدين أيضاً بمعنى : الطاعة :

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيـام لنـا غـر طـوال عصينا الملك فيهـا أن ندينـا

---

(١) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها .

(٢) الجد بالضم : البئر الجيدة الموضع من الكلأ والخطاب لعمرو بن هند وقد أغار على إبل معبد آخى طرفة .

فعلى هذا هو لفظ مشترك : قال ثعلب : دان الرجـــل إذا أطـــاع ودان إذا عصى ودان إذا عز ودان إذا ذل ودان إذا قهر فهو من الأضداد .

ويطلق الدين على : العادة والشأن :

كما قال : كدينك من أم الحويرث قبلها.

وقال المثقب يذكر ناقته :

تقول إذا درأت لها وضينى(٣) أهذا دينه أبداً ودينى

والدين : سيرة الملك :

قال زهير :

لئن حللـــت بجو فى بنى أسد فى دين عمرو وقد حالت بيننا فدك

أراد فى موضع طاعة عمرو .

والدين : الداء عن اللحيانى وأنشد :

يا دين قلبك من سلمى وقد دينا (١)

---

(٣) درأت وضينىالبعيد : إذا بسطته على الارض ثم أبركته عليه لتشده به والوضين : بطانمنسوج بعضه على بعض يشده الرجل على البعير .

فكلمة (دين) من خلال النصوص الســابقة قـد جـاءت بمعان كثيرة متعددة وأيضا مختلفة متباعـدة بـل أحيانـاً تبـدو متناقضة ويمكننا أن نستخلص مما تقدم أن كلمة (دين) فى كلام العرب قام بنيانها على معان أربعة أو بعبارة أخرى هى تمثل فى الذهن العربى تصورات أربعة أساسية :

أولها : القهر والغلبة من ذى سلطة عليا .

والثانى : الإطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضع لذى السلطة .

والثالث : الحدود والقوانين والطريقة التى تتبع .

والرابع : المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب .

وملخص استعمالات أهل اللغة لكلمة (دين) أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب هكذا :

أولاً : فعلاً متعدياً بنفسه : (دانه ديناً) .

ثانياً : فعلاً متعدياً باللام : (دان له) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم جـ ١ صـ ١٤٣ – ١٤٥ مؤسسة مناهل العرفان – بيروت .

ثالثاً : فعلاً متعدياً بالباء : (دان به) .

❁ فكلمة (دين) إذا تعدت بنفسها (دانه ديناً) قصد بـذلك أنه ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهـره وذلـه واسـتعبده وحاسبه وقضى فى شأنه وجازاه وكافأه .

فالدين فى هذا الإستعمال يدور على معنى : الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك : من السياسة والتدبير والحكـم والقهـر والذل والإستعباد والمحاسبة والمجازاة والمكافأة ومن ذلك قولهم : " دان الناس " أى قهرهم على الطاعة وتقول : " دنتهم فدانوا " أى قهرتهم فأطاعوا وتقول : " دان ديناً " خضع وذل و" دانه دينـاً " أذله واستعبده و" دنت القوم " أى أذللتهم واستعبدتهم وتقول " دين فلان " إذا حمل على مكروه و" دان فلان " إذا عز ، وتقول "دانه" جازاه أو ملكه و" دنته " أى سسته وملكته و " دينته القوم " وليتـه سياستهم يقول الحطيئة يخاطب أمه .

لقد دنتى أمر بنيك حتى ... تركتهم أدق من الطحين

وفي ذلك قوله تعالى : (مالك يوم الـدين) ([1]) أي يـوم المحاسبة والجـزاء والمكافأة .

(أإنا لمدينون)([2]) أي لمجـزيون محـاسبـون

(فلولا إن كنتـم غـير مدينيـن) ([3]) أي غيـر مجزيين ومحاسبين .

(يـومئـذ يوفيهـم الله دينهـم الحـق) ([4]) أي حسـابهـم .

(ولا تأخذكـم بهمـا رأفـة في ديـن الله) ([5]) أي فـي قضاءه وحكمه وشريعته .

وفي الحديث : (البر لا يبلـى والإثم لا ينسـى والـديان لا يمـوت فكن كما شئت كما تدين تدان) ([6]) .

([1]) سورة الفاتحة الآية ٤ .
([2]) سورة الصافات الآية ٥٣ .
([3]) سورة الواقعة الآية ٨٦.
([4]) سورة النور الآية ٢٥ .
([5]) سورة النور الآية ٢ .
([6]) فتح الباري جـ ٨ – صـ٦ دار الريان للتراث .

وفى صحيح البخارى : " الدين الجزاء فى الخير والشــر كما تدين تدان " (٧) أى كما تُجَازِى تُجَازَى بفعلك وبحســب مــا عملت .

وفى الحديث : (**إن الله ليدين للجماء من ذات القــرن**) أى يقتص ويجزى.

وفى الحديث أيضاً : (**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعــد الموت**) (٨) أى أذلها واستعبدها وقهرها وحكمها وقيل : حاسبها.

و(الديان) فى صفة الله تعالى : القهار والقاضى والحاكم والمحاسب والمجازى بالخير أو الشر .

ويقول الأعشى : يخاطب النبى – صلى الله عليه وسلم –:

(يا سيد الناس وديان العرب) .

---

(٧) صحيح البخارى – باب ما جاء فى فاتحة الكتاب جـ ٣ صـ ٩٧ – مطبعة دار إحياء الكتب العربية .

(٨) سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر الموت والإستعداد له جـ ٢ صـ ١٤٢٣ دار إحياء الكتب العربية والمسند جـ ٤ صـ ١٢٤ .

وطبقاً لهذا المعنى المشتق من الفعل المتعدى بنفسه اتضح أن الدين هو الملك مع إمكانية التصرف فى المملوك بكافة أنواع التصرف وهذا يتعلق بالله تعالى وحده فلا مالك بكافة معانى الكلمة سواه ([1]).

❁ وأما كلمة (دين) إذا تعدت باللام (دان له) قصد بذلك أنه أطاعه وخضع له فالدين هنا بمعنى : الخضوع والإذعان والإنقياد والطاعة والعبادة والورع تقول : (دان له) أى أطاعه ومنه قول النبى – صلى الله عليه وسلم – لأبى طالب : (**أريدهم – قريش – على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب**) ([2]) أى تطيعهم وتخضع لهم وكلمة (الدين لله) يصح أن يفهم منها كلا المعنيين الحكم لله أو الخضوع لله وواضح أن هذا المعنى الثانى ملازم للأول ومطاوع

([1]) راجع لما تقدم المفردات صـ ٢٥٣ والقاموس المحيط صـ ١٠٨٠ ومختار الصحاح صـ ٢١٨ والكليات صـ ٤٤٣ ـ ٤٤٤ وكشاف اصطلاحات الفنون جـ ٢ صـ ٣٠٥ والمعجم الوسيط جـ ١ صـ ٣١٧ ـ ٣١٨ والمعجم الوجيز صـ ٢٤١ والمصطلحات الاربعة للمودودى صـ ١٠٧ ـ ١٠٨ والدين د / دراز صـ ٢٦

([2]) مسند الإمام أحمد جـ ١ صـ ٢٢٧ .

له " دانه فدان له " أى قهره على الطاعة فخضع وأطاع فالتلازم بين المعنيين واضح لأنه كلما وجد قاهر فهناك مقهور وكلما وجد دائن فهناك مدين له . فهذا المعنى الثانى عكس الأول تماماً (المتعدى بنفسه) ، لأن الأول يعنى الملك والسيطرة بينما الثانى (المتعدى باللام) ، يعنى الخضوع والذل وكلاهما ملازم للثانى عكساً وطرداً بحيث إذا وجد معنى أحدهما إنصرف الثانى إلى المعنى الثانى مباشرة .

✸ وأما كلمة (دين) إذا تعدت بالباء (دان به) كان معناها : أنه أتخذه ديناً ومذهباً أى إعتقده أو إعتاده أو تخلق به .

فالدين على هذا هو : العقيدة والملة والشريعة والقانون والعادة والتقليد والمذهب والطريقة التى يسير عليها المرء نظرياً أوعملياً.

فالمذهب العملى لكل امرئ هو عادته وسيرته كما يقال : هذا " دينى وديدنى " أى دأبى وعادتى ويقال : " دان " إذا اعتاد خيراً أو شراً .

والمذهب النظرى عنده هو عقيدته ورأيه الذى يعتنقه ومن ذلك قولهم : " دينه تديناً " أى وكله إلى دينه ([1]) . وفى الحديث عن عائشة – رضى الله عنها – (كانت قريش ومن دان بدينها يقضون بالمزدلفة) ([2]) أى من كان على طريقتهم وعادتهم .

ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع أيضاً للإستعمالين الأول والثانى لأن العادة أو العقيدة التى يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم إتباعها .

وجملة القول فى هذه المعانى اللغوية أن كلمة (دين) عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً وإذا وصف بها الطرف الثانى كانت أمراً وسلطاناً وحكماً وإلزاماً وإذا

([1]) راجع القاموس المحيط صـ ١٠٨٠ ومختار الصحاح صـ ٢١٨ والكليات صـ ٤٤٣ – ٤٤٤ والمعجم الوسيط جـ ١ صـ ٣١٧ – ٣١٨ والتهافوى جـ ٢ صـ ٣٠٥ والمصطلحات الأربعة صـ ١١٠ والدين صـ ٢٦.

([2]) صحيح البخارى جـ ٣ صـ ١٠٥ كتاب التفسير .

نظرنا بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذى يعبر عنها.

وبناء على ذلك فإن مادة (الدين) كلها تدور على معنى لزوم الإنقياد :

فإن الإستعمال الأول : (الدين) هو إلزام الإنقياد .

وفى الإستعمال **الثانى** : هو إلتزام الإنقياد .

وفى الإستعمال **الثالث** : هو المبدأ الذى يلتزم الإنقياد له .

ولا يخفى أيضاً أن معنى اللزوم هو هذا المحور الذى تدور عليه كلمة (الدين) بفتح الدال .

والفرق بين الدين بالفتح والدين بالكسر هو أن أحدهما يتضمن فى الأصل إلزاماً مالياً والآخر يقتضى إلزاماً أدبياً ، والمتأمل فى تصاريف اللغة العربية يجد أن من سننها أنها حين تريد التفرقة بين الحسيات والمعنويات من جنس واحد قد تكتفى

بتغيير يسير فى شكل الكلمة مع إبقاء مادتها كما هى مثل : " الْخَلق والْخُلق "و " الرؤية والرؤيا "و " الكبَر والكبْر"وهكذا ([1]).

وأود أن أشير إلى أن الذى يعنينا من الاستعمالات السابقة هو الإستعمالان الأخيران وعلى الأخص الإستعمال الثالث فكلمة (الدين) التى تستعمل فى تاريخ الأديان لها معنيان لا غير :

أحدهما : هذه الحالة النفسية التى نسميها التدين .

والآخر : تلك الحقيقة الخارجية التى يمكن الرجوع إليها فى العادات الخارجية أو الآثار الخالدة أو الروايات المأثورة ومعناها : جملة المبادئ التى تدين بها أمة من الأمم إعتقاداً أو عملاً وهذا المعنى أكثر وأغلب .

([1]) د / دراز : الدين صـ ٢٧ بتصرف وروى أن الاصمعى نقل عن بعض العرب فرقا طريفا فقال : " إنما فتح دال الدين لأن صاحبه يعلو المدين وكسرت دال الدين لابتنائه على الخضوع وضم دال الدنيا لابتنائها على الشدة " الدين : صـ ٢٧ هامش .

وهكذا يظهر لنا جلياً أن هذه المادة (دين) بكل معانيها أصيلة فى اللغة العربية وأن ما ظنه بعض المستشرقين من أنها دخيلة معربة من العبرية أو الفارسية فى كل إستعمالاتها أو فى أكثرها بعيد كل البعد ولعلها نزعة شعوبية تريد تجريد العرب من كل فضيلة حتى فضيلة البيان التى هى أعز مفاخرهم [٢] .

إستعمال كلمة (دين) فى القرآن الكريم :

وإذا أردنا أن نطبق ما جاء فى كتب اللغة على استعمال القرآن الكريم لهذه الكلمة (دين) وجدنا القرآن الكريم يستعمل هذه الكلمة فى معانيها الأربعة :

المعنى الأول : الدين بمعنى : السلطة العليا والحكم لله عز وجل .

المعنى الثانى : الدين بمعنى : الطاعة والإذعان لحاكمية الله تعالى وسلطانه .

وهما معنيان متلازمان لا ينفكان يقول الله تعالى :

---

[٢] نفسه صـ ٢٧ – ٢٨ بتصرف وانظر كتاب : السيد آدى شهير : الألفاظ الفارسية المعربة صـ ٦٩ الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

(وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون) [١] .

(الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين) [٢].

(قل أنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) [٣] .

(قل الله أعبد مخلصاً له دينى) [٤] .

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص) [٥] .

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) [٦].

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) [٧] .

---

[١] سورة النحل الآية ٥٢.
[٢] سورة غافر الآية ٦٤- ٦٥ .
[٣] سورة الزمر الآية ١١.
[٤] سورة الزمر الآية ١٤.
[٥] سورة الزمر الآية ٢- ٣ .
[٦] سورة البينة الآية ٥ .

فكلمة (دين) فى هذه الآيات وردت بمعنى السلطة العليـا ثم الإذعان لتلك السلطة وقبول إطاعتها وعبوديتها .

والمراد بإخلاص الدين لله أن تكون الطاعـة والإذعـان والخضوع المطلق له سبحانه وألا يسلم المرء لأحد مـن دون الله بالحاكمية والحكم ويخلص إطاعته وعبديته لله تعالى إخلاصـاً لا يتعبد بعده لغير الله ولا يطيعه إطاعة مستقلة بذاتها ([8]) .

المعنى الثالث : الدين بمعنى : الشريعة والنظام الفكرى والعملـى الكائن تحت سلطان الله وحاكميته قال تعالى :

(قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين) ([9]).

(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ([10]) .

([7])سورة آل عمران الآية ٨٣ .
([8]) المصطلحات الأربعة صـ ١١٤ .
([9]) سورة يونس الآية ١٠٤ - ١٠٥ .
([10]) سورة الشورى الآية ٣١ .

(الزانية والزانى فأجلدوا كل واحد منهما مائـة جلـدة ولا تأخـذكم بهما رأفة فى دين الله) ([١]) .

(كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) ([٢]) .

(لكم دينكم ولى دين) ([٣]) .

فكلمة (دين) فى هذه الآيات وردت بمعنـى : القـانون والحدود والشرع والطريقة والنظام الفكرى والعملى الذى يتقيد به الإنسان .

فإن كانت السلطة التى يستند إليها المرء لاتباعه قانوناً أو نظاماً من عند الله فالمرء لا شك فى دين الله عز وجل .

وإن كانت تلك السلطة تستند إلى نظام بشرى فالمرء فـى دين ذلك النظام البشرى ([٤]) .

([١]) سورة النور الآية ٢ .
([٢]) سورة يوسف الآية ٧٦ .
([٣]) سورة الكافرون الآية ٦ .
([٤]) المصطلحات الأربعة صـ ١١٧ .

المعنى الرابع : الدين بمعنى : الجـزاء والمحاسـبة والقضـاء والمكافأة التى تمنحها السلطة العليا للذين يطبقون تعـاليم الـدين بإخلاص أو على المتمردين عليه قال تعالى :

(مالك يوم الدين) (٥) .

(إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) (٦) .

(أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحـض علـى طعام المسكين) (٧) .

(وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يـوم الـدين يـوم لا تملـك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) (٨) .

(وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين) (٩) .

---

(٥) سورة الفاتحة الأية ٤ .
(٦) سورة الذاريات الآية ٥- ٦ .
(٧) سورة الماعون الآية ١.
(٨) سورة الإنفطار الآية ١٧ – ١٩ .
(٩) سورة الصافات الآية ٢٠ .

فكلمة (دين) وردت فى هذه الآيــات بمعنــى الجــزاء والمحاسبة والقضاء والمكافأة .

وهكذا : فإن كلمة (دين) فى القرآن تقــوم مقــام نظــام بأكمله يتركب من معان أربعة ، فالقرآن الكريم أطلق كلمة (دين) على معنييها الأول والثانى تارة وعلى المعنى الثالث أخرى وعلى الرابع ثالثة ، وطوراً يستعمل كلمة (الدين) ويريــد بهــا ذلــك النظام الكامل بأجزاءه الأربعة فى آن واحد فيستعمل هذه الكلمــة مصطلحاً جامعاً شاملاً يريد به نظاماً للحياة يذعن فيه المرء :

- لحاكمية الله وسلطانه .
- ثم يقبل إطاعته وإتباعه .
- ويتقيد فى حياته بحدوده وقواعده وقوانينه .
- ويرجو فى إطاعته العزة والترقــى فــى الــدرجات وحســن الجزاء ويخشى فى عصيانه الذلة والخزى وسوء العقاب [1] .

---

(1) راجع المودودى المصطلحات الأربعة صـ ١١٢ – ١١٨ .

وعلى هذا فالدين الإلهى نظام كامل يشمل الفرد والأسـرة والمجتمع والدولة وليس فقط طقوساً دينية ولا كهنوتية وجدانية بل هو نظم كاملة للروح والجسد والدنيا والآخرة معاً .. (٢) .

ثانياً : معنى الدين فى الإصطلاح :

وردت كثرة من التعريفات الإسلامية للدين وسأحاول بعون الله تقديم بعض هذه التعريفات على النحو التالى :

عرف الشهرستانى الدين بقوله :

" معنى الدين : أنه الطاعة والإنقياد فالمتدين هو المسلم المطيـع المقر بالجزاء والحساب يوم التناد والمعاد " (٣) .

وعرفه ابن الجوزى بقوله :

" الدين ما إلتزمه الإنسان لله عز وجل وحده " .

ثم نقل تعريفاً لغيره فقال : وبعضهم قال :

" الدين قول إلهى رادع للنفس يقومها ويمنعها من الإسترسال فيما طبعت عليه " (٤).

---

(٢) د / رؤوف شلبى : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء - صـ ٦١ .
(٣) الملل والنحل جـ ١ صـ ٣٧ – ٣٨ .
(٤) منتخب قرة العيون النواظر فى الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم صـ ١١٣ تحقيق محمد السيد الصفطاوى ودكتور / فؤاد عبد المنعم .

وعرفه الجرجانى بقوله :

" الدين : وضع إلهى يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول – صلى الله عليه وسلم – " ([١]) .

وعرفه الفيروزآبادى بقوله :

" (الدين) اسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به " ([٢]) .

وعرفه التهانوى بقوله :

" الدين : هو وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلـــى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل وهذا يشمل العقائد والأعمال ويطلق على ملة كل نبى وقد يخص بالإسلام كما قال الله تعالى : **(إن الدين عند الله الإسلام)** " ([٣]) .

وعرفه الشيخ البيجورى فى شرحه على الجوهرة بقوله :

" الدين : هو ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه من الأحكام " .

([١]) التعريفات صـ ١٠٥ .
([٢]) القاموس المحيد صـ ١٠٨٠ .
([٣]) كشاف اصطلاحات الفنون جـ ٢ صـ ٣٠٥ .

وسمى ديناً لأننا ندين له وننقاد ويسمى أيضاً ملة من حيث أن الملك يمليه على الرسول وهو يمليه علينا ، ويسمى شرعاً وشريعة من حيث أن الله شرعه لنا أى بينه لنا على لسان النبى – صلى الله عليه وسلم – فالله هو الشارع حقيقة والنبى شارع مجازاً .

وأورد تعريفاً آخر للدين فقال :

" الدين : هو وضع إلهى سائق – أى باعث – لذوى العقول السليمة بإختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات " وذلك الخير الذاتى عبارة عن السعادة الأبدية والقرب من رب البرية .

وأضاف الشيخ البيجورى قوله :

" وحاصل هذا التعريف مع طوله : أن الدين هو الأحكام التى وضعها الله الباعثة للعباد إلى الخير الذاتى .

ثم ذكر رحمه الله هذه الفائدة فقال :

" أمور الدين أربعة :

صدق القصد : أداء العبادة بالنية والإخلاص .

وفاء العهـــد : الإتيان بالفرائض .

ترك المنهى : اجتناب المحرمات .

صحة العقد : جزمه بعقائد أهل السنة " ([1]) .

وعرف الشيخ مصطفى عبد الرازق الدين بقوله :

" وضع إلهى يحسن الله تعالى به إلى البشر على لسان واحد منهم لا كسب له فيه ولا صنع ولا يصل إليه بتلق ولا تعلم وإنما هـــو وحى وتعلم من الله تعالى يلقيه الله إلى عبده (**إن هـــو إلا وحـــى يوحى**) .

ويقول : " ولئن كان القرآن الكريم قد استعمل لفظ (دين) بهذا المعنى الشامل كما يدل عليه تسمية نحل المشركين أدياناً فى قوله تعالى (**لكم دينكم ولى دين**) فإن القرآن قرر فى أمر الـــدين أصولاً جعلت للدين معناً شرعياً خاصاً فالدين لا يكون إلا وحيـــاً من الله لأنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمـــة يهـــدون بأمر الله ".

([1]) شرح البيجورى على الجوهرة المسماه تحفة المريد علىجوهرة التوحيد صـ ١٧ – ١٩ .

وهذا الدين الذى يوحيه الله لأنبيائه هو واحد لا يختلف فى الأولين والآخرين هذا الدين الواحد هو المعبر عنـــه فـــى آيـــات القرآن الكريم " بالإيمان " وعن أهلـــه " بـــالمؤمنين " " والـــذين آمنوا"(٢) .

وعرفه الإمام محمد عبده عند تفسيره لقول الله تعـــالى (فمـــا يكذبك بعد بالدين) فقال :

" إن المراد بالدين هنا هو خلوص السريرة للحق وقيـــام الـــنفس بصالح العمل وهو ما كان يدعو إليه – صلى الله عليه وســـلم – وسائر إخوانه الانبياء " (٣) .

كما أورد فى تفسير المنار تعريفاً آخر للدين فقال :

" الدين وضع إلهى يحسن الله تعالى به إلى البشر على لسان واحد منهم لا كسب له فيه ولا صنع ولا يصل إليه بتلق ولا تعلـــم **(إن هو إلا وحى يوحى)** " (٤) .

---

(٢) محمود بن الشريف : الأديان فى القرآن صـ ٢٥ ود/ محمد حسينى الغزالى صـ ١٧٩ حفيف الأفنان نقلاً عن الدين والوحى والإسلام .
(٣) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده صـ ٨٠ .
(٤) تفسير المنار جـ ٢ صـ ٦٩ والآية رقم ٤ سورة النجم .

وعرض الدكتور دراز التعريف الإسلامى المشهور لكلمة (الدين) فقال :

" أما الإسلاميون فقد إشتهر عندهم تعريف الدين بأنــه : وضــع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل " .

وهذا التعريف كما هو واضح نسبه الـدكتور دراز إلـى الإسلاميين ثم لخصه بما يمكن إعتباره تعريفاً خاصاً به فقـال : " ويمكن تلخيصه بأن نقول : الدين : وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الإعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات " ([1]) .

وهو تعريف متميز مقبـول لشـموله العقيـدة والشـريعة والمعاملات .

أما أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود – رحمه الله – فقد قـرر أن التعريف الصادق للدين :

([1]) الدين صـ ٢٩ .

هو إسلام الوجه لله وأن إسلام الوجه لله هو التوحيد فقال رحمه الله :

" إن الدين وإسلام الوجه لله والتوحيد والإسلام كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً وكلها مطلقة عامة لا يحدها زمان ولا مكان وكلمة الإسلام خير ما يعبر عنها في جرسها وفي كمالها : (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**) " [٢] .

أما الدكتور عوض الله حجازي فبعد أن أورد معنى الدين في الشرع كما جاء على لسان الشيخ محمد عبده والدكتور دراز عرض تعريفاً خاصاً به فقال :

" **الدين شرعاً** : هو جملة التكاليف الشرعية والمعاملات المالية والسياسية والأخلاقية التي يوجهها الله جل شأنه إلى رسول من رسله الذين يختارهم لتبليغ رسالته وتوصيل تعاليمه وهدايته ".

---

(٢) الإسلام والإيمان صـ ٢٧ والآية رقم ٣ سورة المائدة .

" أو هو الخضوع لله تعالى والتذلل له والإيمان بوحدانيتـــه جـــل شأنه والسجود له جل شأنه وإختصاصه جل شأنه بهذا السجود فلا يسجد المرء إلا لله ولا يذبح إلا له ولا يدعوا إلا إياه .. " ([١]) .

وعرض كتاب بيان للناس تعريفاً للدين بأنه :

" وضع إلهى شرع لإسعاد الناس فى معاشهم ومعـــادهم أى فـــى دنياهم وأخراهم التى يعودون فيها إلى الله .. " ([٢]) .

هذه بعض التعريفات الإصطلاحية للدين ومن جماع تلـــك التعريفات يمكننا أن نقول أن الفكر الإسلامى فى تحديده لمفهـــوم الدين ارتبط بالعقيدة الصحيحة الموصولة بالوحى وهى تعريفـــات متقاربة ولا تصدق إلا على الدين الإلهى خاصة(الدين الإسلامى).

الدين فى إصطلاح علماء الأديان :

تعرض المستشرقون لمعنى كلمة (الدين) وذكـــروا لهـــا تعريفات عدة والدكتور دراز قد استعرض عدداً مـــن التعـــاريف

([١]) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام صـ ٧ – ٨ .
([٢]) بيان الناس الصادر من مشيخة الأزهر الشريف صـ ١١٥ جـ ١ .

لمشاهير كتاب الغرب حول مفهوم الدين ويكفينا الإشارة إلى بعض هذه التعريفات خاصة وأنها تمثل نزعات فردية أو أراء لأصحابها تعبر عن وجهات نظر لهم فى الدين فقط .

عرض الدكتور دراز لمفهوم الدين عند (روبرت سبنسر) الذى يقول:

" الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية هو العنصر الرئيسى فى الدين ".

يقول الدكتور دراز محللاً وناقداً لهذا التعريف : " لقد رأينا كيف وصل الأمر ببعض الباحثين – يقصد سبنسر – فى تحديد موضوع الدين إلى تصويره بأرقى صورة عرفتها الفلسفة وأبعد صورة عن الخطور ببال العامة من المتدينين أعنى تلك الفكرة التى عبر عنها روبرت سبنسر فهذه اللانهائية إن صح أنها عقيدة كبار الفلاسفة والعلماء لا تنطبق بحال على عقيدة المشبهين ولا المجسمين ولا القائلين بأن ربهم فى السماء " (٣) .

---

(٣) الدين صـ ٣٣ .

يعنى هو تعريف غير جامع حسب تقاليد علم المنطق ([1]) .
كما أن الفكر الفلسفى المحض البعيد عن مفهوم العامة واضح فى هذا التعريف .

كما عرض الدكتور دراز لمفهوم الدين عند : (ماكس ميلر) الذى يقول :

" الدين : هو محاولة تصور ما لايمكن تصوره " ([2]) .

ويرد الدكتور دراز عليه بقوله : " فهذه العبارة لا تنطبق فى حرفيتها إلا على نوع من الأديان يفصل بين العقيدة والعقل فصلاً تاماً ويفرض على معتنقيه أن يؤمنوا بما لا تقبله عقولهم ولا تتصوره أذهانهم " ([3]) .

هذا الغلو فى طرف التضييق لدائرة المحدود يقابله غلو فى الطرف الآخر يمثله فريق من علماء الإجتماع وعلماء الآثار أمثال (إميل دوركايم) و(سالمون ريناك) .

([1]) د/ رؤوف شلبى صـ ٣٥ .
([2]) الدين صـ ٣٣ .
([3]) نفسه صـ ٣٣ .

يقول (دوركايم) : " الدين : مجموعة متساندة من الإعتقادات و الأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة " ([٤]) .

وهو تعريف يلتقى فى هدفه مع ما قاله (سالمون) الذى يقول : " الدين : مجموعة التورعات التى تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا " ([٥]) .

ويورد الدكتور دراز ملاحظاته على هذين التعريفين فيقول :

فهؤلاء لا يكتفون بحذف فكرة " الإله الخالق اللانهائى الذى يحيط به التصور " من التعريف الجامع للأديان بل يذهبون إلى وجوب إبعاد أصل فكرة الألوهية بكل معانيها من هذا التعريف محتجين بأن فى الشرق أدياناً مثل البوذية والجاينية والكونفوشيوسية تقوم على أساس أخلاقى بحت خال من تأليه كائن ما وأن الذين يؤلهون " بوذا " و " جينا " إنما هم مبتدعون خارجون عن أصول دينهم الحقيقى القديم .. " ([٦]) .

([٤]) نفسه صـ ٣٣ .
([٥]) نفسه صـ ٣٣ .
([٦]) نفسه صـ ٣٣ – ٣٤ .

والدكتور دراز لا يكتفى بهذه الملاحظة المختصرة لكنــه بعد أن عرض نصاً يفيد أن ظاهرة التدين فى سلوك الإنسان عبر التاريخ ظاهرة يعود فيقرر عدم موافقته على حذف فكرة الألوهية من تعريفات " دوركايم " و" ريناك " ويقدم مؤاخذتين هامتين فــى هذا الصدد فيقول : " وبالجملة فنحن لا نوافق على حــذف مبــدأ الألوهية من تعريف الأديان ونشير إلى مؤاخذتين مهمتــين فــى تعريف " دوركايم " و" ريناك " وأشياعهما .

أما الأولى : فهى أن هؤلاء الباحثين لم يعتبروا من القدسية الدينية سوى جانبها العملى (السلبى) وهــو تحريمهــا لــبعض الأشياء والتحذير من مباشرتها والدنو منها وقد فاتهم أن المنع من لمس شئ ما ليس دائماً دليل قدسيته بل قد يكون على الضد دليــل ما فيه من خبث ورجس كما فاتهم أن الشعائر العملية فى كل نحلة يجب أن تكون ترجمة كاملة لعقائدها فإذا كان التقديس هو من أحد جانبيه تنزيهاً عن العيوب والنقائص فهو مــن الجانــب الآخــر وصف بالجميل والكمال هو تعظيم للقيم الكبرى والمثــل العليــا

فمظهره فى الناحية السلبية عدم إنتهاك الحرمات وفـــى الناحيـــة الإيجابية الإقبال على الفضائل اعترافاً من معينها وتذوقاً لجمالهـــا وتمثلاً لجوهرها فالتعريف إذاً قاصر عن إستيفاء أجزاء المعرّف.

وأما المؤاخذة الثانية : وهى أشد خطراً وأمس بـــالجوهر فهى أنهم بتجريدهم ماهية الـــدين مـــن فكرتـــى " الروحيـــة " و " الإلهية " قد جردوها من أخص صفاتها ونزعوا منهـــا المحـــور الذى تدور عليه كل عناصرها والميعاد الوحيد الذى تقـــاس بـــه مظاهرها وتتميز به عما سواها . وفى الحق أن التعريف الـــذى يقدمونه لنا بعد حذف هاتين الخاصيتين يمكن تطبيقه بأكمله علـــى كل مظهر من مظاهر النشاط الإجتماعى متى كـــان لـــه صـــبغة السنن الموروثة التى يلتزم الجمهور مراعاتها فى حياتهم الأدبيـــة والفنية أو الإقتصادية أو غيرها . فعادة رفع الأعلام فى الأعيـــاد والقيام عند السلام الوطنى ولبس السواد فى الحداد ووضع الخاتم فى أصبع معينة للمتزوج أو غير المتـــزوج وحفـــلات التكـــريم وإشارات التعظيم والأزياء القومية أو الطائفية وســـائر العوائـــد

الملتزمة التى تسمى " بالإتيكيت " أو " البروتوكول " والتى يعد الخروج عنها نابياً **فى ذوق العرف** العام أو الخاص كل أولئك يسوغ لنا **بمقتضى** تعريفات المدرسة الإجتماعية الفرنسية أن نسميها أعمالاً دينية وعبادات . ومثل هذا يقال فى باب الأراء والمذاهب السياسية وغيرها .. وهكذا ينفرط العقد ويمتد اللبس بين الحقائق الدينية وغيرها إلى أقصى مداه وما وضعت الحدود إلا لإقامة الحدود بين المعانى المختلفة حتى لا يبغى بعضها على بعض " ([1]) .

والدكتور دراز بعد أن تناول تعريفات الباحثين الغربيين بالتصنيف والتحليل والنقد يوجه نقداً للتعريفات الإصطلاحية للدين سواء الإسلامى منها أو غير الإسلامى فيقول :

" .. غير أنه ليس من العسير على من يستعرض هذه التعريفات – الإسلامى منها وغير الإسلامى – أن يلاحظ أن الجمهرة الغالبة منها قد جاوزت الحد في التحديد حتى حصرت مسمى

([1]) الدين صـ ٣٥ – ٥٠ .

الدين فى نطاق الأديان الصحيحة المستندة إلى الوحى السماوى وهى التى تتخذ معبوداً واحداً هو الخالق المهيمن على كل شئ : فالديانة الطبيعية المستندة إلى محض العقل والديانات الخرافية التى هى وليدة الخيالات والأوهام وكل ديانة تقوم هى أو جانب منها على عبادة التماثيل أوعبادة الحيوانات أو النبات أو الكواكب أو الجن أو الملائكة .. إلخ ، تخرج بمقتضى هذه التعاريف عن أن تكون ديناً مع أن القرآن قد سماها كذلك حيث يقول : (**ومن يبتغى غير الإسلام ديناً**) ويقول : (**لكم دينكم ولى دين**) .. ونحن هنا لا نطلب تحديداً للدين الصحيح فحسب بل الدين من حيث هو فى مختلف صوره ومظاهره " ([٢]) .

ثم أورد الدكتور دراز تعريفاً إرتضاه ضمنه عناصر رئيسية فقال :

" والآن نستطيع أن نضم العناصر الرئيسية التى استخرجناها فى ثنايا هذا التحليل وأن نؤلف منها الحد التام لماهية الدين فنقول :

([٢]) الدين صـ ٣٢ .

الدين هو : الإعتقاد بوجود ذات – أو ذوات – غيبية – علوية لها شعور وإختيار ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الإنسان إعتقاد من شأنه أن يبعث على مفاجأة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة وفى خضوع وتمجيد " .

وبعبارة موجزة هو " الإيمان بذات الهية جديرة بالطاعة والعبادة ".

هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين .

أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول :

هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلهية وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها " ([1]) .

كما عرف الدكتور عوض الله حجازى (الدين) فى عرف علماء الأديان فقال :

([1]) الدين صـ ٤٩ – ٥٠ .

" الدين إصطلاحاً أى فى عرف علماء الأديان : هو عبارة عـن الخضوع والتذلل لبعض الكائنات والإحتماء بها وتقديم القـرابين لإرضائها سواء أكانت هذه الكائنات محسوسة كالشمس والقمـر والصنم والوثن أو غير محسوسة كالأرواح الخفية التـى كـانوا يتقربون إليها إنه جملة من المبادئ العامة وضعها بعض النـاس ليسيروا عليها ويعملوا بما فيها " ([٢]) .

وجاء فى المعجم الفلسفى ما نصه :

" الدين : مجموعة معتقدات وعبادات مقدسة تؤمن بهـا جماعـة معينة يسد حاجات الفرد والمجتمع على السواء أساسه الوجـدان وللعقل مجال فيه " ([٣]) .

إضطراب الفكر الغربى فى مفهوم الدين :

إن العرض السالف لمفهوم الدين لدى علماء الغرب أظهر بوضوح إضطرابهم الفكرى فى هذا المجال وهـذا الإضـطراب

([٢]) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام صـ ٧ .
([٣]) المعجم الفلسفى صـ ٨٦ مجمع اللغة العربية .

معلل بفقرهم من النص الديني الصحيح الذى يعطيهم مفهوم الدين الصحيح :

لقد ورث هؤلاء ثقافتهم الدينية عن الأمم السالفة ولم تكـن العقيدة فى الأمم السابقة ذات وضوح فـى الإعتقـادات ولا فـى الشرح ...

بالإضافة إلى هذه المواريث كانت سلطة محاكم التفتـيش تحجر على الفكر أن يتجسس على المعرفة ليبحث وتولدت عـن هذه السلطة رهبة نفسية صارت بحكم التقادم عادة دينية فلم يعـد من السهل أن يعالج الرجل الغربى مسألة فى الدين عندهم .

يقول (جروف) :

من الصعب أن يعالج الإنسان موضـوع الـدين بطريقـة علمية وذلك لما للدين من الحرمة والقداسة عند الناس فـلا يكـاد الكاتب يحاول ذلك حتى يوصم بأنه ملحد أو هرطيق مهما كـان الباعث له على البحث سامياً خالصاً .. والظاهر أن الـدين مـن الأمور التى يقرها الإنسان من جهته إقراراً نهائياً فهو لا يطيق أن

يدلى أحد من الناس برأى يخالف رأيه أو يعـرض أى شـرح أو تفسير يباين ما عرفه أو ألفه ويكاد أن يكون لكل فـرد تفسـيره الخاص فيما يعتقده .

لهذا كان الفكر الأوروبى مضطرباً فى تفسير مفهوم الدين ويمثل نزعات فردية أو آراء لأصحابها تعبر عن وجهات نظـر لهم يقول (جروف) :

" هناك اختلاف كثير فى الرأى حتى من حيث ما يجب أن يدرج تحت اسم الدين ومن ثم كان عندنا عدد من التعريفات لا حصـر لها بل الواقع أنه يكاد يكون لكل كاتب عن الدين تعريف وتصور فى الموضوع يختلفان عما لسواه " (١) .

أضف إلى ذلك أن بعض الغربيين الذين تنـاولوا مفهـوم الدين كانوا يأخذون الدين عن طريق الفكر الفلسفى المحـض أو المشاب بمزيج من الدين الذى لا يمكن أن يجد له نصاً معصوماً.

---

(١) د/ رؤوف شلبى : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء صـ ٣٣ – ٣٤ .

أضف أيضاً أن تعاريف علماء الأديان الغربيين للدين على النحو السالف لم تلاحظ إلا الجانب السلبى وتجريد الدين من عنصــره الروحى وأبعدوا الدين عن أخــص صــفاته وهــو " الألوهيــة " و " التدبير " ، لقد تأثر الفكر الأوروبى بمواريثه – كمــا مــر – فأضفى على الدين حلة " الإتيكيت " أو " البروتوكــول " ليصــير عادة إجتماعية مثل باقة الورد التى توضع على قبور المــوتى أو لبس الثوب الأسود حداداً على عزيز رحل أو وضع الخاتم فــى أصبع معين للتمييز بين المتزوج وغير المتــزوج والتــى يعــد الخروج عنها نابياً فى ذوق العرف العام أو الخاص . كــل هــذا بمقتضى تعريف (دوركايم) و (ريناك) يسمى أعمــالاً دينيــة وعبادات [1] .

فهذا العرض المتواضع أظهر بوضــوح أســباب إضــطراب علماء الأديان فى مفهوم الدين :

---

[1] المصدر السابق صـ ٣٦ والدين صـ ٥١ .

- فكثافة المواريث المظلمة فيما يتعلق بالدين الذى توارثـوه من قديم .
- وعدم وجود نصوص فى الكتب الدينيـة توضـح مفهـوم الدين.
- وعدم كمال دائرة الفروض العقلية التى وضعوها لمناقشـة التدين .
- وعدم تطبيق الحيدة العلمية فى البحث العلمى .
- وحرمان البحث العلمى من الهـدف الصـحيح والصـلف بالبحث العلمى أى العلم بذاته لا للوصول إلى الحـق فهـم يختفون وراء حجاب حيدة العلم وهم مسلمون بآفة التعصب والعشـوائية التـى تعلـن العلـم للعلـم لا للغايـة النبيلـة والحق الصادق .

(وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون) (٢) .

---

(٢) سورة يونس الآية ٣٦ .

(بل اتبع الذين ظلموا أهوائهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (١) .

وهكذا عندما يذهب الإنسان بعيداً عن مصدر النور والهدى كثيراً ما يختلط عليه الأمور المتعارفة له فإذا ما أغرق فى البعد عن هذا المصدر العاصم فقد التمييز بين كثير من الحقائق حتى أجل وأجلى الحقائق وهو الدين الإلهى الذى ليس من طبيعته أن يشرع طريقاً للأخرة لا يمر بالحياة الدنيا ولا من طبيعته أن ينفصل عن الحياة وصدق الله إذ يقول :

(وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى الصراط المستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) (٢) .

---

(١) سورة الروم الآية ٢٩ – ٣٠ .
(٢) سورة الشورى الآية ٥٢ – ٥٣ .

وهكذا فإن تعاريف علماء الأديان لمعنى الدين على النحو السابق قد بدت فى ثوب مهلهل وذلك لبعدهم عن المصدر الأساسى للدين بالإضافة إلى الأسباب الأخرى التى أشرنا إليها ولئن كان هذا هو موقفهم من ماهية الدين فنحن والحمد لله فى غنى عن هذا السلوك المتبع لهواه الجاهل برسالته وغايته ونحن لكى يكون ارتباطنا بمصدر النور والهدى موصولاً نتناول كلمة الدين بالمفهوم الجامع الشامل من خلال القرآن الكريم .

<u>الدين بالمفهوم الجامع والمدلول الشامل فى القرآن الكريم :</u>

عرضنا من قبل التعريفات الإصطلاحية لكلمة الدين من خلال المفهوم الإسلامى وهى تعريفات للدين الصحيح وليست للدين بوجه عام كما عرضنا بعض التعريفات للدين من خلال علماء الأديان وهى فى معظمها تمثل نزعات فردية أو أراء لأصحابها كما مر وطالما أننا نتحدث عن الدين بين البشر مؤمنهم وكافرهم فيكون من الواجب علينا العودة إلى اللغة والقرآن الكريم.

فالدين فى بعض معانيه اللغوية – كما مر – هو الطاعـة والعادة والشأن والسيرة فعبادة الوثنى والصـابئ لمعبـوداتهم أو عاداتهم فيما يمارسونه من خصائص عقيدتهم يسـمى دينـاً فـى اللغة.

ويلتقى القرآن الكريم مع اللغة فى صحة هـذا الإطـلاق فالقرآن الكريم قد استعمل كلمة الدين مصطلحاً جامعاً شاملاً فكلمة دين كما تطلق على الدين الصحيح المستند إلى الوحى السـماوى الذى يتخذ معبوداً واحداً هو الخالق المهيمن على كل شئ تطلـق كذلك على الديانة الطبيعية المستندة إلى محض العقـل والديانـة الخرافية التى هى وليدة الخيالات والأوهام وتطلق كذلك على كل ديانة تقوم هى أو جانب منها على عبادة التماثيل أو عبادة الحيوان أو النبات أو الكواكب أو الجن أو الملائكة ... فالقرآن الكريم قـد أطلق كلمة دين على كل هذه الأديان الصحيح منها والباطل .

وفى الآيات التالية قد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمـــة بصفة هذا المصطلح الجامع الشامل مع التفريــق بــين الـــدين الصحيح والدين الفاسد :

لقد فرق القرآن الكريم بين دينين أحدهما حق والآخر باطل فقــال تعالى :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حـــرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) [١] .

فهذه الآية قد شرح معانيها الله عز وجل نفسه فى الجمــل التالية :

الأولى : قوله تعالى : **(لا يؤمنون بالله)** .

الثانية : قوله تعالى : **(ولا باليوم الآخر)** .

الثالثة : قوله تعالى : **(ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله)** .

الرابعة : قوله تعالى : **(ولا يدينون دين الحق)** .

---

[١] سورة التوبة الآية ٢٩ .

فدين هؤلاء يتناقض مع التوحيد والتشريع والعبادة وإسلام الوجه لله – عز وجل – وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما هم عليه فلم يبقى لهم إيمان صحيح أو دين حق .

والدين الباطل قد جاء مضافاً إلى :

١-**أهل الكتاب** : (اليهود والنصارى) .

قال تعالى : (**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لـــن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون**) [1] .

وقال تعالى : (**وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل علـــى الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم**) [2] .

---

(١)سورة آل عمران الآية ٢٣ – ٢٤ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٧٢ – ٧٣ .

وقال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا علـــى الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مـــريم وروح منه) (٣) .

وقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غـــير الحـــق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضـــلوا عـــن ســـواء السبيل) (٤) .

وقال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهـــم وكانوا شيعاً لست منـــهم فى شئ إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئـــهم بما كانـــوا يفعلون) (٥) .

فالضمير فى قوله تعالى (دينهم) و (دينكم) يعـــود علـــى أهل الكتاب .

٢- <u>المضاف إلى المشركين</u> :

قال تعـــالى : (وكذلك زين لكثيرمن المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم) (١) .

---

(٣) سورة النساء الآية ١٧١ .
(٤) سورة المائدة الآية ٧٧ .
(٥) سورة الأنعام الآية ١٥٩ .

وقال تعالى : (**لكم دينكم ولى دين**) ([٢]) .

فالضمير فى قوله تعالى (**دينكم**) يعود على الكافرين والمشركين عباد الأصنام .

٣- **<u>المضاف إلى قوم فرعون</u> :**

قال تعالى : (**وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد**) ([٣]).

فالضمير فى قوله تعالى (**دينكم**) يعود على قوم فرعون .

وعلى هذا فالدين المضاف إلى هؤلاء هو الدين الباطل الذى يتناقض تماماً مع الدين الحق .

أما عن كلمة الدين الحق فقد جاء فى مثل قوله تعالى :

(**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً**) ([٤]) .

([١]) سورة الأنعام الآية ١٣٧.

([٢]) سورة الكافرون الآية ٦ .

([٣]) سورة غافر الآية ٢٦ .

([٤]) سورة الفتح الآية ٢٨ .

وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله من حيث هـو دين الله فهو الدين القوى بذاته القوى بطبيعته الزاحف بلا سـيف ولا مدفع من أهله لما فى طبيعته من استقامة مع الفطـرة ومـع نواميس الوجود الأصلية ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح وحاجات العمران والتقدم وحاجات البيئات المتنوعة من ساكنى الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب .

وما من صاحب دين غير الإسلام ينظر فى الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوتـه الكامنة وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة وتلبيـة حاجاتهـا النامية المتطورة فى يسر واستقامة (**وكفى بالله شهيداً**) (٥) .

والدين الحق قد جاء مضافاً إلى :

١- **<u>الله عز وجل</u> :**

قال تعالى : (أفغير دين الله يغون) (٦) .

---

(٥) أ / سيد قطب : الظلال جـ ٦ صـ ٣٣٣١ .
(٦) سورة آل عمران الآية ٨٣ .

وقال تعالى : (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) ([١]) .

وقال تعالى : (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله) ([٢]) .

٢- النبى - صلى الله عليه وسلم - :

قال تعالى : (قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين) ([٣]) .

وقال تعالى : (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) ([٤]) .

وقال تعالى : (لكم دينكم ولى دين) ([٥]) .

٣- المضاف إلى المؤمنين :

قال تعالى : (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) ([٦]) .

([١]) سورة النور الآية ٢ .
([٢]) سورة النصر الآية ٢ .
([٣]) سورة يونس الآية ١٠٤ .
([٤]) سورة الزمر الآية ١٤ .
([٥]) سورة الكافرون الآية ٦ .
([٦]) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

وقال تعالى : (**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم وأخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً**) ([٧]) .

وقال تعالى : (**وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون**)([٨]) .

فالضمير فى قوله تعالى (دينكم) يعود على المؤمنين من أمة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

وعلى هذا فالدين المضاف إلى الله – عز وجل والمضاف إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين هو الدين الحق الذى يعنى الإلتزام الصادق بدين الله من توحيد وتشريع وعبادة فى مقابل الدين الباطل المنسوب إلى طوائف من أهل الكتاب والمشركين وقوم فرعون ومن نهج نهجهم وسلك سبلهم والذى

([٧]) سورة المائدة الآية ٣ .
([٨]) سورة التوبة الآية ١٢ .

جاء متناقضاً تماماً مع التوحيد الخالص الذى بعث الله تعالى بـــه رسله وأنزل به كتبه .

ومتناقضاً كذلك مع التشريع الإلهى الذى سنه الله تعـــالى لعبـــاده وجعله منهجاً لصلاح حياتهم .

ومتناقضاً أيضا مع العبادة التى تعنى الإلتزام الصادق بـــدين الله عز وجل .

إنه يمثل الدين الباطل لأنه يقوم على الشـــرك وعلـــى التشـــريع المخترع وعلى عبادة غير الله تعالى .

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) ([1]) .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

" يقول الله تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى ديـــن الله الـــذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبـــادة الله تعـــالى وحـــده لا شريك له الذى له أسلم من فى السماوات والأرض أى استسلم له

([1]) سورة آل عمران الآية ٨٣.

من فيهما طوعاً وكرهاً .. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لا يخالف ولا يمانع ... " (٢) .

فالدين فى القرآن الكريم عندما يضاف إلى البشر قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً قد يعنى إلتزاماً صادقاً بدين الله وقد يعنى اختراعاً بشرياً أو وهماً إنسانياً يتناقض مع التوحيد والتشريع والعبادة كلها أو بعضها .

* فعندما يضاف الدين إلى الله عز وجل فإنه يعنى عناصر ثلاثة هى : التوحيد والتشريع والعبادة :

١- فدين الله تعالى قائم على توحيد الله عز وجل اعتقاداً جازماً قال تعالى : (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً) (٣) .

فالدين هنا يراد به : التوحيد الخالص .

٢- ودين الله قائم على التشريع الإلهى إلتزاماً أميناً قال تعالى:

---

(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٢٩٧.
(٣) سورة النصر الآية ٢ .

(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) [١] .

فالدين هنا مراد به التشريع الذى سنه الله تعالى لعباده وجعله منهجاً لصلاح حياتهم .

٣- ودين الله قائم على العبادة الضارعة والطاعة الخاشعة لله -عز وجل - قال تعالى : **(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون)** [٢] .

فالدين هنا يراد به العبادة والخضوع لله رب العالمين .

❁ أما الدين المضاف إلى البشر والذى يتناقض مع التوحيد جاء فى مثل قوله تعالى : (وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) [٣] .

فدين أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتناقض مع التوحيد ويقوم على الشرك .

---

[١] سورة النور الآية ٢ .
[٢] سورة آل عمران الآية ٨٣ .
[٣] سورة آل عمران الآية ٢٤ .

● والدين المضاف إلى البشر والذى يتناقض مع التشريع الإلهى جاء فى مثل قوله تعالى : (**وكذلك زين لكثير من المشـــركين قتـــل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم**) [٤] .

فدين المشركين هنا مراد به تقاليـــدهم وشـــرائعهم التـــى اخترعوها لأنفسهم .

● والدين المضاف إلى البشر والذى يتناقض مع العبادة جاء فى مثل قوله تعالى : (**قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنـــتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبـــد لكـــم دينكم ولى دين**) [٥] .

فالدين هنا مراد به العبادة فهى فى جانب المشركين عبادة للأصنام وفى جانب الرسول عبادة لله تعالى [٦] .

---

(٤) سورة الأنعام الآية ١٣٧ .
(٥) سورة الكافرون الآية ١ – ٦ .
(٦) راجع د/ المسير المدخل لدارسة الأديان صـ ١٧ وما بعدها .

ومن هذا يتبين لنا :

إن لفظ الدين فى القرآن الكريم قد جاء بالمعنى الشامل فهو يشمل الدين الصحيح المنزل من عند الله تعالى وهو الإسلام كما يشمل أيضاً الأديان الباطلة التى ليست لها صلة بالوحى وقد عرفنا أن القرآن الكريم قد أضاف لفظ الدين إلى البشر مؤمنهم وكافرهم فسمى ما عليه أهل الكتاب ديناً فى قوله تعالى : **(يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم)** .

وقوله تعالى : (ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب) وهل بعد الحق إلا الضلال .

وسمى ما عليه أهل الشرك من الأصنام والأهواء ديناً فقال سبحانه **(لكم دينكم ولى دين)** .

فالدين فى القرآن الكريم يطلق على ما يعتقد الناس مطلقاً سواء كان هذا المعتقد صواباً أو خطأ وحياً من السماء أم اختراعاً بشرياً ووهماً إنسانياً فكل ما يعتقد يمكن أن يسمى ديناً .

يقول القرطبى فى تفسير قوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) :

" فيه معنى التهديد وهو كقوله تعالى (لنا أعمالنا ولكم أعمـــالكم) أى إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا .. وسمى دينهم ديناً لأنهم اعتقدوه وتولوه .. " ([١]) .

واستخدم ابن كثير لفظ الأديان الباطلة عند تفسيره لقول الله تعالى (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حـــزب بمـــا لـــديهم فرحون)([٢]) فيقول :

" أى لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقـــوا ديـــنهم أى بـــدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفـــروا بـــبعض كـــاليهود والنصـــارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء باطلة وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شئ .. " ([٣]) .

وهناك حديث شريف يؤكد هذا التعبير ففى مســـند الإمـــام أحمد بسنده عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : قيـــل

([١]) الجامع لأحكام القرآن جـ ٢ صـ ٢٢٩ .
([٢]) سورة الروم الآية ٣٢ .
([٣]) مختصر تفسير ابن كثير جـ٣ صـ ٥٥ .

لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أى الأديان أحب إلى الله تعالى؟ فقال : (الحنيفية السمحة) (١) .

ولا شك أن المقصود بالأديان هنا كافة ما اعتقده الناس وهذا يعنى أن ما غير الإسلام يسمى ديناً وقد عرفنا من قبل أن اللغة لا تمنع إطلاق لفظ الدين على إعتقادات الوثنيين وغيرهم .

وعلى هذا فلفظ الدين بمفهومه الواسع ومدلوله الشامل يجمع كل ما يعتقد فى مجال الفكر الإنسانى والقرآن الكريم – كما مر – قد فرق بين الدين الحق والدين الباطل وقرر فى العديد من الآيات أن الدين المقبول عند الله تعالى هو الإسلام كما قال تعالى:

(أن الدين عند الله الإسلام) (٢) .

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) (٣) .

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) (٤) .

*****

---

(١) مختصر ابن كثير جـ ١ صـ ٦٣٩.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣ .

المبحث الثالث
فـى
معنـى الملـة

المبحث الثالث
فى
معنى الملـة

الملة فى اللغة والإصطلاح :

أولاً : معنى الملة فى اللغة :

جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى :

" أصل (**الملة**) من أمللت الكتاب قال تعالى : (وليملـــل الـــذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحـــق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعـــدل ..) (١)

ويقال :

- خبز ملة .
- وملّ حبزه يمله ملا .
- والمليل : ما طرح فى النار .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

- والمليلة : حرارة يجدها الإنسان .
- ومللت الشئ أمله : أعرضت عنه – أى ضجرت .
- وأمللته من كذا : حملته على أن ملّ من قوله عليه السلام : (تكلّفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا) فإنه لم يثبت لله ملالاً بل القصد أنكم تملون والله لا يمل ([1]) .

وجاء فى القاموس المحيط :

- " مللته ومللت منه بالكسر مللاً وملّة وملالة وملالاً : سَئِمتُهُ كاستمللته .
- وأملّنى وأملّ على : أبرمنى (سئم منى) فهو ملُول و ملُولة ومالولة وملالة وذو ملّة وهى ملُول و ملُولة .
- والمَلّة بالفتح : الرماد الحار والجمر وعرق الحُمّى كالمُلال بالضم .
- والمُلّة بالضم : الخياطة الأولى .
- والمِلّة بالكسر : الشريعة أو الدين. وتَملّلَ وامتلّ : دخل فيها

([1]) المفردات صـ ٧١٧ .

• **وملَّ القوس** أو السهم بالنار : عالجه بها .
• **وملَّ الشئ** في الجمر : أدخله .
• **وملَّ في المشى** : أسرع .
• **وملَّ الثوب** : خاطه ...(٢) .

وجاء في مختار الصحاح :

" ... وأملَّ عليه بمعنى أملى يقال **أمللتُ** عليه الكتاب .. وأملى الكتاب وأملَّهُ لغتان جيدتان جاء بهما القرآن ومنه قوله تعالى :

(فهى تملى عليه) وقوله تعالى : **(وليملل الذى عليه الحق)**

واستملاه الكتاب سأله أن يُمْلِيَهُ عليه .

والملة الدين والشريعة ... " (٣) .

وهكذا فإن مادة (الملّة) في لغة العرب قد وردت كثيراً وحملت المعاجم اللغوية لها أكثر من معنى طبقاً لحركة حروفها مما **يوحى بأن** هذه الكلمة لها وجود في لغتنا العربية .

---

(٢) القاموس المحيط صـ ٩٥٤ .
(٣) مختار الصحاح صـ ٦٣٤ وأنظر المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٩٢٢ والمعجم الوجيز صـ ٥٩١ .

ومن جماع الأقوال المتقدمة فى معنى (المِلَّـة) اللغـوى يمكن تعريفها فى اللغة بأنها :

الشريعة المملاة لأول مرة على الرسول ومن خلاله حتـى تنقذ متبعيها من الوقوع فى الحقر والسـأم والكراهيـة وتجعـل القائمين عليها من المتمسكين بها على ما يعتضد به وأقـوى مـا يمكن حملهم عليه وهى الملة الحقة (١) .

ثانياً : تعريف الملة فى الاصطلاح :

قال الراغب الأصفهانى عن المعنى الشرعى لكلمة (ملة) :

" الملة كالدين وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده علـى لسـان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله " (٢) .

وقال الشهرستانى عن معنى (الملة):

" لما كان نوع الإنسان محتاج إلى الإجتماع مع آخر مـن بنـى جنسه فى إقامة معاشه والإستعداد لمعاده وذلك الإجتماع يجب أن

---

(١) د/محمد حسينى الغزالى : حقيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان صـ ٤١ .
(٢) المفردات صـ ٧١٦ وأنظر المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٩٢٣ .

يكون على شكل يحصل به التمانع والتعاون حتى يحفظ بالتمـــانع ما هو أهله ويحصل بالتعاون ما ليس له ، فصورة الإجتماع على هذه الهيئة هى الملة " ([٣]) .

ويضيف الشهرستانى : " والطريق الخاص الذى يوصل إلى هذه الهيئة هو المنهاج والشرعة والسنة . والإتفاق على تلك السنة هى الجماعة قال الله تعالى : (لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنـــهاجاً) ([٤])

ويقول : " ولن يتصور وضع الملة وشرع الشريعة إلا بواضـــع شارع يكون مخصوصاً من عند الله بآيات تدل على صدقه وربما تكون الآية مضمنة فى نفس الدعوة وقد تكون ملازمـــة وربمـــا تكون متأخرة " ([٥]) .

فالشهرستانى - ومن خلال هذا النص - يقرر أن **(الملة)** مشترك لفظى يتحدد معناه المراد منه بمخصص يكـــون بمثابـــة الترشيح للمعنى المراد من بين المعانى المثارة ومن ثم فهو يرى

([٣]) الملل والنحل جـ ١ صـ ٣٨ .

([٤]) سورة المائدة الآية ٤٧ .

([٥]) الملل والنحل جـ ١ صـ ٣٩ .

أن النوع الإنسانى خلقاً محتاجاً إلى بنى جنسه حتى تقوم حيـاتهم وتنظم شئون معاشهم ويستقر على الحقيقة أمر معادهم ومـن ثـم فلابد من وقوع إجتماع بين أفراد النوع الإنسانى كله تكـون لـه صورة مثلى أو قيادة عليا تبدو فى هيئة معينة هى الملة.

فالشهرستانى قد استبعد وجود ملة من غير شارع ومعـه شرع وطبقاً لهذا الذى ذهب إليه الشهرستانى تكون (**الملة**)غير الشرعة وغيرهما المنهاج الواردين فى قوله تعالى : **(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) ولكن الغيرية ليست على إطلاقها لشـمول الملة الشريعة وأن الشريعة جزء الملة لأن الأحكام الشرعية مـن حيث أنها تملى لتنقل تسمى ملة** (١) .

كما قسم الشهرستانى (الملة)إلى أنواع فقال : " ثـم أعلـم أن (**الملة الكبرى**) **هى ملة إبراهيم الخليل - عليه السلام- وهـى** الحنيفية التى تقابل التضاد **قال الله تعالى : (ملة أبيكم إبراهيم)**(٢).

---

(١) د / محمد حسينى الغزالى حفيف الأفنان صـ ١٨ ـ ١٩ بتصرف .

(٢) سورة الحج الآية ٧٨.

والشريعة ابتدأت مع نوح – عليه السلام – قال الله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) ([٣]) والحدود والأحكام ابتدأت من آدم وشيث وإدريس – عليهم السلام – ولختمت الشرائع والملل والمناهج والسنن بأكملها وأتمها حسناً وجمالاً بسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – قال الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) ([٤]) .

وقد قيل خص آدم بالأسماء وخص نوح بمعانى تلك الأسماء وخص إبراهيم بالجمع بينهما ثم خص موسى بالتنزيل وخص عيسى بالتأويل وخص المصطفى – صلوات الله عليه وعليهم أجمعين – بالجمع بينهما على ملة أبيكم إبراهيم " ([٥]) .

فالشهرستانى قسم الملة إلى أنواع ثلاثة :

([٣]) سورة الشورى الآية ١٧ .
([٤]) سورة المائدة الآية ٣ .
([٥]) الملل والنحل جـ ١ صـ ٣٩ .

النوع الأول : (الملة الكبرى) : وهى ملـــة ســيدنا إبــراهيم – عليــه السلام – وهى الحنيفية الحائدة عن الباطــل القائمة على الحق .

النوع الثانى : (الملة الخاتمـــة) : وهـــى التـــى خـــص بهـــا المصطفى – صلى الله عليــه وســلم – وكانــت خاتمة لأنها جمعت بين الملة الكبرى التى هى ملة إبراهيم وملة موسى وعيســى فلمـــا كانــت ملـــة المصطفى – صلى الله عليه سلم – جامعة بيــنهم جميعاً سميت الملة الخاتمة .

النوع الثالث : (الملة الخاصة) : وهى التى جاءت مع كل نبى على حدة غير سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد الخــاتم – صلى الله عليه وسلم – وهذا يستقى من قولــه : خص آدم بالأسماء وخص نوح بمعانى تلك الأسماء وخص إبراهيم بالجمع بينهما أى بين ما خص بــه

آدم ونوح – عليهما السلام – ثم خص موسى بالتنزيل وخص عيسى بالتأويل .. " .

والشهرستانى : بهذا التقسيم قد جعل فروقاً جوهرية بين الشريعة والملة من ناحية وبين كل ملة والأخرى من ناحية ثانية لكن يرد على تعريف الشهرستانى وتقسيمه سؤال مؤداه أن الملة تطلق على ما يعتقده الناس مطلقاً سواء كان هذا المعتقد صحيحاً أم باطلاً فلفظ الملة جاء مع المسلمين كما جاء مع غير المسلمين([1]) كما سيأتى .

وقد خالف الشيخ أبو البركات الدرديرى تعريف الشهرستانى وتقسيمه حيث يرى الملة جزء الأحكام الشرعية وليست الأحكام الشرعية جزء الملة وأن الأحكام الشرعية تتنوع إلى أنواع هى :

١- (**الملة**) : وهى الأحكام الشرعية من حيث أنها تملى .

([1]) راجع د / محمد حسينى الغزالى حفيف الأفنان صـ ١٩ – ٢٠ .

٢- **(الدين)** : وهو الأحكام الشرعية من حيث أنها يتدين بها أى يتعبد بها .

٣- **(الشريعة)**: وهى الأحكام الشرعية من حيث أنها شرعت أى بينها الشارع شريعة أى مشروعة .

وميل الشيخ الدرديرى هذا قائم عنده على أساس أن الأحكام الشرعية متحدة بالذات لكنها مختلفة بالإعتبار لأن الأحكام الشرعية من حيث أنها تملى لتنقل ملة ومن حيث أنها يتدين بها دين ومن حيث أنها شرعت أى بينها الشارع شريعة ([1]) .

وبهذه الإعتبارات جعل الشيخ الدرديرى الأحكام الشرعية أعم من الملة وليست الملة هى الأعم .

ونحن نميل مع الرأى القائل بأن الملة أعم من الشريعة وأعم من الأحكام الشرعية أيضاً لما يلى :

([1]) نفسه نقلاً عن شرح الخريدة البهية صـ ٤٠ طـ الحلبى ١٣٦٦هـ ، ١٩٤١م.

الأول : أن (**الملة**) جاءت فى القرآن الكريم دالة على العقيدة الصحيحة وهى الملة الحقة وجاءت دالة على العقائد الباطلة – كما سيأتى – وليست الأحكام الشرعية كذلك لأن الأحكام الشرعية لا تطلق إلا على تطبيق الأحكام الشرعية التى تقود إليها العقيدة الحقة والدين الصحيح . ولا تعتبر شريعة إلا إذا جاءت وفقاً لأحكام الشارع .

الثانى : أن (**الملة**) اسم لما يملى أما الأحكام الشرعية فهى علم على ما يطبق من عبادات ومعاملات وسلوك وأخلاق يدخل تحت جناح الأحكام الشرعية والفرق بين الأمرين كبير .

الثالث : أنه يمكن تصور (**الملة**) على أنها محصورة فى الذى شرعه الله ومن ثم يقال : الملة اعتباراً بالشئ الذى شرعه الله [٢] وليست الشريعة بهذا الإعتبار أعم من الملة [٣] .

---

(٢) الراغب الأصفهانى صـ ٧١٧.
(٣) حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان صـ ٢٣ – ٢٤ .

فبان لنا أن تقسيم الشهرستانى كان أقوم من تقسيم غيـــره غير أنه يحتاج فقط إلى توظيف كلماته وتدعيمها ببعض الأدلة أو التسليم بها على ما هى عليه . وسنحاول بعون الله عرض بـــاقى التعريفات الإصطلاحية لكلمة (ملة) :

قال القرطبى عن معنى (الملة) عند تفسير قوله تعالى :

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) :

" **(الملة)** : اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه على ألسنة رســله فكانت الملة والشريعة سواء ، فأما الدين فقد فرق بينه وبين الملة والشريعة فإن الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله والدين ما فعله العباد عن أمره " [1] .

أما أبو البقاء الكوفى فيقول فى تعريف الملة :

و(الملة) اسم ما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا إلى آجل ثوابه [2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٢ صـ ٩٤ .
(٢) الكليات صـ ٤٤٣ .

هذا عن تعريف (**الملة**) فى اللغة والإصطلاح وسنحاول بعون الله تعالى فيما يلى إلقاء الضوء على إستعمال القرآن الكريم لكلمة (**الملة**) ثم استخلاص الفروق بين الملة والدين والشـــريعة وذلك من خلال النصوص السابقة وبشكل إجمالى .

إستعمال كلمة (الملة) فى القرآن الكريم :

لم تأت كلمة (**الملة**) فى القرآن الكريم مضافة إلـــى الله عز وجل وإنما جاءت مضافة إلى البشر بما يشمل (**الملة الحقة**)و (**الملة الباطلة**) أو (**الدين الصحيح**) و(**الدين الفاسد**) .

و(**الملة الحقة**) هى المنسوبة إلى من يؤديهـــا عـــن الله تعالى إلى خلقه وهم الأنبياء والمرسلون و(**الملة الباطلة**) هـــى المضافة إلى طوائف من الكفار واليهود والنصارى .

❁ ومن نماذج إضافة (الملة الحقـــة) الدالـــة علـــى العقيـــدة الصحيحة إلى الأنبياء :

• إضافة (**الملة**) إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهي تعني الدين الصحيح : قال تعالى (**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**) [١].

وقال تعالى (**قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**) [٢] .

وقال **تعالى** (**قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**) [٣] .

وقال **تعالى** (**ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً**) [٤] .

ه قال **تعالى** (**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**) [٥] .

---

[١] سورة البقرة الآية ١٣٠ .
[٢] سورة البقرة الآية ١٣٥ .
[٣] سورة آل عمران الآية ٩٥ .
[٤] سورة النساء الآية ١٢٥ .
[٥] سورة الأنعام الآية ١٦١ .

وقال تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ولم يك من المشركين) (٦) .

وقال تعالى (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل)(٧).

• إضافة (**الملة**) إلى آباء يوسف - عليه السلام - وهى تعنى الدين الصحيح أيضاً : قال تعالى على لسان يوسف - عليه السلام- : **(واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) (٨) .**

فالقرآن الكريم فى هذه الآيات قد أضاف (**الملة**) – بمعنى الدين الصحيح – إلى من أوحيت إليهم من الأنبياء والرسل من حيث أنهم يعلمونها لأقوامهم فهى تعنى الملة الحقة التى تقود إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

---

(٦) سورة النحل الآية ١٢٣ .
(٧) سورة الحج الآية ٧٨ .
(٨) سورة يوسف الآية ٣٨ .

❋ **ومن نماذج إضافة (الملة الباطلة) الدالــة علــى العقيــدة الفاسدة إلــى الكفــار والمشــركين وأهــل الكتــاب (اليهــود والنصارى):**

• إضافة (**الملة**) بمعنى الدين الفاسد والإعتقاد الخــاطئ إلــى الملحدين الكافرين بالله واليوم الآخر المعاصرين لنبى الله يوســف – عليه السلام – : قال تعالى على لسان يوسف (**إنى تركت ملــة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون**) (١) .

أى " اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً فى المعاد " (٢) .

• إضافة (**الملة الباطلــة**) أيضاً إلى المستكبرين من قوم شعيب – عليه السلام – الذين طلبوا منه ومن معه من المؤمنين الدخول فى ملتهم الخاسرة : قال تعالى : (**قال الملأ الذين استكبروا من قومه**

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٧ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٢٥٠.

لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معــك مــن قريتنــا أو لتعــودن في ملتنا) ([٣]).

ورد شعيب – عليه السلام – بقوله (قال أولوكنا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) ([٤]).

يقول ابن كثير : " هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين وتوعدهم إياه ومن معه بــالنفى عن القرية أو الإكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه . وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة ، وقوله (أولوكنا كارهين) يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فإن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشــركاء معــه

([٣]) سورة الأعراف الآية ٨٨ .
([٤]) سورة الأعراف الآية ٨٨ – ٨٩ .

أنداداً وهذا تنفير منه على إتباعهم (**وما يكون لنا أن نعود فيهـا إلا أن يشاء الله ربنا**) وهذا رد إلى الله مستقيم فإنه يعلم كل شئ وقـد أحاط بكل شئ علماً .. " ([1]) .

• إضافة (**الملة الباطلة**) أيضاً إلـى المشـركين علـى عهـد أصحاب الكهف القائلين (**هؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهـة**) :
قال تعالى على لسان أهل الكهف : (**إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا**) ([2]) .

أى إن علموا بمكانكم فلا يزالون يعذبونكم بأنواع العـذاب إلى أن يعيدوكم فى ملتهم التى هم عليها أو تموتوا وإن وافقتموهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة ([3]) .

• إضافة (**الملة الباطلة**) على لسان الكافرين من أقوام الأنبيـاء جملة على مدى الأجيال فقد توعدت الأمم الكافرة رسلهم بالإخراج من أرضهم والنفى من بين أظهـرهم أو الرجـوع فـى ملـتهم

([1]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٣٦ .
([2]) سورة الكهف الآية ٢٠.
([3]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٤١٢.

والدخول معهم فيما هم فيه من الخسران والضلال : قال تعالى : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) ([٤]).

◆ إضافة (**الملة**) إلى كل من اليهود والنصارى : قال تعالى مخاطباً نبيه – صلى الله عليه وسلم – : (ولن ترضى عنك **اليهود** ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير)([٥]).

يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية :" المعنى ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام وإتباعهم " ([٦]) .

ويقول : "تمسك بهذه **الآية** جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعى وداود وأحمد بن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة

([٤]) سورة إبراهيم الآية ١٣ – ١٤ .
([٥]) سورة البقرة الآية ١٢٠ .
([٦]) الجامع لأحكام القرآن جـ ١ صـ ٩٣.

لقوله تعالى (**ملتهم**) فوحد (**الملة**) ويقول تعالى (**لكم دينكم ولى دين**) وبقوله عليه السلام (**لا يتوارث أهل ملتين**) على أن المراد به الإسلام والكفر بدليل قوله عليه السلام (**لا يرث المسلم الكافر**).

وذهب مالك وأحمد فى الرواية الأخرى إلى أن الكفر مِلَلٌ فلا يرث اليهودى النصرانى ولا يرثان المجوسى أخذاً بظاهر قوله - عليه السلام - (**لا يتوارث أهل ملتين**) وأما قوله (**ملتهم**) فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة فى اللفظ بدليل إضافتها إلى ضمير الكثرة كما تقول : أخذت عن علماء أهل المدينة علمهم وسمعت عليهم حديثهم يعنى علومهم وحديثهم " (١) .

ويقول ابن كثير : " وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق (**قل إن هدى الله هو الهدى**) أى قل يا محمد إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى

(١) الجامع لاحكام القرآن جـ ٢ صـ ٩٤ .

يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل (**ولـئن إتبعـت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصـير**) فيه تهديد ووعيد شديد للأمة فى إتباع طرائق اليهود والنصـارى بعدما علموا من القرآن والسنة .. فإن الخطـاب مـع الرسـول والأمر لأمته " ([٢]).

ويقول : " وقد إستدل كثير من العلماء بقوله (**حتى تتبع ملتـهم**) حيث أفرد (**الملة**) على أن الكفر كله ملة واحدة كقولـه تعـالى (**لكم دينكم ولى دين**) فعلى هذا لا يتوارث المسـلمون والكفـار وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لأنهم كلهـم ملة واحدة " ([٣]) .

◆ كما وردت كلمة (**الملة**) فى القرآن الكريم موصوفة بالملـة الآخرة على لسان كفار مكة : قال تعالى : (**وعجبـوا أن جـاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إله واحـداً إن**

([٢]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ١١٤.

([٣]) نفسه جـ ١ صـ ١١٤.

هذا لشئ عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهـتكم إن هذا لشئ يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا إختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا) ([١]) .

يقول القرطبى فى المراد بالملة الآخرة الواردة فى الآية الكريمة:

" قال إبن عباس والقرظى وقتادة ومقاتل والكلبى والسدّى يعنون : ملة عيسى النصرانية وهى آخر الملل والنصارى يجعلون مع الله إلهاً .

وقال مجاهد وقتادة أيضاً يعنون : ملة قريش .

وقال الحسن : ما سمعنا أن هذا يكون فى آخر الزمان .

وقيل : أى ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسول الله حق"([٢])

فلفظ (**الملة**) فى القرآن الكريم يشمل الدين كله سواء له صلة بالوحى أو ليست له صلة ، جاء مضافاً إلى الأنبياء كما جاء

([١]) سورة ص الآية ٤ – ٨ .
([٢]) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥ صـ ١٥٢ وراجع مختصر بن كثير جـ ٣ صـ ١٩٨ .

مضافاً **إلى غير المسلمين وليس كما ذهب الراغب والشهرستانى من أن لفظ (الملة) يشمل الملة الحقة فقط .**

وبهذا يتبين لنا :

١- أن كلمة (**الملة**) جاءت فى القرآن الكريم إسماً وفعلاً كما جاءت مفردة ومضافة ولم تأت جمعاً ولا مثنى .

٢- أن كلمة (**الملة**) سميت بهذا الإسم لأنها مملاة عن الله تعالى إلى رسوله ثم أملاها الرسول على المرسل إليه ودونها عنه لأنها شريعة الله إليهم والدين الذى ارتضاه لهم ، تقول : أملَّ عليه بمعنى أملّى ، وتقول : أمْلَلْتُ عليه الكتاب وأملَى الكتاب وأمَلَّهُ لغتان جيدتان جاء بهما القرآن الكريم فمنه قوله تعالى : **(وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً)**[٣] . وقوله تعالى : **(فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه**

---

(٣) سورة الفرقان الآية ٥ .

ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل)([1]).

٣- أن كلمة (**الملة**) فى القرآن الكريم أطلقت على الدين الحق المنزل من عند الله تعالى وهو الإسلام وهى (**الملة الحقة**) كما أطلقت على الأديان الباطلة المخترعة من أفكار البشر وهى (**الملة الباطلة**) .

ويمكن تقسيم الملة إلى قسمين :

القسم الأول : الملة الحقة الحنيفية :

وهى التى تأت بشرع الله تعالى مع نبى من أنبيائه .

وتتنوع هذه الملة الحقة حسب رأى الشهرستانى – السالف – إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : (الملة الكبرى) : وهى ملة سيدنا إبراهيم الخليل إمام الحنفاء عليه السلام : قال تعالى : (**فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**) ([2]) .

([1]) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .
([2]) سورة آل عمران الآية ٩٥.

النوع الثانى : (الملة الخاصة) : وهى التى تخص كل نبى – غير سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد – بعينه كموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام .

والنوع الثالث : (الملة الخاتمة) : وهى ملة خاتم الأنبياء سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – : قال تعالى : (**ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ولم يك من المشركين**) (٣) .

أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه إنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء (**أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ولم يك من المشركين**) .

وليس يلزمه من كونه – صلى الله عليه وسلم – أمر بإتباع ملة سيدنا إبراهيم الحنيفية أن يكون سيدنا إبراهيم أكمل منه فيها لأنه قام بها قياماً عظيماً وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذى يرغب إليه الخلق حتى الخليل – عليه السلام – وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

---

(٣) سورة النحل الآية ١٢٣ .

إذا أصبح قال : (أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) .

وفى الحديث : عن إبن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال : (الحنيفية السمحة) (١) (٢) .

القسم الثانى : الملة الباطلة :

وهى التى كان يقف عليها أصحاب الدين الباطل ويطالبون الناس الإلتزام بها بل ويطلبون من المرسلين الدخول فيها وإتباعهم وهى ملة الكفار والمشركين وأهل الكتاب ، قال تعالى على لسان يوسف - عليه السلام - : (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٦٣٩ و جـ ٢ صـ ٣٥١ .
(٣) سورة يوسف الآية ٣٧ .

وقال تعالى مخاطباً نبيه – صلى الله عليه وسلم – **(ولــن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)** ([٤]) :

إذن : لفظ (**الملة**) كما يشمل الملة الصائبة التى يأتى بها النبى وتقود إلى الخير يشمل أيضاً الملة الخاسرة التى تعود علــى صاحبها بالخسران .

الفرق بين الدين والملة :

بادئ ذى بدء يلاحظ الناظر فى النصوص السابقة أنه ليس هناك فرق كبير بين الدين والملة من حيث المدلول الشرعى لكــل منهما ومن حيث أن كلاً منهما يطلق على الدين الصحيح والملــة الحقة أو الدين الفاسد و(**الملة الباطلة**) . لكن هذا لا ينفى وجود فوارق بينهما نعرض لها بعد قليل .

❁ ورد فى تعريف (**الملة**) فى اللغة : (**الملة**) : الشــريعة والدين كملة الإسلام والنصرانية وفى الحديث **(لا يتــوارث أهــل ملتين)**.

([٤]) سورة البقرة الآية ١٢٠ .

كما ورد فى الإصطلاح الشرعى : (**الملة**) : اسم لما شرعه تعالى لعباده بواسطة أنبيائه ليتوصلوا به إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، والدين مثلها . وورد : الملة كالدين (١) .

والدين قد يطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملة وعليه قوله تعالى : (**ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً**) (٢) .

وقد يطلق على الفروع خاصة وعليه قوله تعالى (**ذلك الدين القيم**) (٣).

يقول أبو البقاء الكفوى : (**الدين**) بالكسر فى اللغة : العادة مطلقاً وهو أوسع مجالاً يطلق على الحق والباطل أيضاً ويشمل أصول الشرائع وفروعها لأنه عبارة عن وضع إلهى سائق لذوى العقول بإختيارهم المحمود إلى الخيرات بالذات قلبياً كان أو قالبياً كالإعتقاد والعلم والصلاة . وقد يتجوز فيه فيطلق على الأصول

---

(١) راجع المفردات صـ ٧١٦ والقاموس المحيط صـ ٩٥٤ ومختار الصحاح صـ ٦٣٤ والكليات صـ ٤٤٣ – ٤٤٤ والقرطبى جـ ٢ صـ ٩٤ الجامع لأحكام القرآن والمعجم الوسيط جـ٢ صـ ٩٢٢ والوجيز صـ ٥٩١.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦١ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٦.

خاصة فيكون بمعنى (**الملة**) وعليه قوله تعالى (**ديناً قيماً ملة إبراهيم**) . وقد يتجوز فيه أيضاً فيطلق على الفروع خاصة وعليه قوله تعالى (ذلك الدين القيمة) أى : (**الملة**) القيمة يعنى فروع هذه الأصول .. و(**الملة**) الطريقة أيضاً ثم نقلت إلى أصول الشرائع .. " ([٤]) .

فمفهوم الدين لا يختلف كثيراً عن مفهوم الملة من حيث المدلول الشرعى .

۞ والدين والملة لا يختلفان أيضاً من حيث الإطلاق فالدين يطلق على الدين الصحيح والدين الباطل وكذلك الملة فإنها تطلق على ما يعتقد الناس مطلقاً سواء كان هذا المعتقد صحيحاً أم باطلاً .

• فمثال إطلاق الدين على الدين الحق والدين الباطل قوله تعالى (**لكم دينكم ولى دين**) ([٥]) .

([٤]) الكليات صـ ٤٤٣ – ٤٤٤ .
([٥]) سورة الكافرون الآية ٦ .

• ومثال إطلاق (**الملة**) على (**الملة الحقة**) و(**الملة الباطلة**)

قوله تعالى (**ملة أبيكم إبراهيم**) ([1]) .

وقوله تعالى على لسان يوسف - عليه السلام - : (**إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون**) ([2]) .

وأطلقت الملة على الدين الحق في كثير من آيات القـرآن الكريم قال تعالى : (**قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**) ([3]) .

أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه فـي القرآن الكريم (**فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**) أي اتبعوا دين إبراهيم وطريقته وملته التي شرعها الله فـي القـرآن على لسان سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه الحق الذي

([1]) سورة الحج الآية ٧٨.
([2]) سورة يوسف الآية ٣٧ .
([3]) سورة آل عمران الآية ٩٥ .

لا شك فيه ولا مرية وهى الطريقة التى لم يأت نبى بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم [٤] .

(قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) [٥] .

فقد ذكر جل شأنه أن الصراط المستقيم الذى لا إعوجاج فيه ولا إنحراف هو الدين القيم وأن هذا الدين هو ملة إبراهيم وطريقته – عليه السلام – وأنه بهذا الدين وبتلك الطريقة لم يكن من المشركين بل كان إمام الحنفاء الموحدين المخلصين [٦] .

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)[٧].

أى اتبع دين إبراهيم – عليه السلام – وملته التى هى الحنيفية السمحة وهى دين الإسلام ، و (الحنيف) : هو المائل عن

---

(٤) راجع مختصر ابن كثير جـ ٢ صـ ٣٠٠ ود/ عوض الله حجازى مقارنة الأديان صـ ٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٦١ .

(٦) راجع مختصر ابن كثير جـ ١ صـ ٦٣٩ ومقارنة الأديان صـ ١٠ .

(٧) سورة النحل الآية ١٢٣ .

الشرك قصداً أى تاركاً له عن بصيرة ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد ولا يرده عنه راد [1] .

وعلى هذا فليس هناك فرق واضح بين الدين والملة فـــى المدلول الشرعى وفى إطلاق كل منهما على الآخر .

أما عن الفروق الواضحة بين الدين والملة فيمكننا أن نحصرها فى الآتى :

(الدين) :

- يضاف إلى الله تعالى : (**أفغير دين الله يبغون**)[2]
- ويضاف إلى النبى : (**قـــل الله أعبـــد مخلصاً له دينى**) [3] .
- ويضـــاف إلى آحاد أمة النبى : (**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم**) [4] .

---

[1] راجع مختصر ابن كثير جـ ٢ صـ ١٤١ ومقارنة الأديان صـ ١٠ .

[2] سورة آل عمران الآية ٨٣ .

[3] سورة الزمر الآية ١٤.

[4] سورة المائدة الآية ٣ .

فيقال : (دين الله) و (دين محمد) و (دينى ودينك) باعتبار خضوعنا وإنقيادنا إليه .

(الملة) :

- لا تضاف إلى الله تعالى فلا يقال : (ملة الله) .
- تضاف إلى النبى الذى تسند إليه : (**فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً**) (°) فهى منسوبة إلى من يؤديها عن الله تعالى إلى خلقه وهم الأنبياء والمرسلون .

فالملة الطريقة ثم نقلت إلى أصول الشرائع من حيث أن الأنبياء يعلمونها – لأقوامهم – وبهذا الاعتبار لا تضاف إلا إلى النبى ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى .

فهى تضاف إلى من أوحيت إليه وهو النبى وعلى هذا فأحكام التوراة ملة هى ملة موسى – عليه السلام – وأحكام الإنجيل ملة هى ملة عيسى – عليه السلام – لأنها مجموعة الشرائع التى حملها موسى وعيسى – عليهما السلام – .

(°)سورة آل عمران الآية ٩٥ .

• كما أن كلمة (**الملة**) لا تضاف إلى آحاد أمة النبى فلا يقال : (ملتى وملتك) ويقال (دينى ودينك) كما مر .

لأن الدين يضاف إلى المكلف الذى يعتنقه ويؤمن به ويقيمه ويعمل به .

أما الملة فتضاف وتنسب وتسند إلى من أوحيت إليه وهو النبى(1).

وعلى هذا :

فالدين يضاف إلى الله وإلى النبى وإلى آحاد أمة النبى .

أما الملة فلا تضاف إلا إلى النبى الذى تستند إليه ولا تكاد توجد مضافة إلى الله عز وجل ولا إلى آحاد أمة النبى .

فالوضع الإلهى مهما نسب إلى من يؤديه عن الله تعالى يسمى : ملة .

ومهما نسب إلى من يقيمه ويعمل به يسمى : ديناً .

---

(1) راجع المفردات صـ ٧١٧ والكليات صـ ٤٤٣ - ٤٤٤ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء صـ ٦٢ .

(الملة) :

تقال اعتباراً بالشئ الذى شرعه الله تعالى .

أى أن الملة تطلق على ما دعا الله تعالى عباده إلى فعله .

(الدين) :

يقال : اعتباراً بمن يقيمه إذ كان معناه الطاعة والإنقياد .

أى الدين ما فعله العباد عن أمره تعالى .[٢]

فكلمة (**الملة**) تقال باعتبار الدعاء إلى الدين .

وكلمة (**الدين**) تقال باعتبار الطاعة والإنقياد لهذا الدين .

(الملة) :

اسم لجملة الشرائع فلا تستعمل كلمة الملة إلا فى جملة الشرائع دون آحادها .

(الدين) :

اسم لما عليه كل واحد من أهل الشرائع أى ما يكون

---

(٢) راجع المفردات صـ٧١٧ والكليات صـ ٤٤٣- ٤٤٤ والجامع لأحكام القرآن جـ ٢ صـ ٩٤ .

عليه كل واحد من أهل الملة الواحدة (١).

فلا يقال : (الصلاة ملة الله) ويقال : (الصلاة دين الله)

الفرق بين الملة والشريعة :

ورد فى تعريف (**الملة**) : الملة : الدين والشريعة (٢) .

وذكر القرطبى أن الملة والشريعة سواء ، والملة والشـــريعة مـــا دعا الله تعالى عباده إلى فعله .(٣)

لكن الإمام فخر الدين الرازى قد ذكر فرقاً مفاده :

" أن الملة أعم من الشريعة لأن الملة تشمل الأصول يعنى التوحيد والنبوة ورعاية مكارم الأخلاق وهو القاسم المشترك بـــين كافـــة الأنبياء ولكن كل شريعة تختلف عن الأخرى فى فروع الشـــرائع وكيفية الأعمال " (٤) إذن الملة أعم من الشريعة .

---

(١) المفردات صـ ٧١٦ – ٧١٧ والكليات صـ ٤٤٣ – ٤٤٤.
(٢) القاموس المحيط صـ ٩٥٤ مختار الصحاح صـ ٦٣٤ المعجم الوجيز صـ ٩٥١ المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٩٢٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ٢ صـ ٩٤ .
(٤) مفاتيح الغيب المجلد الثانى صـ ٤٣٢ ط دار الغدالعربى بالقاهرة أولى ١٩٩١م.

وجاء فى التفسير الوسيط : " الملة فى الأصل الطريقة وغلب إطلاقها على أصول الدين من حيث أن صاحبها يضل عن طريقها إلى دار السلام " (٥) باعتبار أن دار السلام هى موطن لقاء الصالحين فى الآخرة وتكون الملة هى الطريق الموصل إلى دار السلام .

والشهرستانى : كان قد ذكر فروقاً جوهرية بين الملة والشريعة فالملة عنده غير الشريعة وغيرهما المنهاج الواردين فى قوله تعالى : (**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**) (٦) ولكن الغيرية ليست على إطلاقها لشمول الملة الشريعة وأن الشريعة جزء الملة كما أن الملة أعم من الأحكام الشرعية أيضاً – كما ذكرنا – وأبو البقاء الكفوى كان قد ذكر فروقاً بين الملة والشريعة منها :

---

(٥) د / أحمد الكومى ، ود/ محمد سيد طنطاوى التفسير الوسيط القسم الأول صـ ٣٨٠ .

(٦) سورة المائدة الآية ٤٨ وراجع د/ محمد حسينى الغزالى حفيف الأفنان صـ ١٦ – ١٧ .

أن الشريعة :

- **تضاف إلى الله تعالى يقال : (شريعة الله) .**
- **وتضاف إلى النبى يقال : (شريعة النبى) .**
- **وتضاف إلى الأمة يقال : (شريعة الأمة) .**

أما الملة :

- فلا تضاف إلا إلى النبى الذى تستند إليه .
- ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى .
- ولا إلى آحاد أمة النبى ([1]) – كما مر – .

ويقرر الجرجانى مع الكفوى أن هذه الألفاظ (الدين – الملة – الشريعة) كثيراً ما يستعمل بعضها مكان بعض ولهذا قيل إنها متحدة بالذات ومتغايرة بالإعتبار :

فإن الشريعة :

- من حيث أنها تطاع تسمى ديناً .
- ومن حيث أنها يجتمع عليها تسمى ملة .

([1]) الكليات صـ ٤٤٤ .

- ومن حيث أنها يرجع إليها تسمى مذهباً ([2]) .

ويضيف الكفوى بعد أن قرر أن الألفاظ السابقة متحدة بالذات ومتغايرة بالاعتبار :

" إذ الطريقة المخصوصة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – تسمى :

- بالإيمان من حيث أنه واجب الإذعان .
- وبالإسلام من حيث أنه واجب التسليم .
- وبالدين من حيث أنه يجزئ به .
- وبالملة من حيث أنه مما يملى ويكتب ويجتمع عليه .
- وبالشريعة من حيث أنه يرد على زلال كماله المتعطشون .
- وبالناموس من حيث أنه أتى به الملك الذى هو الناموس وهو جبريل – عليه السلام – ([3]) " .

([2]) التعريفات صـ ١٤١ – ١٤٢ والكليات صـ ٤٤٣ – ٤٤٤.
([3])الكليات صـ ١٤٤ .

وعلى هذا فدين الله تعالى واحد هو الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام) ([1]) ولكل نبى ملة هى شريعة الله عز وجل الخاصة بقومه قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمـا جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مـرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ([2]) فالملة والشـريعة متحـدتين معناً ومفاداً مع الفوارق التى ذكرناها .

*****

([1]) سورة آل عمران الآية ١٩ .
([2]) سورة المائدة الآية ٤٨ .

المبحث الرابع
في
معنى النحلة



المبحث الرابع
فى
معنى النحلة

النحلة فى اللغة والإصطلاح :

أولاً : معنى (النحلة) فى اللغة :

جاء فى مفردات الراغب :

◆ " النحل : الحيوان المخصوص قال تعالى (**وأوحى ربك إلى النحل**) (1) .

◆ والنِّحلة : عطية على سبيل التبرع وهو أخص من الهبة إذ كل هبة نحلة وليس كل نحلة هبة .

◆ وإشتقاقه من النحل نظراً منه إلى فعله فكأن نحلته أعطيته عطية النحل وذلك ما نبه عليه قوله تعالى (**وأوحى ربك إلى النحل**) .

---

(1) سورة النحل الآية ٦٨ .

◆ وبين الحكماء أن النحل يقع على الأشياء كلهــا فــلا يضــرها بوجه وينفع أعظم نفع فإنه يعطى ما فيه الشفاء كما وصــفه الله تعالى .

◆ وسمى الصداق بها " نحلة " من حيث أنه لا يجب فى مقابلتــه أكثر من تمتع دون عوض مالى .

◆ وكذلك عطية الرجل إبنه يقال : نحل إبنه كذا وأنحله .

◆ ومنه نِحْلت المرأة قال تعالى : (صدقاتهن نحله) ([١]) .

◆ والإنتحال : إدعاء الشئ وتناوله ومنه يقــال : فــلان ينتحــل الشعر .

◆ ونحل جسمه نحولاً : صار فى الدقة كالنحل ومنــه النواحــل للسيوف أى الرقاق .. تصوراً لنحولها .

◆ ويصح أن يجعل النحلة أصلاً فيسمى النحــل بــذلك إعتبــاراً بفعله([٢]).

([١]) سورة النساء الآية ٤ .
([٢]) المفردات فى غريب القرآن صـ ٣٣٩ .

وجاء فى تفسير القرطبى : عند قوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحله) : " قوله تعالى : (نحلة) :

- " النحلة " و " النحلة " بكسر النون وضمها لغتان وأصلها من العطاء نحلت فلاناً شيئاً أعطيته فالصداق عطية من الله تعالى للمرأة .
- وقيل : " نحلة " : أى عن طيب نفس من الأزواج من غير تنازع .
- وقال قتادة : معنى " نحلة " : فريضة واجبة .
- وقال جريج وابن زيد : معنى " نحلة " : فريضة مسماة قال أبو عبيدة : ولا تكون " النحلة " إلا مسماة معلومة .
- وقال الزجاج : " نحلة " : تديناً .
- و" النِّحلة " : الديانة والملة يقال : هذا نحلته : أى دينه وهذا حق مع كون الخطاب للأولياء الذين كانوا يأخذونه فى الجاهلية حتى قال بعض النساء فى زوجها : لا يأخذ الحُلْوان من بناتنا .

تقول : لا يفعل ما يفعله غيـره فانتزعـه الله مـنهم وأمـر بـه للنساء.."([1]) .

وجاء فى تفسير ابن كثير : " قوله تعالى : (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) :

- قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : النحلة : المهر .
- وعن عائشة – رضى الله عنها – : نحلة : فريضة .
- وقال ابن زيد : النحلة فى كلام العرب : الواجـب يقـول لا ينكحها إلا بشئ واجب لها وليس ينبغى لأحد بعد النبى – صلى الله عليه وسلم – أن ينكح إمرأة إلا بصداق واجب .

ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلـى المرأة حتماً وأن يكون طيب النفس بذلك كما يمنح المنيحة ويعطى النحلة طيباً كذلك يجب أن يعطى المرأة صداقها طيباً بذلك..."([2]).

([1]) الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ صـ ٢٤ .
([2]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٣٥٧ .

وجاء فى القاموس المحيط (٣) :

- النَّحْلُ : ذباب العسل للذكر والأنثى واحدتها بهـاء (نحلـه)
- والعطاء بلا عوض .
- والشئ المعطى .
- والنَّاحِلُ والنَّحْلُ : بالضم مصدر نحله : أى أعطاه .
- ومهر المرأة .
- والاسم : النِّحْلَةُ بالكسر ويضم وكبشرى : بمعنى العطِية .
- وأَنْحَلَهُ ماء : أعطاه وأَنْحَلَهُ مالاً : خصه بشئ منه كَنَحَّلَهُ فيها.
- والنَّحْلُ والنّحْلاَن بضمهما : اسم ذلك المعطى .
- وانْتَحَلَهُ وتَنَحَّلَهُ : إدعاه لنفسه وهو لغيره .
- ونَحَلَهُ القول كمنعه : نسبه إليه .
- ونحله فلاناً : سابه .

---

(٣) الفيروز آبادى القاموس المحيط صـ ٩٥٦.

◆ ونَحَلَ جِسْمُهُ كَمَنَعَ وعَلِمَ ونَصَرَ وكَرُمَ نُحــولاً : ذهــب مــن مرض أو سفر فهو نَاحِلٌ ونَحِيلٌ كَسكْرَى وهى نَاحِلَةٌ وأَنْحَلَهُ الهم، وجمل وسيف ناحل : رقيق .

◆ والنِّحْلَةُ بالكسر : الدعوى .

وجاء فى مختار الصحاح :

◆ " النَّحْلُ و النَّحْلَةُ : يقع على الذكر والأنثى .

◆ والنُّحْلُ بالضم مصدر نَحَلَهُ يَنْحَلُــه بــالفتح نُحْــلاً أى أعطــاه

◆ والنُّحْلَى العطي بوزن الحُبْلَى .

◆ ونَحَلَ المرأة مهرها يَنْحَلُهاَ نِحْلَه بالكسر أعطاها عن طيب نفس من غير مطالبة :

وقيل : من غير أن يأخذ عوضاً ، ويقال أعطاها مهرها نِحْلَةً .

وقيل : النحلة التسمية وهى أن يقال نحلتها كذا وكذا فيحد الصداق ويبينه .

◆ والنِّحْلَةُ أيضاً : الدعوى .

◆ والنُحول : الهزال وقد نَحَلَ جسمه من بـــاب خَضَــعَ ونَحِــلَ بالكسر نُحُولاً لغة فيه والفتح أفصح .

◆ ونَحَلَهُ القول من باب قطع أى أضاف إليه قــولاً قالــه غيــره وادعاه عليه .

◆ وانتَحل فلاناً شعر غيره أو قول غيره : إذا ادعاه لنفسه وَتَنَحَّلَ مثله .

◆ وفلان يَنْحَل مذهب كذا وقبيلة كذا إذا إنتسب إليه " (١) .

وجاء فى المعجم الوسيط :

◆ نَحَلَ نُحُولاً : دق وهزل يقال : نَحَلَ جسمه فهو نَاحِلٌ ونَحِيلٌ .

◆ ونَحَلَ فلاناً نُحْلاً : تبرع له بشئ .

◆ ونَحَلَ المرأة : أعطاها مهرها .

◆ ونَحَلَ فلاناً القول نَحْلاً : نسبه إليه وليس بقائله .

◆ ونَحَلَ فلاناً المرض : أرق جسمه وأضناه .

◆ نَحِلَ نُحولاً : نَحَلَ .

---

(١) مختار الصحاح صـ ٦٤٩ – ٦٥٠ .

◆ نَحُلَ نُحولاً : نَحلَ .

◆ أَنْحَلَهُ المرض ونحوه : نَحَلَهُ .

◆ وأَنْحَلَهُ الشئ : تبرع له به وخصَّه به .

◆ نَحَّلَهُ شيئاً من ماله : أعطاه وخصه به .

◆ انْتَحَل الشئ : إدعاه لنفسه وهو لغيره يقال : إنتحل فلاناً هـذا الشعر وهذا الرأى .

◆ وانْتَحَل مذهب كذا : إنتسب إليه ودان به .

◆ تَنَحَّلَ الشئ : إنتحلَهُ .

◆ **النَّحَالَةُ : تربية النحل بغية الحصول علـى العسـل والشـمع والإستفادة منهما فى التجارة .**

◆ **النَّحَالُ : مربى النحل .**

◆ **النُّحْلُ : العطية .**

◆ **النُّحْلُ : العطاء والشئ المعطى تبرعاً .**

◆ **النُّحلَى : المعطى على سبيل التبرع .**

◆ والنِّحْلَةُ : العطاء والفرض وبهما فسر قوله تعالى فى التنزيـل العزيز : (وآتوا النساء صدقاتهن نِحْلَه) ([1]) .

◆ والنِّحْلَةُ : الدين والعقيدة يقال : ما نحلتك ؟

◆ والنِّحْلَةُ : الدعوة أو النسبة بالباطل .

◆ النَّحِيلُ : يقال رجل نَحِيلٌ : مهزول ([2]) .

وهكذا فإن كلمة (النِّحْلة) فى اللغة قد جاءت على معان متعددة تدور حول ما يلى :

١) العطية والعطاء والشئ المعطى تبرعاً بلا عوض .

٢) صداق المرأة .

٣) الفريضة والواجب .

٤) الهزال والدقة والرقة .

٥) الديانة والملة والمذهب .

٦) الدين والعقيدة .

([1]) سورة النساء الآية ٤.

([2]) المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ٩٤٣ – ٩٤٤ وأنظر المعجم الوجيز صـ ٦٠٦.

٧) الدعوى أو النسبة بالباطل .

وهذا المعنى الأخير هو الغالب على تعريف كلمة (النحلة) من خلال المفهوم الإسلامى لها – كما سيأتى – تقول نحله القول: أى أضاف إليه قولاً قاله غيره وادعاه عليه ونسبه إليـــه ولـــيس بقائله .

وفلاناً إنتحل مذهب كذا أو قبيلة كذا إذ إنتسب إليه ودان به بغير حق ([1]) .

والإنتحال : إدعاء الشئ وتناوله ومنه يقال فـــلان إنتحـــل شعر غيره أو قوله أو غيره أى إدعاه لنفسه وهو لغيـــره " فمـــن إدعى ديناً فقد إنتحله لنفسه فمن إنتحل الإسلام فقد إدعى أنه مسلم ومن إنتحل الشعر فقد إدعى أنه شاعر ومن إنتحل البرهمية فقـــد إدعى أنه برهمى ... " ([2]) .

([1]) انظر د/ عوض الله حجازى مقارنة الأديان صـ ١٠ .
([2]) انظر د/ رؤوف شلبى يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء صـ ٦٤ .

وهذه المعانى اللغوية السابقة لكلمة (النِّحْلة) يمكن أن تـؤدى فى جملتها إلى تعريف لغوى للنحلة هو :

" النحلة : هى الدعوى الهزيلة التى تنسب لنفسها ما صنعه غيرها وتعتقد فيما تصدق به متحملة عبء الدفاع عنه وجمع الأنصار له ودفع الخصوم عنه حقاً أو باطلاً " ([٣]) .

ثانياً : معنى (النحلة) فى الإصطلاح :

" النحلة : تطلق على العقائد والمذاهب الفاسدة التى يخترعها الإنسان ويدعيها من نفسه دون سند صحيح من الوحى الإلهى .

وعلى هذا المفهوم لا يمكن إطلاق النحلة على الأديان السماوية المعروفة ... وإنما تطلق على أقوال الفلاسفة والفرق المادية والفرق الخارجة مثل البهائية والقاديانية وأمثالهما " ([٤]) .

وفى المعانى اللغوية التى سلف ذكرها ما يساعد على هذا المعنى.

([٣]) د / محمد حسينى الغزالى حفيف الأفنان صـ ٢٩ .

([٤]) د/ أحمد طلعت غنام : أضواء على النصرانية تاريخها وعقيدتها صـ ٩ ط الفجر الجديد ١٩٨٧م .

النحلة فى إصطلاح علماء الغرب :

وقد وضع علماء الغرب لهذه النحلة إصطلاحاً فقالوا :

النحلة يراد بها : مجموعة العقائد والعبادات والشعائر التى تخص شخصاً بعينه .

ولكنهم أخطأوا يوم سحبوا هذا التعريف على الإسلام فقالوا إن الإسلام نحلة لأن النحلة من مواصفاتها الشخص الواحد أو الجماعة الواحدة فهى نظام خاص لا يصح أن ينسحب على الجميع ... ومعروف أن الإسلام دين الله للناس كافة فهو إذن ليس نحلة بالمفهوم الذى وضعه علماء الغرب لمعنى نحلة .

فالنحلة إستعمال ضيق للتعبير عن إلحاق فرد أو جماعة بعقيدة معينة سواء كانت هذه العقيدة دينية أو غير دينية وسواء كانت صحيحة أو غير صحيحة إنها من قبيل الهوى المتبع [1] **(ومن أضل ممن اتبع الهوى)** ولقد سمى الله تعالى نحل الكافرين ومللهم جميعاً هوى وذمها كلها فى مثل قوله تعالى :

---

[1] د/ رؤوف شلبى يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء صـ ٦٤ ـ ٦٥.

(ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) [٢] .

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين) [٣]

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) [٤] .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) [٥] .

(فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين) [٦] .

وعلى هذا فمعنى " النحلة " مرتبط بالإدعاء والنسبة بالباطل وهى تطلق على الأديان والمذاهب الوضعية التى

---

(٢) سورة المائدة الآية ٤٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٤٥ .
(٤) سورة المائدة الآية ١٤٩ .
(٥) سورة المؤمنون الآية ٧١ .
(٦) سورة القصص الآية ٥٠.

يخترعها الإنسان ويدعيها من نفسه دون سند صحيح من الـوحى فهى من قبيل الهوى المتبع .

رأى ابن حزم فى إطلاق كلمة (النحلة) :

غير أن إبن حزم فى كتابه (الفصل فى الملل والأهـواء والنحل) قد سلك مسلكاً آخر خالف فيه ما اشتهر بين العلماء من إطلاق كلمة نحلة على الأديان والمذاهب الفاسدة حيث كـان لـه رأى آخر فى معنى النحلة فهى تطلق عنده على الدين الصـحيح والدين الفاسد . أو بعبارة أخرى : هناك نحلة الحق ونحل باطلـة وبالتالى فالدين والملة والنحلة والمذهب قد تلتقى كلها على معنى واحد .

ونشير فيما يلى إلى بعض أقواله – رحمه الله – :

يقول إبن حزم فى معرض حديثـه عـن كتـب اليهـود والنصارى ما نصه :

" وثبت بذلك عند كل منصف من المخالفين صحة قولنا : أن كل من خالف دين الإسلام ونحلة السنة ومذهب أصحاب الحديث فإنه

عارف بضلال ما هو عليه إلا أنهم يخذلان الله تعالى إياهم مكابرون لعقولهم مغلبون لأهوائهم " (١) .

فقد عطف إبن حزم نحلة السنة ومذهب أصحاب الحديث على دين الإسلام وهو – كما يرى الدكتور عوض الله حجازى – من عطف المترادفات ذلك أنه ليست السنة مخالفة لدين الإسلام وليس مذهب أصحاب الحديث خارجاً عنه .

ولكنه رأى لإبن حزم لا ينقض ما اشتهر بين العلماء من التغاير بين الدين والنحلة والمذهب عموماً (٢) .

ويقول إبن حزم فى موضع آخر : " الحمد لله رب العالمين .. على ما وفقنا من الملة الإسلامية ثم على ما يسرنا عليه من النحلة الجماعية السنية ... " (٣) .

(١) الفصل جـ ١ صـ ٢٠١ تحقيق د/ محمد إبراهيم نصر ود/ عبد الرحمن عميرة مكتبات عكاظ ط أولى ١٩٨٢م.
(٢) مقارنة الأديان صـ ١١.
(٣) الفصل جـ ٢ صـ ٢٣٢.

ويقول فى موضع آخر : " .. فلنبدأ الآن بعون الله وتأييده فى ذكر نحل المسلمين وافتراقهم فيها وإيراد ما شغب به من شغب منهم فيما غلط فى شئ من نحلته وإيراد البراهين الضرورية على إيضاح نحلة الحق من تلك النحل كما فعلنا فى الملل .. " ([1]) .

نقد رأى ابن حزم :

فابن حزم ومن خلال هذه النصوص قد أورد عبارة (نحلة السنة) وعبارة (النحلة الجماعية السنية) وعبارة (نحل المسلمين) وعبارة (نحلة الحق من تلك النحل) وهذا يعنى أن ابن حزم قد أطلق كلمة نحلة على السنة المطهرة كما أنه يرى أن نحل المسلمين منها ما هو حق وهى نحلة أهل السنة والجماعة ومنها ما هو باطل وهى نحل أهل البدع إذن هناك نحلة الحق فى مقابل النحل الباطلة . وعلى أى حال فإن رأى إبن حزم هو إصطلاح خاص به لكنه لا يمثل إستخدام الشرع وينقض ما

([1]) نفسه صـ ٢٦٣ .

اشتهر بين العلماء من التغاير بين الدين والملة والنحلة وإطلاقهـــا على المذاهب المخترعة من أفكار البشر .

رأى الشهرستانى فى إطلاق كلمة (النحلة) :

أما الشهرستانى فقد سلك – فى كتابـــه الملـــل والنحـــل – مسلكاً آخر خالف فيه ما ذهب إليه بن حزم (من أن هناك نحلـــة الحق ونحل باطلة وأن أهل السنة والجماعة أصحاب نحلة الحـــق ومن عداهم من أهل البدعة فهم أصحاب النحل الباطلـــة) حيـــث كان للشهرستانى رأى آخر فى مدلول كلمة النحلـــة فلقـــد جعـــل أرباب الديانات والملل فى مقابلة أهل الأهواء والنحل على عكس إبن حزم تماماً يقول الشهرستانى فى مقدمة كتابه (الملل والنحل) ما نصه :

" فلما وفقنى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العالم مـــن أربـــاب الديانات والملل وأهل الأهواء والنحل والوقوف على مصـــادرها

ومواردها وإقتناص أوانسها ([1]) وشواردها أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوى جميع ما تدين به المتدينون وإنتحله المنتحلون عبرة لمن إستبصر وإستبصاراً لمن إعتبر " ([2]) .

ثم شرع الشهرستانى فى تقسيم أهل العالم إلى أرباب الديانات والملل وأهل الأهواء والنحل وإعطاء ملامح كل قسم فيقول :

" .. ومنهم من قسمهم بحسب الآراء والمذاهب وذلك غرضنا فى تأليف هذا الكتاب وهم منقسمون بالقسمة الصحيحة الأولى إلى :

أ) أهل الديانات والملل .

ب) وأهل الأهواء والنحل .

- فأرباب الديانات مطلقاً مثل : المجوس واليهود والنصارى والمسلمين .

([1]) أوانس جمع آنسة وهى الشابة الجميلة الطيبة النفس (هامش الملل والنحل جـ ١صـ ١١) .

([2]) الملل والنحل جـ ١ صـ ١١.

. وأهل الأهواء والآراء مثل : الفلاسفة والدهرية والصابئة وعبدة الكواكب والأوثان والبراهمة .ويفترق كل منهم فرقاً :

▪ فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم فى عدد معلوم .

▪ وأهل الديانات قد إنحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها فافترقت المجوس على سبعين فرقة واليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على إثنتين وسبعين فرقة والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة والناجية أبداً من الفرق واحدة – كما فى الحديث– إذ الحق من القضيتين المتقابلتين فى واحدة ولا يجوز أن يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائع التقابل إلا وأن تقتسما الصدق والكذب فيكون الحق فى إحداهما دون الأخرى ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين فى أصول المعقولات بأنهما محقّان صادقان وإذا كان الحق فى كل مسألة عقلية واحداً فالحق فى جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة وإنما عرفنا هذا بالسمع ..." (٣) .

---

(٣) الملل والنحل جـ ١ صـ ١٢ – ١٣ .

فالشهرستانى بعد أن قسـم أهـل العـالم بحسـب الأراء والمذاهب على هذا النحو وعين أرباب الديانات والملـل وكـذلك أهل الأهواء والنحل وأوضح أن أهل الأهواء والنحل لا تنضـبط مقالاتهم فى عدد معلوم بخلاف أهل الديانات والملل الـذين قـد إنحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها .

فبعد أن أوضح كل هذا عاد فأكد على التفريق بين أرباب الديانات والملل وبين أهل الأهواء والنحل وعين أرباب الـديانات والملـل كما عين أهل الأهواء والنحل وذكر أوصافاً من شأنها التفريق بين أصحاب الدين الحق دين الإسلام وبين أهـل الأهـواء والنحـل فيقول: مذاهب أهل العالم من أربـاب الـديانات والملـل وأهـل الأهواء والنحل : من الفرق الإسلامية وغيرهم ممن لـه كتـاب منزل محقق مثل : اليهود والنصارى .

وممن له شبهة كتاب مثل : المجوس والمانوية .

وممن له حدود وأحكام دون كتاب مثل : الفلاسفة الأول والدهرية وعبدة الكواكب والأوثان والبراهمة .

ويقول : ثم إن التقسيم الصحيح الدائر بين النفى والإثبات هو قولنا: أن أهل العالم انقسموا من حيث المذاهب إلى : .

- أهل الديانات والملل .
- وإلى أهل الأهواء والنحل .

فإن الإنسان إذا إعتقد عقداً أو قال قولاً فإما أن يكون فيه :

- مستفيداً من غيره .
- أو مستبداً برأيه .

◆ فالمستفيد من غيره مسلم مطيع والدين هو الطاعة والإنقياد والمسلم المطيع فهو المتدين فالمتدين هو المسلم المطيع المقر بالجزاء والحساب يوم التناد والمعاد قال الله تعالى :

(إن الدين عند الله الإسلام) (١) **(ورضيت لكم الإسلام ديناً)** (٢) **(ذلك الدين القيم)** (٣) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨.
(٢) سورة المائدة الآية ٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٣٥ .

◆ والمستبد برأيه محدث مخترع والمستبدون بالرأى مطلقاً هم المنكرون للنبوات مثل : الفلاسفة والصابئة والبراهمة وهم لا يقولون بشرائع وأحكام أمرية بل يضعون حدوداً عقلية حتى يمكنهم التعايش عليها .

◆ والمستفيدون هم القائلون بالنبوات .

ومن كان قال بالأحكام الشرعية فقد قال بالحدود العقلية ولا ينعكس " (١) .

وفى موضع آخر يقول : " أهل الأهواء والنحل من الصابئة والفلاسفة وآراء العرب فى الجاهلية وآراء الهند وهؤلاء يقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد ...

والتقسيم الضابط أن نقول :

١) من الناس من لا يقول بمحسوس ولا معقول وهم السوفسطائية .

---

(١) الملل والنحل جـ١ صـ ٣٧ – ٣٨ بتصرف حفيف .

٢) ومنهم من يقول بالمحسوس ولا يقــول بــالمعقول وهــم الطبيعية .

٣) ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول ولا يقــول بحــدود وأحكام وهم الفلاسفة الدهرية .

٤) ومنهم من يقول بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكــام ولا يقول بالشريعة والإسلام وهم الصابئة .

٥) ومنهم من يقول بهذه كلها وبشريعة ما ولا يقول بشــريعة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وهم المجوس واليهود والنصارى .

٦) ومنهم من يقول بهذه كلها وهم المسلمون " ([٢]) .

فالشهرستانى ومن خلال العرض السالف قد جعل الــدين والملة مقابلين للهوى والنحلة .

وعد أرباب الديانات والملل بأنهم : المسلمون وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن لهم شبهة كتاب مثل المجوس .

([٢]) الملل والنحل جـ ٢ صـ ٤ – ٥ .

ووصف المتدين بأنه : المسلم المطيــع المقــر بــالجزاء والحساب يوم التناد والمعاد والدين هو : الطاعة والإنقياد قال الله تعالى : (**إن الدين عند الله الإسلام**) (١) وقال تعــالى (**ورضــيت لكم الإسلام ديناً**) (٢) و (**ذلك الدين القيم**) (٣) .

وعد أهل الأهواء والنحل بأنهم : الفلاسفة الأول والدهرية والصابئة وعبدة الكواكب والأوثان والبراهمة ... ووصف أهــل الأهواء والنحل بأنهم : المستبدون بالرأى والهوى المخترعون له الواضعون حدوداً عقلية للتعايش عليها بين الناس .

نقد رأى الشهرستانى :

إن رأى الشهرستانى الذى جعل الدين والملة مقابلين للهوى والنحلة لا يمثل وضع اللغة فاللغة – كما مر – لا تمنــع إطــلاق لفظ الدين أو الملة على إعتقــادات الصــابئة وعبــدة الكواكــب والأوثان .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٣٥ .

فعبادة هؤلاء لمعبوداتهم فيما يمارسونه مـــن خصـــائص عقيدتهم يسمى ديناً فى اللغة .

وبما أن الملة قد تفسر بالدين والشريعة كمـــا تقـــدم فهـــذه الأهواء والنحل تمنحها اللغة إسم الدين والملة .

كما أنه لا يمثل إستعمال القرآن الكريم فقد عرفنا من قبـــل أن القرآن الكريم قد أضاف لفظ الدين والملة إلى أصحاب الأديان الفاسدة والمذاهب الوضعية قـــال تعـــالى : (ولا يـــدينون ديـــن الحق)[٤]. (لكم دينكم ولى دين) [٥] (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) [٦] (وقال الذين كفـــروا لرســـلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) [٧] .

---

[٤] سورة التوبة الآية ٢٩ .
[٥] سورة الكافرون الآية ٦ .
[٦] سورة يوسف الآية ٣٧ .
[٧] سورة إبراهيم الآية ١٣ – ١٤ .

وفى الحديث : قيل لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أى الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ فقال : (**الحنيفية السمحة**) (١) .

وتقدم قول القرطبى عند تفسير قول الله تعالى (**لكم دينكم ولى دين**) : " أى إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا .. وسمى دينهم ديناً لأنهم أعتقدوه وتولوه .. " (٢) .

وتقدم أيضا قول إبن كثير عند تفسيره لقول الله تعالى (**من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ..**) (٣) .أى لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أى بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكذبوا ببعض كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة ما عدا أهل الإسلام فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء باطلة وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شئ..)(٤).

---

(١) مختصر ابن كثير جـ ١ صـ ٦٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ٢٠ صـ ٢٢٩.
(٣) سورة الروم الآية ٣٢ .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٥ .

وتقدم أيضاً قول ابن كثير : " وقد إستدل كثير من العلماء بقوله تعالى : (حتى تتبع ملتهم) (٥) حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين) فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار وكل منهم لا يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لأنهم كلهم ملة واحدة " (٦) .

وانطلاقاً مما تقدم يمكننا أن نقرر ما يلى :

١) أن القرآن الكريم لم يمنع إطلاق لفظ الدين والملة على الأديان الوضعية التى عدها الشهرستانى أهواء ونحل فى مقابل الديانات والملل .

فلقد سمى نحلة المشركين ديناً (لكم دينكم ولى دين) . وأطلق لفظ الملة على أهل الإلحاد (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) .

---

(٥) سورة البقرة الآية ١٢٠.

(٦) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ١١٤ .

فهؤلاء القوم ملحدون لا يعترفون بالله ولا يقرون بالآخرة ومع ذلك لحقهم وصف الملة .

٢) أن الإنتحال أو النحلة قد يكون إعتماداً على الفكر والذهن وقد يكون فى وحى محرف وتنزيل إمتدت إليه أيد آثمة ...

- فالطبيعيون الدهريون .
- والفلاسفة الإلهيون .
- واليهود والنصارى والمجوس .
- والوثنيون على إختلاف طوائفهم .

كل هؤلاء يمكن تسميتهم أرباب دين وأهل ملة وأصـــحاب نحلة .

والمسلمون وحدهم المخصوصون بإسم الدين والملة فقط ولا يلحقهم وصف النحلـــة فـــدينهم الحـــق وملـــتهم الحنيفيـــة السمحة[1] .

❦❦❦❦❦

---

(١) راجع د / المسير المدخل لدراسة الأديان صـ ٣٣.

المبحث الخامس
في
تصنيف الأديان وخصائصها

المبحث الخامس
فى
تصنيف الأديان وخصائصها

صنف علماء المقارنة (الأديان) إلى تصنيفات عدة وهى في جملتها ترد إلى أمرين لا ثالث لهما :

الأمر الأول : الدين الإلهى (أو السماوى) .

الأمر الثانى : الدين الوضعى (أو الأرضى) .

وطبقاً لهذا التصنيف العام للأديان سيكون حديثنا عن الدين الإلهى وخصائصه أولاً ثم الدين الوضعى وخصائصه ثانياً .

أولاً : الدين الإلهى وخصائصه :

لقد إفترقت صفات الدين الحق دين الله تعالى عن صفات دين الشرك والأصنام والأهواء فهذا الدين الإلهى له تعريفات وخصائص وسمات تجعل الفوارق بينه وبين غيره ممن يشتركون معه فى كلمة (دين) كبيرة كالفارق بين

المخلوق والخالق وبين الضعف والعجز والـنقص البشـرى وبين الكمـال الإلهـى وكالفـارق بـين السـماء والأرض والإيضاح فيما يلى :

(أ): **تعريف الدين الإلهى** :

ورد عدد من التعريفات الإسلامية للدين عند تعريفـه فى الإصطلاح نقتبس منها ما يلى:

" الدين وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إياه إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل " ([1]) .

ولخص هذا التعريف على النحو التالى :

" الدين وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقـادات وإلـى الخير فى السلوك والمعاملات " ([2]) .

وعرفه الشيخ مصطفى عبد الرازق بقوله :

الدين : وضع إلهى يحسن الله تعالى به إلى البشر على لسان واحد منهم لا كسب له فيه ولا صنع ولا يصل إليه بتلق ولا

([1]) التهانوى / كشاف إصطلاحات الفنون جـ٢ صـ٣٠٥ والدين دراز صـ٢٩ وانظر شرح البيجورى على الجوهرة صـ١٧

([2]) دراز / الدين صـ٢٩ .

تعلم وإنما هو وحى وتعلم من الله تعالى يلقيه الله إلى عبـــده (**إن هو إلا وحى يوحى**) ([٣]) .

ويقول : ولئن كان القرآن قد إستعمل لفظ الدين بهذا المعنى الشامل كما يدل عليه تسمية نحل المشركين أدياناً فى قولــه تعالى (**لكم دينكم ولى دين**) فإن القرآن قرر فى أمر الـــدين أصولاً جعلت للدين معنى شرعياً خاصاً .

" فالدين " لا يكون إلا وحياً من الله لأنبيائه الذين يختـــارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله .. وهذا الدين الذى يوحيه الله لأنبيائه هو واحد لا يختلف فى الأولين والآخـــرين هذا الدين الواحد هو المعبر عنه فى آيات القرآن " بالإيمان " وعن أهله " بالمؤمنين " والذين آمنوا" ([٤]) .

([٣]) سورة النجم الآية ٤ .

([٤]) الأديان فى القرآن صـ٢٥ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء صـ٦١ .

وعرفه الدكتور عوض الله حجازى بقوله :

" تعاليم إلهية من وضع الله تعالى وإرشادات سماوية من لدن العليم الخبير بنفوس العباد وطبائعهم وما يحتاجون إليه فـى إصلاح حالهم فى المعاش والمعاد والدنيا والآخـرة ، إنـه مجموعة التعاليم والأوامر والنواهى التى يجئ بها رسول من البشر أوحى الله تعالى بها إليه " (١) .

فتعريفات الدين الإلهى فى الجو الإسلامى على هـذا النحو تفصل بينه وبين غيره من الأديان الأخرى فصلاً تاماً خاصة وأن القرآن الكريم قد قرر فى أمر هذا الدين الإلهـى أصولاً جعلت له معنى شرعياً خاصاً – كما سيأتى – :

(ب) من سمات الدين الإلهى وخصائصه :

لكل دين سمات وخصائص يتميز بها عـن الأديـان الأخرى فما هى سمات وخصائص الـدين الإلهـى (ديـن الإسلام ؟) ليس من اليسير ولا مما يقتضـيه هـذا البحـث المحدود النطاق والصـفحات أن نستقصـى كـل سـمات

---

(١) مقارنة الأديان صـ١١-١٢

وخصائص الدين الإلهى ولذلك نكتفى هنا أن نتحدث بإيجاز عن بعض السمات والخصائص التى يتميز بها الدين الإلهى عن غيره وهى على النحو التالى :

١- من ناحية الإضافة .

٢- من ناحية الوصف .

٣- من ناحية الوحدة .

١- من ناحية الإضافة :

◆ الدين الإلهى يضاف إلى الله تعالى لصدوره عنه : (أفغير دين الله يبغون) [٢] .

◆ ويضاف إلى النبى لظهوره منه (قل الله أعبد مخلصاً له دينى)[٣] .

◆ ويضاف إلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ..) [٤] .

---

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٣

(٣) سورة الزمر الآية ١٤

(٤) سورة المائدة الآية ٣ .

٢- من ناحية الوصف :

وصف الله تعالى دينه بأوصاف كثيـرة تـدل علـى قدسيته وتميزه عن غيره فمن ذلك :

◆ **أنه دين الحق :**

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [1] .

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الـدين كله وكفى بالله شهيداً) [2] .

ودين الحق هو الدينونة لله تعالى وحده فى الإعتقاد والشعائر والشرائع وهو متمثل فى كل دين سماوى جاء به رسول من قبل وهو الدين الممثل أخيراً فيما جـاء بـه سـيدنا محمـد - صلى الله عليه وسلم - ولا يدخل فيه طبعاً تلك الـديانات المحرفة المشوهة المشوبة بالوثنيات فى الإعتقاد .. [3] .

---

[1] سورة التوبة الآية ٣٣

[2] سورة الفتح الآية ٢٨

[3] الظلال جـ٣ صـ ١٦٤٤

كما لا يدخل فيه الديانات الوضعية التـــى تقــيم فـــى الأرض أرباباً يعبدها الناس من دون الله . والدين الحق : هو الثابت المطابق للواقع .

◆ **وهو الدين الخالص :**

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً لـــه الـــدين ألا لله الدين الخالص) [٤] .

يعلنها هكذا مدوية عالية فى ذلك التعبير المجلجل بأداة الإفتتاح (ألا) وفى أسلوب القصر (لله الدين الخالص) فيؤكد معناها بالبناء اللفظى للعبارة فهى القاعدة التى تقــوم عليهـــا الحياة كلها بل التى يقوم عليها الوجود كله ومن ثم ينبغى أن ترسخ وتتضح وتعلن فى هذا الأسلوب الحازم الحاسم (ألا لله الدين الخالص) [٥] أى البعيد عن الباطل الذى لا تشوبه شائبة إنحراف .

---

[٤] سورة الزمر الآية ٢-٣

[٥] الظلال جـ٥ صـ٣٠٣٧

• **وهو الدين القيم :**

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر النـــاس عليهـــا لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)([1]).

(فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له مـــن الله يومئذ يصدعون) ([2]) .

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) ([3]) .

إن الآية الأخيرة قد أوضحت قاعدة الـــدين الإلهـــى فقاعدة دين الله على الإطلاق تقوم على : عبـــادة الله تعـــالى وحده وإخلاص الدين له والميل عن الشرك وأهلـــه وإقامـــة الصلاة وإيتاء الزكاة (وذلك دين القيمة) عقيـــدة خالصـــة مستقيمة فى الضمير وعبادة الله تترجم عـــن هـــذه العقيـــدة وإنفاق المال فى سبيل الله وهو الزكاة فمن حقق هذه القواعد

([1]) سورة الروم الآية ٣٠

([2]) سورة الروم الآية ٤٣

([3]) سورة البينة الآية ٥

فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب وكما هو في دين الله على الإطلاق دين واحد وعقيدة واحدة تتوالى بها الرسالات ويتوالى عليها الرسل ، دين لا غموض فيه ولا تعقيد وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف وهي بهذه النصاعة وبهذه البساطة وبهذا التيسير. فأين هذا من تلك التصورات المعقدة..؟

والدين القيم : هو الذي له القوامة والهيمنة لأنه المستقيم على الحق المبني على الحجة والبرهان .

وتتوالى السمات والخصائص لهذا الدين الإلهي :

فالدين الإلهي هو المراد بالهدى الذي نبه الله تعالى عليه سيدنا آدم – عليه السلام – عندما أهبطه إلى الأرض كما جاء في قوله تعالى : (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى..) ([٤]) .

([٤]) سورة طه الآية ١٢٣ـ ١٢٤ وانظر بيان للناس جـ١ صـ١١٥

الدين الإلهى (الإسلام) يوصف بأنه دين العقل والفكر :

يقول الشيخ رشيد رضا فى كتابه (الوحى المحمدى) ما نصه :

" تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا ما فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التى فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحى كاللب والنهى لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب العهدين مطلقاً بل لأنها لم ترد فيها أساساً لفهم الدين ودلائله والإعتبار به ولا أن الخطاب بالدين موجه إليه وقائم به وعليه وكذلك أسماء التفكر والتدبر والنظر فى العالم التى هى أعظم وظائف العقل .. " (١) .

ويقول : " وقد صرح بعض حكماء الغرب بما لا يختلف فيه عاقلان فى الأرض من أن التفكر هو مبدأ إرتقاء البشر وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه .

---

(١) الوحى المحمدى صـ٢٦١.

كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر وإســتقلال العقل على البشر حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر وأعتقهم من هذا الرق وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب مــن المسلمين ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤوسهم فحرموهــا على أنفسهم إلا قليلاً منهم حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم وقد إعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم ... " (٢) .

فالإسلام دين العقل والفكر ما فى هذا من ريب وبذلك يشهد القرآن الكريم الذى يشيد بالعقل فى كثير جداً من آياته والرسول الخاتم – صلى الله عليه وسلم – فــى كثيــر مــن أحاديثه كما يدل لذلك أيضاً عقائده التى جاء بهــا وأصــوله التى قام عليها ، وما أكثر الآيات التى تأمر باستعمال العقــل وإعمال الملاحظة والفكر ليكون طريقاً للوصول إلى الحــق وإلى الإيمان الحق بالخالق الواحد وبسائر ما جاء به رسوله

---

(٢) نفسه صـ٢٦٣.

الخاتم فمن ذلك قوله تعالى فى آيات الكون الدالة على علم الله تعالى ومشيئته وحكمته ورحمته :

(إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) ([1]).

ففى هذه الآية الكريمة قد جاء ذكر فعل العقل فى الكلام على آيات الله تعالى وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء وبجانب هذه الآية الدالة على وجوب الملاحظة والنظر العقلى للوصول إلى الإيمان بإله واحد خالق العالم من عدم يدبر أمره ويحكمه كما يريد نجد آيات أخرى كثيرة تختم بهذه الجمل التى لها دلالتها : (لعلكم تعقلون - لعلكم تذكرون - لعلكم تهتدون - لقوم يعقلون - لقوم يتفكرون - لقوم يعلمون - لأولى الألباب - لأولى النهى) .

([1]) سورة البقرة الآية ١٦٤.

منع التقليد والجمود على إتباع الآباء والأجداد :

وإذا كان الإسلام هو دين العقل والفكر وإذا كان القرآن الكريم يأمر باستعمال العقل وإعمال الملاحظة والفكر على النحو السالف فإنه يحض بشدة على نبذ تقليد الآباء والأسلاف وغيرهم بغير تعقل أو تفكير .

وقد ورد في ذم التقليد وتضليل أهله والنعي عليهم آيات كثيرة منها :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) [٢] .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)[٣] .

([٢]) سورة البقرة الآية ١٧٠ .
([٣]) سورة المائدة الآية ١٠٤ .

لقد ذم القرآن الكريم هؤلاء من جهتين :

إحداهما : الجمود على ما كان عليه آباؤهم والإكتفاء به عن الترقى فى العلم والعمل وليس هذا من شأن الإنسان الحـى العاقل فإن الحياة تقتضى النمو والتوليد والعقل يطلب المزيد والتجديد .

الثانية : إنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر فى التمييز بين الحق والباطل والخير والشر والحسن والقبـيح بطريـق العقل والعلم وطريق الإهتداء فى العمل ويؤيده قوله تعالى : **(وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قـل أن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون)** ([1]) .

فالقرآن الكريم قد جاء يهدى جميـع متبعـى الملـل والأديان السابقة إلى إستعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى فى الدين وألا يكتفوا بما كان عليه أبـاؤهم وأجدادهم من ذلك فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب التى إمتاز بها البشر وبهذا العلم والهدى إمتاز

([1]) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

الإسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجاً ثم نكس المسلمون على رؤوسهم إلا قليلاً منهم واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم التى وكل الله دعوتها إليهم وصاروا حجة على دينهم فكيف يدعون له وحجته القرآن وهم يحرمون الإهتداء به ([٢]) .

والقرآن الكريم يجعل إهمال إستعمال العقل سبب عذاب الآخرة قال تعالى : **(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير)**([٣]).

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ([٤]) .

([٢]) الوحى المحمدى صـ٢٧٠- ٢٧١ .

([٣]) سورة الملك الآية ١٠ ـ ١١ .

([٤]) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

(أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (1)

إن آيات النظر العقلى والتفكر كثيرة فى الكتاب العزيز - كما أشرنا - فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لاحظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التى لا تزكى الأنفس ولا تثقف العقول ولا تصعد بها فى معارج الكمال لعرفان ذى الجلال والكمال **(قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون)** (2) .

وما أكثر الذين حال الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد وتقليدهم لهم فيه بينهم وبين الإيمان بما أنزل الله من الحق على لسان رسول من رسله .

---

(1) سورة الحج الآية ٤٦ .
(2) سورة الأنعام الآية ٧ .

ويوصف بأنه دين العلم والحكمة :

يقول الدكتور محمد يوسف موسى : " إن الإسلام قد أدى رسالته نحو العقل والعلم كما ينبغي وأن العلم الإسلامى العربى كان من الأسباب القوية لنهضة أوروبة فى العصور الوسطى . إنه لا يزال كثير مما عرفه العلماء المسلمون وكشفوه ولخترعوه فى سائر فروع العلم والمعرفة وبخاصة فى الطبيعة والكيمياء والفلك والصيدلة والطب والجراحة .. موضع الإعجاب والفخر على مر الأزمان ولا يزال حتى اليوم مقدراً كل التقدير من العلماء الغربيين " (٣) .

ومن هنا نقول : إذا كان الإسلام فى القرآن الكريم يحض على النحو السالف على ملاحظة الكون ومظاهره وظواهره وإعمال العقل والفكر فى كل ما يحيط بالإنسان وسائر ما خلق الله تعالى من العوالم والكائنات والأشياء وذم التقليد وضلل أهله فما هذا إلا لأنه يريد منا أن نطلب العلم بكل سبيل وأن نسلك إليه كل طريق لنفهم الكون وقوانينه

(٣) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ٤١ .

ونظامه ولنعمل على أن نفيد منه وبهذا نكون مؤمنين ونحيا حياة طيبة كريمة.

والعلم يطلق فى القرآن الكريم على علوم الدين والدنيا بأنواعها :

◆ فمن (**العلم المطلق**) قوله تعالى فى وصايا سورة الإسراء :

(ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلاً) [1]

أى لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية أو بالروايات السمعية أو بالبراهين القطعية فإن الله تعالى يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاثة .

◆ ومنه قوله تعالى فى (العلم المأثور) فى التاريخ **(إئتونى بكتاب من قبل هذا أو آثاره من علم إن كنتم صادقين) [2] .**

---

[1] سورة الإسراء الآية ٣٦ .

[2] سورة الأحقاف الآية ٤ .

▪ ومنه قوله تعالى فى (**علوم البشر المادية**) :

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) (٣).

▪ وقوله تعالى فى (**العلم الروحى**) :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (٤) .

وهاتان الآيتان فى بيان ضعف علم البشر وقلته حتى الدنيوى منه ولا يزال يعترف العلماء أيهم أوسع علماً بمضمونها وبأن علمهم لا يتجاوز الظواهر .

▪ ومنه قوله تعالى فى (**العلم النظرى**) :

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)(٥) .

---

(٣) سورة الروم الآية ٧.
(٤) سورة الإسراء الآية ٥٨ .
(٥) سورة الحج الآية ٨ .

الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظرى بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين والوحى .

▪ وقوله تعالى فى (**العلم الطبيعى**) :

(ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) ([1]) أى علماء الكون .

ومثل قوله تعالى بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق فى الجبال وألوان الناس والدواب: **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)**([2]) .

فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره وأسباب إختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله تعالى وحكمه فيها وهو يشمل أكثر العلوم والفنون أو جميعها.

([1]) سورة الروم الآية ٢٢ .
([2]) سورة فاطر الآية ٢٨ وراجع الوحى المحمدى صـ٢٦٣ ـ ٢٦٥ .

تعظيم القرآن الكريم شأن العلم وأهله :

ولقد عظم القرآن الكريم شأن العلم تعظيماً لا تعلوه عظمـــة أخرى وأثنى على أهله : قال تعالى : (**شهد الله أنه لا إله إلا** هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط) ([٣]) .

فبدأ سبحانه بنفسه وأثنى بملائكته وجعل أولى العلم فى المرتبة الثالثة ويدخل فيها الأنبيـــاء والحكمـــاء ومـــن دونهم من أهل الدرجات فمن ذلك قوله تعالى :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)([٤]).

وأمر سبحانه أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله تعالى :

(وقل رب زدنى علماً) ([٥]) .

كما أمره سبحانه أن يقول :

(هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتـــذكر أولـــوا الألباب) ([٦]) .

([٣]) سورة آل عمران الآية ١٨ .
([٤]) سورة المجادلة الآية ١١ .
([٥]) سورة طه الآية ١١٤.
([٦]) سورة الزمر الآية ٩ .

وفى الحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) .
وفى الحديث (من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع) ([1]) .
وفى الحديث (فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم .. إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير) ([2]).
وفى الحديث (من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر) ([3]) .

([1]) رواه الترمذى عن أنس وقال حديث حسن رياض الصالحين صـ٤٠١.
([2]) رواه الترمذى عن أبى أمامة – رضى الله عنه – وقال حديث حسن نفسه صـ ٤٠٢.

وفى حديث آخر : (**إن الله لا يقبض العلم إنتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً إتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**) ([٤]) .

ويؤيد الآيات والأحاديث الواردة فى مدح العلم والحث عليه ما ورد فى ذم اتباع الظن : (**وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً**) ([٥]).

(**وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً**) ([٦]) .

وقوله تعالى فى قول النصارى بصلب المسيح - عليه السلام- : (**ماهم به من علم إلا اتباع الظن**) ([٧]) .

([٣]) رواه أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء – رضى الله عنه – نفسه صـ ٤٠٢ .
([٤]) رواه الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص نفسه صـ ٤٠٣ .
([٥]) سورة يونس الآية ٣٦ .
([٦]) سورة النجم الآية ٢٨ .
([٧]) سورة النساء الآية ١٥٦ .

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم البرهانى أن قيد بـه الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهى عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال سبحانه : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مـا لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) (1) .

وقال تعالى فى بر الوالدين الكافرين : (ووصـينا الإنسـان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علـم فـلا تطعهما) (2) .

ومعلوم من الدين بالضرورة أن الشرك بالله لا يكون بعلم ولا ببرهان لأنه ضرورى البطلان .

وقال تعالى فى تعظيم شأن الحكمة المطلق :

(يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كـثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) (3) .

---

(1) سورة الأعراف الآية ٣٢ .
(2) سورة العنكبوت الآية ٨ .
(3) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

وقال تعالى فى بيان مراده من بعثة خاتم النبيين : (هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)([٤]).

وقال تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم – ممتناً عليه : (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلمه وكان فضل الله عليك عظيماً) ([٥]).

كما قال تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم – : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ([٦]) .

وقال فى خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهى عن كبار الرذائل مع بيان عللها وما لها من العواقب :

(ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) ([٧]) .

وقال لنسائه – رضى الله تعالى عنهن – : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) ([٨]) .

([٤]) سورة الجمعة الآية ٢ .
([٥]) سورة النساء الآية ١١٢ .
([٦]) سورة النحل الآية ١٢٥ .
([٧]) سورة الإسراء الآية ٣٩ .
([٨]) سورة الأحزاب الآية ٣٤ .

وقد آتى الله تعالى جميع أنبيائه ورسله الحكمة ولكـن أضاعها أقوامهم من بعدهم بالتقليد والرياسة الدينية قال تعالى في اليهود : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً) ([1]) .

فالكتاب أعلى ما يؤتيه تعالى لعباده من نعمة ويليه الحكمـة ويليها الملك .

وقال تعالى فى نبيه داود – عليه السـلام – : (وآتـاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) ([2]) .

وقال تعالى لنبيه عيسى – عليه السلام – : (وإذ علمتـك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) ([3]) .

وقال تعالى فى شأن لقمان : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) ([4]).

وذكر من حكمته وصاياه لإبنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة بمضارها .

([1]) سورة النساء الآية ٥٤ .
([2]) سورة البقرة الآية ٢٥١ .
([3]) سورة الأنعام الآية ١١٣.
([4]) سورة لقمان الآية ١٢ .

والحكمة أخص من العلم هى العلم بالشئ على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل .

ويوصف بأنه دين الحجة والبرهان :

قال تعالى (**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً**) (٥) .

وقال تعالى (**ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون**) (٦)

قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك أنه تعالى يبعث الأمم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال تعالى : (**ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون**) (٧) .

---

(٥) سورة النساء الآية ٧٣ .
(٦) سورة المؤمنون الآية ١١٧ .
(٧) سورة القصص الآية ٧٥ .

وأقام القرآن الكريم البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السماوات والأرض قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ([١]) .

ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما أتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال سبحانه (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي) ([٢]) .

وقال تعالى (أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ([٣]) .

وقال تعالى فى سياق محاجة إبراهيم - عليه السلام- لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان شركهم :

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) ([٤]).

([١]) سورة الأنبياء الآية ٢٢.
([٢]) سورة القصص الآية ٢٤ .
([٣]) سورة النمل الآية ٦٤ .
([٤]) سورة الأنعام الآية ٨١ .

ثم قال فى آخره : **(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم علـــى قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم)** (٥) .

فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلـــى فـــى العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم وتقدم فى الكـــلام على العلم آية رفع الدرجات فيه .

ومما جاء فيه البرهان بلفظ (**السلطان**) قوله تعالى :

(الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عنـــد الله وعند الذين آمنوا) (٦) .

وقال تعالى **(إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه)** (٧) .

---

(٥) سورة الأنعام الآية ٨٣ .
(٦) سورة غافر الآية ٣٥ .
(٧) سورة غافر الآية ٥٦ .

الدين الإلهى يلتقى مع الإنسان فى قواه المختلفة (الإرادة - العقل - الوجدان) ويتعامل معها جميعاً :

المعرفة الإلهية فى الإسلام تصدر من الله وهى إذ تصدر من الله تعالى تتوجه إلى الإنسان فتلقى المعرفة الإلهية له طرفان:

- طرف من المصدر وهو الله عز وجل .
- وطرف من المورد وهو الإنسان .

ومن هنا فإن مصدر المعرفة فى الإسلام يخاطب الإنسان نفسه من حيث هو كذلك .

- فلا يخاطب طبقة معينة من البشر يرتفع بها المستوى أو ينخفض فيقع فى التناقض مع المستويات الأخرى .
- ولا يخاطب فى الإنسان قوة من قواه (الإرادة أو العقل أو الوجدان) دون الأخرى فيقع فى التناقض مع القوى التى يهملها .

وإنما هو يتوجه إلى الإنسان ، يقول تعالى : (فـأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)[1].

معنى هذا أن الدين فطرة الله وهو يتطابق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا أنه نفس الفطرة الموجودة فـى الناس فالدين شئ والناس شئ آخر .

إنما المقصود :

- أن الدين فطرة الله .
- وأن الإنسان فطرة الله .

فكان لابد من التلاقى أو التلقى بين الدين وبين الناس (لا تبديل لخلق الله) ([2]).

" وقد قيل : أن الله عز وجل أسس دينه علـى مثـال خلقـه ليستدل بخلقه على دينه وبدينه على خلقه " ([3]) .

([1]) سورة الروم الآية ٣٠ .
([2]) د / يحى هاشم : مداخل إلى العقيدة الإسلامية صـ٢٣ ـ٢٤ .
([3]) الشهر ستانى : الملل والنحل جـ ١ صـ ٣٩ .

وهذا يعنى أن الإسلام يلتقى مع الإنسان فـــى قـــواه المختلفة ويتعامل معها جميعاً العقل والوجدان والإرادة جميعاً ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ويؤثر بعضها فى بعض والإعتقاد وهو حالة نفسية مرتبط بالصفات النفسية كلها يتأثر بها ويؤثر فيها ([1]).

يقول الدكتور محمود حب الله : " فالعقائد الدينية لا تعتمد فى جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للإنسان – الوجدانية – والإرادية – والعقلية – ولكنها تتصل بها كلها إتصالاً وثيقـاً ولا ترضى نفس المرء ولا تكتمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته ونواحيه النفسية كلها وعملت معها على تقبل كـل عقيدة من عقائده فلا يوجد شئ من التضـــارب بـــين قـــواه المتعددة حول عقيدة من عقائده بل إنسجام ووئام فيوجد قبول عقلى وإطمئنان قلبى وإلتقاء مع الإرادة وذلـــك هـــو كمـــال الشخصية وهو كمال الإعتقاد وهو كمال العقيدة كذلك " ([2]).

([1]) د / يحى هاشم : مداخل إلى العقيدة الإسلامية صـ ٢٤ .
([2]) الحيـاة الوجدانيـة والعقيـدة الدينيـة صــ ٢٦٨ – ٢٦٩ نقـلاً عـن المصدر السابق صـ٢٤.

ثم يقول : " ومادامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقـل والوجدان والإرادة إحتاجت فى وسائل نشرها إلى الإعتمـاد على كل هذء القوى " ([3]).

فالمنهج الشرعى إذ يطالب قوى الإنسان جميعاً بتسـليم قيادها لمصدر المعرفة :

- لله سبحانه وتعالى .
- يتعامل معها جميعاً .
- ويؤثر فيها جميعاً .
- ولا يتناقض مع واحد منها .

وهذا الموقف الإسلامى من قوى النفس الثلاث راجع إلى كون الإسلام صادر عن الله سبحانه من ناحية موجهـاً إلـى الإنسان من ناحية أخرى .

فصدور هذا الدين من الله تعالى إلى الإنسان يعنـى أنـه صادر ممن يعرف طبيعة الإنسان وقواه الأساسية التى يتألف منها وأبعاد هذه القوى وأغوارها ومداها : أى وسعها

([3]) نفس المصدر صـ ٢٧٤ نقلاً عن المصدر السابق صـ ٢٥ .

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (١).

(لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) (٢).

فكان من ثم أن يلتقى مع الإنسان فى جميع قواه .

ومن هنا يصبح التسليم الذى يعنيه الإسلام ليس هـو التسليم لقوة فى النفس عقلية أو غيرها وإنما هو تسليم قـوى النفس الثلاث - الإرادة والعقل والوجدان - للقوة الأعلـى أو للمرجع الأعلى وهذا هو معنى قوله تعالى :

(قل أى شئ أكبر شهادة ؟) (٣).

لم يقل : شهادة العقل أو القلب .

وإنما : **(قل الله شهيد بينى وبينكم) (٤).**

وهذه الآية إذن تتحدث عن الله تعـالى لا باعتبـاره خالقاً وأصلاً للموجود فحسب ولكنها تتحدث عنـه كأصـل للمعرفة الإنسانية .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .
(٢) سورة الطلاق الآية ٧ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٩ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١٩ .

(إن إلى ربك الرجعى) (٥).

فلتستلم القوى النفسية جميعاً لخالقها (٦).

الإسلام يوصف بأنه دين الفطرة والوضوح :

إن الإسلام يتميز بأنه دين الفطرة والوضوح :

- **الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ولم يعتورها إلتواء أو إنحراف كما هو حال أصحاب الأديان الفاسدة .**

فقد كان دين الله الذى بعث به جميع رسله لجميع الأمم مصلحاً لما أفسدته الوثنية من فطرتهم بجهلهم ثم بتقليدهم بعضهم لبعض على أنهم كانوا إذا طال الأمد على بعثة الرسل يضلون عن هدايتهم إلى أن تم الله الدين وأكمله للبشر.

- والوضوح الذى يجعل كل ما جاء به الإسلام من عقائد وعبادات معقول واضح ولا عسر فى فهمه وقد عرفنا من قبل أن الإسلام يخاطب فى الإنسان قواه المختلفة :

---

(٥) سورة العلق الآية ٨ .

(٦) د / يحيى هاشم صـ ٣٠ ـ ٣١ .

العقل والوجدان والإرادة ويتعامل معها جميعاً .

وحسبنا فى بيان هذا أن نشير إلى أن الإسلام فى ناحية العقيدة لا يأمر إلا بعبادة إله واحد لا شريك له (**قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**) ([1]).

فلم يقل بإلهين اثنين متشاكسين كما قالت " الثنوية " حين زعم دعاتها أن الحياة صراع دائم بين إله الخير وإله الشر .

وليس فيه شئ من أسرار المسيحية مثل سر التثليث وسر القربان وتحوله إلى لحم المسيح ودمه هذه الأسرار التى لا يصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم أن يدركها إدراكاً عقلياً صحيحاً ولهذا يطلبون من أتباعهم الإيمان بها دون محاولة فهمها .

وفكرة " الوساطة " فى المسيحية بين الله وعباده فكرة لا يستسيغها العقل ولا يرى لها ضرورة ولا يعرف لها غاية فإنه لا معنى لتوسط رجل من رجال الدين بين الله وبين أحد

([1]) سورة الإخلاص .

من الناس والله تعالى هو العليم بكل نفس ولا حجاب بينه وبين أحد من خلقه .

ولهذا يرى الإسلام أن لكل أحد أن يتجه لله مباشرة ويرفع إليه رجاءه بلا وسيط من رجال الدين وفى هذا جاء قول الله تعالى : **(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان)** ([٢]).

وكذلك فكرة أن الإنسان ولد وجاء إلى هذه الحياة مثقلاً بالخطيئة الأصلية التى لا يستطيع منها فكاكاً وتقول بها المسيحية وهم يعنون بها أن الإنسان يولد وعليه وزر وخطيئة آدم – عليه السلام – جده الأعلى حين نسى وأكل من الشجرة التى حرم الله عليه قربانها .

وبذلك يحملونه وزراً لم يجنه ويجعلونه يعيش طول حياته وهو رازح تحت أثقال الخطيئة المزعومة ومن ثم يطلبون من الإنسان أن يؤمن بالعقيدة " الصلب والفداء " أى

([٢]) سورة البقرة الآية ١٨٦.

صلب "المسيح - الإله " تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية .

وكيف يستطيع عقل أن يؤمن بأن " الإله " كما زعموا يتمكن منه أعداؤه فيصلبونه وهو يستغيث ولا مغيث له .

على حين يقول القرآن الكريم كتاب الإسلام عن سيدنا آدم – عليه السلام – : (**وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**) (١) (٢) .

كما يقرر القرآن الكريم أن الإنسان مسئول عن أعماله أمام الله : (**ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**) (٣).

كما يقرر القرآن الكريم من ناحية أخرى أن الإنسان يولد بريئاً من كل ذنب أو خطيئة :

---

(١) سورة طه الآية ١٢١ – ١٢٢ .
(٢) الإسلام وحاجت الإنسانية إليه صـ ٤١ – ٤٣ .
(٣) سورة النجم الآية ٢٨ – ٢٩ .

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شر يره)[٤].

وأن الله تعالى هو القوى العزيز فلا يمكن أن ينال أحد منه : **(وهو القاهر فوق عباده)** [٥] .

وأخيراً أنه ليس بين المرء وبين أن يكون مسلماً إلا أن يعتقد بإله واحد لا شريك له من أحد من خلقه ويؤمن برسله جميعاً لا يفرق بين أحد منهم وبما جاء به خاتم الأنبياء ولا شئ أبسط ولا أوضح من هذا كما لا شئ يحول بين العقل العادى وبين الإيمان بهذه العقيدة .

إنه بفضل أن الإسلام هو دين الفطرة السليمة وأن كل ما جاء به من عقائد وعبادات معقول وواضح ولا عسر فى فهمه لم يتعرض هذا الدين الحنيف لهزة من الهزات الكثيرة العنيفة التى تعرض لها الدين المسيحى بسبب ما فيه من عقائد وأسرار يعز على العقل إدراكها .

---

(٤) سورة الزلزلة الآية ٧ – ٨ .
(٥) سورة الأنعام الآية ٦١.

وكان بفضل تلك الخاصية أيضاً أنـــه - كمـــا يـــذكر " كتانى " المؤرخ الإيطالى المعروف - لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المســـيحية التى اختلطت بالغش والزيف وتمزقـــت بفعـــل الإنقســـامات الداخلية ونزعت عقائدها الأساسية واستولى علـــى رجالهـــا الريب والشكوك لما صار الأمر هكذا لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى بدر بضربة من ضرباته كل الشكوك وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئـــه الواضـــحة البسيطة التى لا تقبل الجدل وحينئذ تـــرك الشـــرق المســـيح وارتمى فى أحضان النبى العربى (١) .

ونقول بعد هذا بأن ذلك كان فى أول الزمان بفضـــل تلك الخاصية التى يتميز بها الإسلام وسيبقى الأمر كذلك إلى آخر أيام هذه الحياة الدنيا وسيجد الناس دائما وأبداً وفى كـــل مكان من أرض الله أن الإسلام هو الدين الوحيد الخالد الذى

---

(١) حواليات الإسلام جـ ٢ صـ ١٠٤٦ نقلاً عن الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٤٥.

يجتذب إليه الناس بفضل ما فيه من وضوح بجانب خصائصه الأخرى .

الإسلام يقرر الوحدة الدينية بين المؤمنين جميعاً بهذا الدين فى أخوته الإيمانية والروحية وعبادته :

أكد القرآن الكريم فى العديد من آياته على أن المسلمين أمة واحدة أبناؤها أخوة قال تعالى :

(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (٢).

(وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) (٣).

إن الأمة التى ننتسب إليها هى أمة المرسلين جميعاً من لدن آدم حتى سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فالرسل وأتباعهم على مدار التاريخ البشرى يشكلون أمة واحدة هذه الأمة الواحدة هى الأمة الإسلامية وهى التى ينتسب إليها المسلم .

---

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .

هذه الأمة التى تدين لله بالإسلام على مدار التــاريخ مرت بمرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة ما قبل بعثة سيدنا محمد – صــلى الله عليه وسلم – .

المرحلة الثانية : المرحلة التى تبدأ ببعثة ســيدنا محمــد – صلى الله عليه وسلم – .

فقبل البعثة كانت الرسالة الإســلامية تظهــر بشــكل قومى أى أن رسل الله كانوا يرسلون إلى أقــوامهم خاصــة فكان الرسول ينادى قومه فقط كما قص الله تعــالى قصــتهم علينا فى القرآن الكريم من نوح إلى هود إلى شــعيب إلــى صالح ... كلهم كان نداؤهم يا قوم : – كما سيأتى –.

أما ببعثته – صلى الله عليه وسلم – فقد إنتقلت الدعوة الإسلامية من الإطارالقومى إلى الإطار الإنســانى فأصــبح النداء **(يا أيها الناس)** **(يا أيها الإنسان)** وأصبحت الإنســانية كلها ملزمة بإتباع رسول واحد هو سيدنا محمد - صــلى الله عليه وسلم - فلا يكون رسول بعده ولا يقبل اتباع رسول قبله

وبهذا أصبحت شعوب البشر كلهـا علـى إخـتلاف أجناسها وألوانها وألسنتها من أبيض لأصفر لأحمر لأسـود أمة لرسول واحد يفترض عليها أن تتبعه وتقتضى به وتسلم لله بشريعته ودينه فإن إستجابت هذه الشعوب كلها كانت أمة واحدة وإن لم تستجب هذه الشعوب كلها فمن إستجاب منهـا أو من أفرادها هم الذين يشكلون الأمة الإسلامية فكل مسـلم فرد وعضو من أعضاء الأمة الإسلامية وما لم يقـرر هـذا الإقرار ويشعر بهذا الشعور فليس مسلماً ..([1]) .

ومظاهر وحدة الأمـة الإسـلامية مظـاهر كثيـرة ومتشابكة لا مثيل لها أبداً:

و يرتبط المسلمون بهذه المعانى إرتباطاً يشكل وحدة تقوم على عوامل كل منها يؤكد الآخر حتى يصل الأمر إلى حد الإنصهار الكامل ولسنا هنا بصدد الحديث عن مظـاهر هذه الوحدة وإنما نجتزئ منها بعض الرموز الداعية للوحدة بين أبناء الأمة الواحدة فمن ذلك : أنها أمة ربها واحد : وهو

([1]) أ / سعيد حوى / الإسلام صـ ١٠٧ ـ ١٠٨ .

الله رب العالمين ونبيها واحد هو خاتم الأنبيـاء والمرسـلين وكتابها واحد : هو القرآن الكريم وشريعتها واحـدة : هـى شريعة الإسلام الخالدة وقبلتها واحدة : وهى الكعبة المشرفة، تصلى صلاة واحدة وتصوم فى شهر واحد وتحج فى وقـت واحد إنها أمة ذات سلوك وعادات وأخـلاق واحـدة وذات مشاعر وتصورات وأفكار وطريق واحد وتاريخهـا واحـد وهو تاريخ جميع الرسل وكل الرسالات . ووطنها واحد وهو دار الإسلام على إتساعها .

فأى دين وأى عادات وأى قوم لهم هذه الدعائم مـن الوحدة حتى أنه لا يجوز فـى تعبيرنـا أن نقـول (الأمـم الإسلامية) بل (الأمة الإسلامية) فهى أمة واحدة كما أمر الله وليست أمماً متفرقة متنافرة متناحرة كما أراد الأعداء.

ومن هنا فالمسلمون أمة واحدة أبناؤها أخوة كما قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) ([١]).

(فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) ([٢]).

([١]) سورة الحجرات الآية ١٠ .

ويقول سبحانه فى أحكام المشركين المحاربين :

(فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين)([٣]).

وإذا كان الإسلام قرر الوحدة الدينية بين المؤمنين جميعاً على هذا النحو :

فإنه قرر أيضاً الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم قال تعالى :

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ([٤]).

وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف وإلى ترك التعادى بالتخالف والوحدة التى قررها الإسلام فى هذه الناحية بلغت من الروعة والجلال حد الإعجاب وصارت لهذا مضرب المثل تتحدى التاريخ كله والأمم جميعاً :

([٢]) سورة الأحزاب الآية ٥ .

([٣]) سورة التوبة الآية ١١ .

([٤]) سورة الحجرات الآية ١٣ .

ففى الهند مثلاً وهى موطن ديانة من أقدم الديانات العالمية نرى الديانة البرهمية نفسها هى التى تفرق بين متبعيها إذ تقسم الأمة إلى طوائف أربع وتجعل البراهمة أو الكهنة فى القمة والسفلة أو الأنجاس فى الحضيض .

ويكفى لتدرك ظلم هذا النظام الطبقى الصارخ وقسوته البالغة أن تعرف أنه جاء فى قانون " ماتو " أحد مشرعى هذه الديانة أن البرهمى يجب إحترامه وإجلاله بسبب نسبه وحده وأن أحكامه هى وحدها الحجة وأن له حين الحاجة أن يمتلك مال الواحد من السفلة لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

وكان محرماً حسب هذه الديانة على هذه الطبقة المنكودة أن يتصل أحدهم بشئ من الدين أو العلم به وإلا حل به عذاب غليظ مثل صب الرصاص المصهور فى أذنيه وشق لسانه وتقطيع جسمه .

وإذا كانت الديانة البراهمية قد فرقت هكذا بين متبعيها فأقامت المجتمع على نظام طبقى مقيت فإن اليهود

والنصارى قد حجروا من رحمة الله الواسعة حين زعموا أنهم وحدهم (أبناء الله وأحباؤه) [١]. وحين قالوا : (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) [٢].

وحين فرق اليهود فى تشريعاتهم بين من هو منهم وبين الأجانب عنهم ومن هذا تحريمهم الربا بشدة بين بنى إسرائيل وجعله تجارتهم الحلال الرابحة بالنسبة لغير الإسرائيليين مع استحلالهم خيانتهم أيضاً وذلك بأنهم قالوا : (ليس علينا فى الأميين سبيل) [٣] وهم يعلمون أنهم كذبة مفترون على الله .

ومن هذا أيضاً إباحتهم إسترقاق من سواهم من عباد الله على حين أنه ليس لإسرائيلى أن يستعبد أحداً من بنى جلدته بحال ما بل إن عليه أن يحسن عشرته ويساعده على الحياة وهذا معروف من تاريخهم وحاضرهم [٤].

---

(١) سورة المائدة الآية ١٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ١١١.
(٣) سورة آل عمران الآية ٧٥ .
(٤) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٣٢ ـ ٣٤ بتصرف ضعيف .

وتجاه هذه النزعات الأصلية الطاغية عند هؤلاء وأولئك المفرقة للأمة الواحدة من جانب والناس جميعاً من جانب آخر .

نرى الإسلام يقرر فى صراحة لا لبس فيها وفى قوة لا هوادة معها " وحدة " الناس جميعاً من الناحية الإجتماعية التى تقتضى المساواة فى الحقوق والواجبات لا فرق بين جنس وجنس آخر ولا بين فرد وفرد آخر .

لقد محا الإسلام من أول الأمر النعرة الجاهلية وحرم التفاخر بالأحساب والأنساب إذ أبان أن أصل الناس جميعاً واحد **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)** (١).

وفى الحديث : **(كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى)**.

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩ .

وإذن فلا تفاضل بالأجناس أو الأنساب أو الغنى أو الجاه أو غير هذا وذاك مما تعارفه الناس مقياساً للقيم وأساساً للتفاضل.

ومن أجل ذلك ليس هناك طبقات فى الإسلام سببها الجنس أو الجاه مثلاً وليس فيه تشريعات للعرب وأخرى لغير العرب كما كان الأمر عند اليونان والرومان بل المسلمون جميعاً وحدة واحدة من هذه الناحية تحكمهم شريعة واحدة لا فرق بين الحاكم والمحكوم ولا بين الشريف وغير الشريف أو الغنى والفقير .

بل إنه لا فرق فى هذا كله بين المسلمين وبين غيرهم من المقيمين بدار الإسلام وتحت لوائه وفى هذا يقرر الإسلام أن لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات وإن كان لهم - إن أرادوا - أن يتحاكموا إلى شرائعهم فى مسائل الأحوال الشخصية فقد أمرنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بتركهم وما يدينون به .

وكذلك نجد الإسلام يسوى بين هؤلاء وبين المسلمين فى وجوب أن تعين الدولة من يحتاج منهم إلى العون لعجزه عن العمل أو لأنه لا يجد إلى العمل سبيل وقد كان من عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه أمر - فى كتاب عام له - أن يعطى المحتاج منهم ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام([1]).

لأن الإسلام لا يرى أن مجرد المخالفة فى الدين تبيح العداوة والبغضاء وتمنع المسالمة والتعاون على شئون الحياة العامة فضلاً عن أن تبيح القتال لأجل تلك المخالفة قال تعالى:

(قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين) ([2]).

([1]) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٣٤ ـ ٣٦ .

([2]) سورة الكافرون .

(فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواهم وقل آمنت بما أنزل الله وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بينا وبينكم الله يجمع بينا وإليه المصير) (٣).

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) (٤).

ولقد وصى الله تعالى الإنسان بوالديه حسناً وأن يعاشرهما بالمعروف ولو كانا مشركين وجاهداه على أن يشرك بالله مثلهما قال تعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلىّ المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا

---

(٣) سورة الشورى الآية ١٥ .
(٤) سورة الممتحنة الآية ٧ ـ ٨ .

معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبكم بما كنــتم تعملون) [1] .

وقد إستمر أبو طالب عم النبى – صــلى الله عليــه وسلم– على شركه إلى أن مات ومع ذلك كان طول حياتــه سفير صلح بينه وبين خصومه وكان قوة تحميه من أذاهم .

يقول فضيلة الشيخ محمد عبده : " رفع الإسلام كل إمتيــاز بين الأجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة وشرف إندراجها فى النــوع الإنســانى بــالجنس والفصل والخاصة وشرف إستعدادها بــذلك لبلــوغ أعلــى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمــه المنتحلون من الإختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباح [2].

---

(١) سورة لقمان الآية ١٤ ـ ١٥ .

(٢) رسالة التوحيد صـ ١٣٥ .

وهكذا جاء الإسلام بمقاييس جديدة للكرامة والفضل والأخلاق النبيلة بين البشر جميعاً وحسبنا قول الله - عز وجل - (ولقد كرمنا بنى آدم) ([٣]).

على حين نجد اليهود والنصارى - كما مر - يقولون: (نحن أبناء الله وأحباؤه) ([٤]) ويجعلون رحمة الله ورضوانه مقصورين عليهم إذ يقولون (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) ([٥]).

وعلى حين كان الرومان يزعمون أنه من الطبيعى أن يكونوا حكام العالم ، وغيرهم ليسوا إلا برابرة وخدماً لهم .

وأن العرب كانوا يرون أنهم وحدهم أهل الفصاحة والبلاغة واللسن ومن سواهم ليسوا إلا عجماً .

وأن البراهمة كانوا يعتقدون أن الله خلقهم من أشرف جزء فيه وخلق المنبوذين من أدنى أجزائه وشتان بين الرأس

([٣]) سورة الإسراء الآية ٧٠.

([٤]) سورة المائدة الآية ١٨ .

([٥]) سورة البقرة الآية ١١١ .

والقدم كما كان الأمر بصفة عامة قبل أن يشـــرق الإســـلام بنوره على العالم والإنسانية جميعاً أن التفاضل والإمتياز إنما هو بالجنس أو الدين وبالنسب أو المال وكثرة الأبناء ([1]) .

فصلاةً وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين (ومـــا أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ([2]) الذى قرر للإنسان كل حقوقـــه وأعلن ذلك فى صراحة ووضوح وقوة للناس جميعاً وكـــان هذا عن الله تعالى الذى أرسله لتحرير الإنسان من عبوديـــة الإنسان وفساد الأديان برسالة قدر لها أن تكون عامة وخالدة على مر الأزمان وأن ترسل النور والهدى فى كل مكان .

الإسلام وصف بأنه دين لا إكراه فيه :

فالدين الإلهى (الإسلام) يقرر حرية العقيدة ومنع الإكـــراه والإضطهاد ورياسة السيطرة للدخول فى الدين :

([1]) د / محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٦٣ - ٦٤ .

([2]) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

هذه المزية من مزايا (الإسلام) لقد أبطــل القــرآن الكريم ما كان عليه النصارى وغيرهم من الإكراه فى الدين والإجبار عليه والفتنة والإضطهاد لمخالفيهم فيه .

لكن الإسلام حين يطلب من الناس أن يؤمنوا بأصول شرع الله لا يحملهم عليه إكراهاً لأن طبيعة الدين الإســلامى تأبى الإكراه ولا يتحقق إيمان بإكراه قال تعالى : **(لا إكــراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) (٣) .**

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٤).

(ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعــل الرجس على الذين لا يعقلون قل أنظــروا مــاذا فى الســماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (٥).

---

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .
(٤) سورة الكهف الآية ٢٩ .
(٥) سورة يونس الآية ٩٩ _ ١٠١ .

علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سنته في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض فما كان يتمناه – صلى الله عليه وسلم – من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في إختلاف إستعداد الناس للإيمان وهو منوط بإستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر ([1]).

كما بين القرآن الكريم أن الله تعالى لا يحمل المخالفين على هذا الدين عن طريق الخوارق الحسية التي يدهش بها عقولهم ويلقي بهم في خطيرة الإعتقاد دون نظر وإختيار فقال تعالى :

(إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين)([2]).

([1]) الوحي المحمدي صـ ٢٧٤ .

([2]) سورة الشعراء الآية ٤ .

فالإسلام لا يحمل المخالفين على الدين بـــالإكراه ولا يحملهم عليه بالخوارق وإنما يحملهم عليه عن طريق الحجة والبرهان وكانت حجته التى لفت الأنظار إليها فيمـــا يتعلـــق بعقيدة الإله وجوداً ووحدانية وكمالاً دائرة بين النظر العقلـــى وبين ما يجده الإنسان فى نفســـه مـــن الشـــعور البـــاطنى والإحساس الداخلى .

وحسبنا قول الله تعالى لرسوله - صـــلى الله عليـــه وسلم- :

(فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تـــولى وكفـــر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) ([٣]).

على أن هذا الذى تقرر ليس شأناً خالصـــاً بالرســـالة الخاتمة فحسب ولكنه شأن عام فـــى الرســـالات الســـماوية جميعها طالماً أن الهدف هو تكوين عقيدة صحيحة فى القلوب تكون دافعة لصاحبها إلى العمل الصالح والســـلوك الحميـــد والأخلاق الفاضلة يقول سبحانه :

([٣]) سورة الغاشية الآية ٢١- ٢٦ .

(رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) (١).

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) (٢).

فهذه الآيات وما فى مثل معناها تقرر بوضوح أن مهمة الرسل - عليهم السلام - إنما تنحصر فى مجرد الإبلاغ وبطريق الإقناع والحجة والبرهان القطعى وليس بطريق القوة والإلزام أو بطريق الخوارق الحسية التى تسوق الناس إلى الإيمان دون نظر وإختيار والآيات القرآنية فى هذا الصدد أكثر من أن نحصيها وكلها دالة دلالة قاطعة على أن طبيعة الدين الإسلامى تأبى القهر والإلزام وترفض الإجبار والإكراه كأسلوب للدخول فى الإسلام والإنقياد لما جاء به .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٤٨ .

كما أن فى القرآن الكريم العديد من الآيات التى تؤكد على تقوية العقيدة وتمكينها من القلب عـن طريـق التأمـل والنظر فى خلق الله .

وكان من أثر حرية العقيدة ومنع الإكـراه كأسـلوب للدخول فى دين الله كان من أثر هذا ما نعرف من إحتـرام عقائد أهل الكتاب والتوصية برعايتهم والعدل معهـم والبـر إليهم وضمان حرية القيام بعبـاداتهم وشـعائرهم إن كـانوا يقيمون معنا فى بلد من بلاد الإسلام (٣).

الحرية بالمعنى الشامل :

ونعلم بجانب ما تقدم أن الحرية تشمل فيمـا تشـمل أيضـاً تحرير العقل من الضـلالات والتقاليـد الباطلـة وتحريـر الضعيف من سلطان القوى وجبروته وتحرير الفكر والإرادة والعمل مادام هذا لا يضر بالغير ولا بالصالح العام تلك هى المعانى الجديرة بالذكر لكلمة " حرية ".

---

(٣) انظر الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٦٤ .

والإسلام قد جاء بتقرير هذه الحرية فى كافة ضروبها وألوانها :

▪ إنه حرر الإنسان من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تحس ولا تملك لأحد نفعاً ولا ضــراً وممــا كــان عليــه الآبــاء والأسلاف من ضلالات وتقاليد ليست من الحق فى شئ ولا تتفق والتفكير الحق للعقل السليم .

وفى هذا نراه ينعى بقوة على الذين كانوا يقولــون إذا دعوا إلى الإيمان الصحيح (هذا ما وجــدنا عليــه آباءنــا) ويقيدون بذلك أنفسهم وعقولهم بما كان عليه هــؤلاء الآبــاء والأسلاف من العقيدة الباطلة والتفكير الضال غــافلين عمــا ينبغى أن يكون لهم من حرية الفكر والإعتقاد وفــى إتبــاع الحق متى هدوا إليه (١).

وبعد هذا نجد الإسلام يلفتنا بقوة إلى أنه لــيس مــن العقل أن يتخذ بعضنا بعضاً أرباب من دون الله وفــى ذلــك يأمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يقــول

---

(١) نفسه صـ ٤٦ ـ ٤٧ .

للكتابيين الذين صموا آذانهم عن دعوته : **(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون)** (٢).

وفى هؤلاء الكتابيين : اليهود والنصارى يذكر الله عنهم أنهم: **(أتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)** (٣).

- وبعد ذلك نرى الإسلام يحرر الضعيف من القوى وسلطانه:

فقد كان العرب وغيرهم من الأمم السابقة يحرمون من الميراث الضعيفين : المرأة والأولاد الذكور الصغار كما كانوا لا يورثون الزوجة بل يعتبرونها نفسها من جملة ما ترك الزوج من الميراث .

---

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٣١ .

ويعلل العرب ذلك بأن الميـــراث لا يكـــون إلا لمـــن " يطيق القتال ويحوز الغنيمة " ولهذا عجبوا أشـــد العجـــب عندما جعل القرآن الكريم لكل من هذه الأصناف : الزوجـــة والبنت والصغار من البنين نصيباً مفروضاً فى الميراث (1) ولكن الإسلام عنى هكذا بإبطال ما كان عليه العرب فى هذه الناحية وبذلك حرر هؤلاء الضعفاء بفطرتهم أو بسبب سنهم من عسف الأقوياء .

وإذا تركنا ناحية الميراث نجد القوى بصفة عامة يعتز بقوته وأسبابها على تنوعها ويندفع بحكم طبيعته إلى الإعتداء على الضعيف بغير حق حتى أنه يستذله ويستعبده ونجد هذا فى قديم الزمان وحديثه وفى الأفراد والجماعات والأمم على السواء .

فجاء الإسلام عاملاً قوياً لتحرير الضعفاء من سلطان الأقوياء وعسفهم وجبروتهم ونجد هذا واضحاً تماماً فى كثير

---

(1) وراجع الآيات ١١ ـ ١٢ من سورة النساء .

من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول وفي سيرته - صلى الله عليه وسلم - ومعاملته لأصحابه .

وهاهو ذا خليفته الأول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يقول في أول خطبة له :

" أما بعد : فإني وليت أمركم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلمنا فعلمنا واعلموا أن أكيس الكيس التقى وأن أحمق الحمق الفجور وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني"([٢]).

وبجانب هذا نذكر كلمة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول فيها لعبد الله بن قيس :

" سو بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع

([٢]) الباقلاني : إعجاز القرآن صـ ١٣٧ تحقيق السيد أحمد صقر جـ ١ دار المعارف .

شريف في حيفك أي في ميلك معه لشــرفه - ولا ييــأس ضعيف من عدلك .. " ([1]) .

ويقول لعمرو بن العاص والى مصر حــين ضــرب إبنه رجلاً قبطياً مستضعفاً فــذهب شــاكياً للخليفــة فــأمر بإستحضار المتعدى وأقتص منه للمصرى الضعيف وقــال : **" متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** ([2]) .

هذه الكلمة التى ستبقى مجلجلة أبد الدهر فلقد سارت هذه القولة مثلاً سائراً حتى اليوم وإلى الأبد فى المساواة بين الناس جميعاً بلا فرق بين قويهم وضعيفهم .

ولنا من هذا أن نقــرر أن الإنســانية مدينــة بمبــدأ " الحرية والمساواة " للإسلام لا للثورة الفرنسية كما يــزعم الجاهلون بالإسلام وتاريخه أو المغرضون المتحاملون على الدين الذى رضيه رب العالمين للناس جميعاً ([3]) .

([1]) نفسه صـ ١٤٠ .
([2]) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٤٩ .
([3]) نفسه صـ ٤٩

ولم يكن هذا الصنيع فلتة من سيدنا عمر - رضى الله عنه - لا ثان له بل أن مبدأ الحرية والمساواة بين الناس والإقتصاص من القوى للضعيف كان من المبادئ التى قام عليها حكمه ولا عجب فإن هذا ما يأمر به القرآن الكريم وما سار عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء من بعده..

▪ وبعد هذا نجد الإسلام ينعى بشدة على من يتبع هواه فيما يميل به إليه ويجعل شهواته تسيطر على عقله وهو أكرم عنصر فيه ويحذر من سوء عاقبة من كان هذا شأنه ، هذا المصير الذى قد يؤدى به إلى الضلال وعذاب السعير يقول الله تعالى :

(أفرأيت من إتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) (٤) .

---

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

إن من الحرية الحقة ألا يستعبد الإنسان هواه وغرائزه وشهواته وألا ينزل فيما يأتى ويذر إلا على حكم عقله الرشيد وهذا مما دعا إليه الإسلام وأكد عليه فى القرآن الكريم وعلى لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته والتابعين - رضى الله عنهم - أجمعين وفى الحديث (**ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى**) . أى عن هلاك إذا تحرر صاحبه من هواه واتبع دائماً صوت العقل السليم والضمير المستقيم .

ويقول الإمام على - رضى الله عنه - : " أخاف عليكم إثنين: إتباع الهوى وطول الأمل فإن إتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة " (١) .

وهكذا فإن من خصائص الإسلام أنه دين الحرية بكل ما لهذه الكلمة من معان :

---

(١) راجع فى هذا وفى الحديث السابق عليه كتاب أدب الدنيا والدين للإمام أبى الحسن البصرى الماوردى صـ ٤ - ١٢ الطبقة الثانية الأميرية نقلاً عن الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٥١ .

فإذا كان الإسلام قد قرر حرية العقيدة فلا إكــراه أو إجبــار للدخول فى الإسلام .

فإن الحرية تشمل كذلك تحرير العقل من الضــلالات والأوهام والتقاليد الباطلة وتشمل كذلك تحرير الضعيف مــن سلطان القوى وجبروته .

وتشمل كذلك تحرير الإنسان من شهواته وهواه ..

وأخيراً فإن الإنسانية مدينة بمبــدأ الحريــة بمعناهــا الشامل للإسلام وحده حيث عنى الإسلام بها وقدرها قدرها .

الإسلام دين الإنسانية عامة :

قرر القرآن الكريم أن سيدنا محمد - صلى الله عليــه وسلم - خاتم الأنبياء والمرسلين وأن رسالته خاتمة للرسالات الإلهية:

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكــن رســول الله وخــاتم النبيين) [2] .

---

[2] سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

والقرآن الكريم يحدثنا أن فى طبيعة هذه الرسالة ما يجعلها حقاً صالحة للإنسانية فى كل عصر وجيل وزمان . فيقول سبحانه : **(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)** (١)

يقول بن كثير : " .. شرع تعالى فى ذكر القرآن العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال : **(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق)** أى بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله على عبده ورسوله محمد – صلى الله عليه وسلم - فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدق عند حامليها من ذوى البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله وصدقوا رسل الله كما قال تعالى:

(إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) أى إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجئ محمد -

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ .

عليه السلام - لمفعولاً أى لكائناً لا محالة ولا بــد . وقولــه تعالى (**وميهمناً عليه**) . قال بن عباس : أى مؤتمنــاً عليــه وعنه أيضاً : المهيمن : الأمين قال : القرآن آمين على كــل كتاب قبله . وقال إبن جريج : القرآن آمــين علــى الكتــب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منهــا فهــو باطل وعن إبن عباس (**مهيمناً**) أى شهيداً وكذا قال مجاهــد وقتادة والسدى . وقال العوفى عن إبن عباس (**ومهيمناً**) أى حاكماً على ما قبله من الكتب .

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهــيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب، قبله. جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمهــا أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاســن مــا قبلــه وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره فلهــذا جعلــه شــاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه لنفسه الكريمة **فقال تعالى :(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٢) " (٣) .**

---

(٢) سورة الحجرات الآية ٩ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٥٢٣ - ٥٢٤.

وقال تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) [1] .

وقال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) [2] .

يقول إبن كثير :

" قال إبن مسعود: قد بين لنا فى هذا القرآن الكريم كل علم وكل شئ .

وقال مجاهد : كل حلال وكل حرام .

وقول إبن مسعود أعم وأشمل فإن القرآن إشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق وعلم ما سيأتى وكل حلال وحرام وما الناس إليه محتاجون فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم " [3] .

وقال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت علكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) [4] .

---

(1) سورة الأنعام الآية ٣٨ .
(2) سورة النحل الآية ٨٩.
(3) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٣٤٣ .
(4) سورة المائدة الآية ٣ .

يقول ابن كثير : " هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمـــة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيــره ولا إلى نبى غير نبيهم – صلوات الله وسلامه عليــه – ولهـــذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجــن فــلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا ديــن إلا مــا شرعه وكل شئ أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيــه ولا خلف كما قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعــدلاً) أى صدقاً فى الإخبار وعدلاً فى الأوامر والنواهى فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم ورضيت لكم الإسلام ديناً) أى فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذى أحبه الله ورضــيه وبعــث بــه أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه . وقال ابن عباس قوله : (اليوم أكملت لكم دينكم) وهو الإسلام أخبر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمــان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً وقال السدى : نزلت هذه الآية يوم

عرفه ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام وقال إبـن جريـر : مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد يوم عرفه بأحد وثمانين يوماً .

لما نزلت : (اليوم أكملت لكم دينكم) وذلـك يـوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - **(ما يبكيك ؟)** قال : أبكانى أنَّا كنا فى زيادة من ديننا فأمـا إذا إكتمل فإنه لم يكمل شئ إلا نقص فقال : (صـدقت) ..

وقال الإمام أحمد : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤن آية فى كتـابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لأتخذنا ذلك اليوم عيـداً قـال : وأى آية ؟ قال قوله : **(اليوم أكملت لكـم ديـنكم وأتممـت عليكم نعمتى)** فقال عمر : والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلـت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والساعة التى نزلت فيها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : عشية عرفه فى يوم جمعة .. وقال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلـت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذى أنزلت فيه عليهم فأتخذوه

عيداً يجتمعون فيه فقال عمر : أى آية يا كعب ؟ فقال : (اليوم أكملت لكم دينكم) فقال عمر : قد علمت اليوم الذى أنزلت فيه والمكان الذى أنزلت فيه : فى يوم الجمعة ويوم عرفه وكلاهما بحمد الله لنا عيد . وعن على قال : نزلت هذه الآية على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو قائم عشية عرفه .. " [١] .

وعلى ضوء ما تقدم تبين لنا :

أنه لما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء والكتاب الذى أنزل إليه آخر الكتب السماوية .

- فإن الله تعالى قد جعل هذا الكتاب شاهداً وأميناً وحاكماً على كل كتاب قبله فما وافقه منها فهو حق وما خالفه فهو باطل محرف منسوب إلى من حرفه .
- وجعله أعمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع الله تعالى فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره وضمنه كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتى

---

[١] مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٤٨٢ - ٤٨٣ .

وكل حلال وكل حرام وما الناس إليه محتاجون فـــى أمـــر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم فلا حلال إلا ما أحلـــه ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه وكل شئ أخبر بـــه فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف :

(ومن أصدق من الله حديثاً) ([1]) **(ومن أصدق من الله قيلاً)**([2]).

▪ وأن دين الإسلام هو الدين الذى أحبه الله ورضيه وبعث به أكرم رسول وأشرف كتاب لخير أمة أخرجت للنـــاس فهـــو تعالى أكمل لنا الدين فلا يحتاج إلى زيادة أبدا وهو تعالى قد أتمه فلا ينقصه أبداً وهو تعالى قد رضيه فلا يسـخطه أبـــداً وهو تعالى قد حفظه فلا يضيعه أبداً .

▪ ولما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات السماوية وأنها قد جـــاءت شـــاملة وكاملة فى أصولها قابلة للتطبيق المتجدد فى فروعها لما كان ذلك كذلك فقد جاءت إلى جميع الخلائق من المكلفين .

([1]) سورة النساء الآية ٨٧ .
([2]) سورة النساء الآية ١٢٢

والقرآن الكريم بعد أن حدثنا عن طبيعة الرسالة الخاتمة على النحو السالف يحدثنا عن مدى هذه الرسالة ويصرح بهذه الحقيقة فى العديد من الآيات فمن ذلك قوله تعالى :
(قل أى شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىَ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أءنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برئ مما تشركون) ([٣]).
(قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) ([٤]) .
(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ([٥]) .

([٣]) سورة الأنعام الآية ١٩ .
([٤]) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .
([٥]) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ ـ ١٠٧.

(قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) (١) .

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)(٢).

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٣) .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن إبن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
(أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى ولا أقوله فخراً : بعثت للناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً) (٤) .

وفى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه- قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الحج الآية ٤٩ .

(٢) سورة الفرقان الآية ١ .

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٥٧.

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة) (٥) .

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :

(والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار) (٦) .

فهذه النصوص تقرر أن رسالة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هى خاتمة رسالات الله للعالم كله والناس جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(٥) نفسه جـ ٢ صـ ٥٧.
(٦) نفسه جـ ٢ صـ ٥٧ .

إن الله تعالى قد أكمل هذا الدين فما عادت فيه زيـــادة لمستزيد والله تعالى قد أتم نعمته الكبرى على المؤمنين **بهذا** الدين الكامل الشامل الموافق للفطرة البشرية .

والله تعالى قد رضى الإسلام ديناً فلا دين غيره **فمن** لم يرتضيه منهجاً لحياته فإنما يرفض ما ارتضاه الله تعــالى ولا حجة بعد هذا الدين لمحتج ولا عذر لمعتذر .

(ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هــم يستعتبون) (١).

(فإن يصبروا فالنار مثوى لهــم وإن يســتعتبوا فمــا هــم مــن المعتبين)(٢).

لقد كانت الرسل تتوالى كلما فسـدت الأرض لتــرد الناس إلى الصلاح وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلــة بعد مهلة لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقــد شــاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعــة

---

(١) سورة النحل الآية ٨٤ .
(٢) سورة فصلت الآية ٢٤ .

الشاملة الكاملة فقد تحددت الفرصة الأخيرة فإما إيمان فنجاة وإما كفر فهلاك .

وجاء فى الظلال فى معنى قول الله تعالى : (**قل يـا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً**) ([٣]) ما نصه :

" يوجه الخطاب إلى النبى الأمى - صلى الله عليه وسـلم - يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً تصـديقاً لوعـد الله القديم .. إنها الرسالة الأخيرة فهى الرسالة الشاملة التـى لا تختص بقوم ولا أرض ولا جبـل .. إن الرسـالة الأخيـرة جاءت كاملة فى أصولها قابلة للتطبيق المتجدد فى فروعهـا وجاءت للبشرية جميعاً لأنه ليست هنـاك رسـالات بعـدها للأقوام والأجيال فى كل مكان وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التى يلتقى عندها الناس جميعاً ومن ثم حملها النبـى الأمـى الذى لم يدخل على فطرته الصافية - كما خرجت من يد الله- إلا تعليم الله فلم تشب هذه الفطرة شائبة مـن تعلـيم الأرض

([٣]) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .

ومن أفكار الناس ليحمل رسالة الفطرة إلى فطـرة النـاس جميعاً .. " [١] .

والقرآن الكريم يقرر أن رسالات الأنبيـاء والرسـل السابقين كانت بعنوان القومية خاصة فكان كل رسول يرسل إلى قومه وحدهم يقول تعالى :

(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ..) [٢] .

(وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم ..)[٣] .

(وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم ..) [٤] .

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قـال لأبيـه وقومه..) [٥] .

(ولوطاً إذ قال لقومه ..) [٦] .

---

[١] الظلال جـ ٣ صـ ١٣٧٩ .
[٢] سورة الأعراف الآية ٥٩ .
[٣] سورة الأعراف الآية ٦٥ .
[٤] سورة الأعراف الآية ٧٣ .
[٥] سورة الأنبياء الايه ٥١ ـ ٥٢ .
[٦] سورة الأعراف الآية ٨٠ .

(وإلى مدين أخاهم شعيب قال يا قوم ..) (٧) .

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآيتنا إلى فرعون وملائه) (٨) .

(ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم ..) (٩) .

وقال تعالى فى شأن عيسى – عليه السلام - **(ورسولاً إلى بنى إسرائيل) (١٠).**

ويروون عن عيسى قوله " بعثت لخراف إسرائيل الضالة ".

ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة على وجه الإجمال فيقول سبحانه :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) (١١) .

(ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا) (١) .

---

(٧)سورة الأعراف الآية ٨٥ .
(٨)سورة الأعراف الآية ١٠٣ .
(٩)سورة طه الآية ٩٠ .
(١٠)سورة الأعراف الآية ٤٩ .
(١١)سورة الرعد الآية ٧ .

فهذه الآيات تنص بوضوح على أن الرسالات قبل الرسالة الخاتمة كانت محلية محدودة بفترة من الزمان .

وهنا نرى من الخير أن ننقل كلمة للأستاذ / سليمان الندوى الذى يقول :

" إن بنى إسرائيل قصروا الدنيا على أنفسهم فجعلوها محدودة بحدود دويلاتهم بل زعموا أن إله العالمين هو إله أمتهم وحدهم وخصوه تعالى بأنفسهم من دون الناس " (٢) .

لذا نرى أنبياء بنى إسرائيل وأسفارهم لم تعم دعوتها لغيرهم من الأمم ولا تزال الشريعة الموسوية والدين اليهودى مقصورين على الإسرائيليين لا يتجاوزانهم إلى غيرهم وأسفارهم لا تخاطب سواهم ولا تدعو لإلههم إلا أسباطهم بل إن عيسى – عليه السلام – لم يدع إلا غنم بنى إسرائيل

---

(١) سورة الروم الآية ٤٧ .

(٢) الرسالة المحمدية صـ ١١٤ المطبعة السلفية بالقاهرة ١١٣٧٣ هـ نقلاً عن د / محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٣٦ .

الضالة ولم يبلغ رسالته إلا فى قراهم وأرضهم والمنسوبين إليهم " ([٣]) .

أما الرسول الخاتم فلا نبى ولا رسول بعده ففيه وفى رسالته الجامعة الشاملة - التى تضمنت الإرشاد إلى ما به كمال الإنسانية وفتحت لها جميع النوافذ التى تستطيع أن تصل منها إلى كل ما ينفعها ويرقيها روحاً ومادة - نور وهداية لكل من أراد لنفسه الهدى فى كل مكان وزمان ومن أجل هذا وجب أن تكون رسالة عالمية للناس جميعاً فى جميع أجناسهم ولغاتهم .

وكان من فضل الله على عباده بعد إكمال دينه أن ضمن لهم حفظ كتابه هذا من التحريف والتبديل والنسيان والزيادة والنقصان فقال تعالى : (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)([٤]) .

([٣]) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٥٦ .
([٤]) سورة الحجرات الآية ٩ .

وعصم أمة خاتم النبيين أن تضل كلها عنه كما ضلت الأمم من قبلهم من اليهود والنصارى فقد أخبر أيضـاً بأنـه لابد أن يبقى بعضهم على الحق ليكونوا حجة الله على خلقـه ففى صحيح البخارى وغيره عن المغيرة بن شعبة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال :

(لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) ([1]) .

والإسلام مع ما تقدم كله يتميز بأنه دين الوحدة وهذا ما نتعرف عليه من خلال ما يلى :

٣- **من ناحية الوحدة** : (وحدة الدين الإلهى) أو (وحـدة الرسالات الإلهية) .

قرر القرآن الكريم فى العديد من الآيـات أن الـدين الإلهى دين الوحدة الدينية وأن رسالات الأنبياء جميعاً وحدة لا تحتمل التفرقة ووحدة الدين الإلهى تبدو جلية فى عـرض القرآن الكريم لها من عدة زوايا :

([1]) صحيح البخارى جـ ٤ صـ ٢٦٣ .

(أ) من ناحية وحدة المصدر ·

(ب) من ناحية وحدة الموضوع ·

(جـ) من ناحية وحدة التسمية ·

وفيما يلى نتناول الوحدة الدينية أو وحـــدة ديـــن الله بشـــكل مفصل:

<u>(أ) وحدة المصدر :</u>

أما فيما يتعلق بوحدة المصدر فإن القرآن الكريم قـــد قرر أن المصدر لكل رسالات الأنبياء هو الوحى من عند الله تعالى والوحى واحد فى جوهره على إختلاف الرسل كما أنه من الأمور التى تفرد بها الأنبياء دون ســـائر البشـــر .قـــال تعالى: (**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعـــده وأوحينا إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيـــوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليمـــاً**

رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) (١).

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشرى الموصول ورسالة واحدة بهدى واحد للإنذار والتبشير موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر ...

موكب من شتى الأقوام والأجناس وشتى البقاع والأرضين فى شتى الآونة والأزمان كلهم آت من ذلك المصدر الكريم وكلهم يحمل ذلك النور الهادى وكلهم يؤدى الإنذار والتبشير وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور سواء منهم من جاء لعشيرة ومن جاء لقوم ومن جاء لمدينة ومن جاء لقطر ثم من جاء للناس أجمعين محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين . كلهم تلقى الوحى من الله فما جاء بشئ من عنده .. (٢) .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٣ _ ١٦٥ .
(٢) الظلال جـ ٢ صـ ٨٥ .

(ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) ([3]) .

وهذا تقرير لينابيع الهدى فى هذه الأرض فهدى الله للبشرية يتمثل فيما جاءت به الرسل والذى يجب إتباعه فى هذا المصدر الواحد الذى يقرر الله - سبحانه - أنه هو هدى الله وأنه هو الذى يهدى إليه من يختار من عباده ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذى يستمدون منه هداه وأشركوا بالله فى الإعتقاد أو العبادة أو التلقى فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم ... ([4]) .

وقال تعالى : (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) ([5]) .

أى مثل ذلك وعلى هذا النسق وبهذه الطريقة يكون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك وبهذا تقرر وحدة الوحى

([3]) سورة الأنعام الآية ٨٨ .
([4]) الظلال جـ ٢ صـ ١١٤٤ .
([5]) سورة الشورى الآية ٣ .

وحدة مصدره فالموحى وهو الله العزيز الحكـيم والمـوحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان والوحى واحد فى جوهره على إختلاف الرسل وإختلاف الزمان : (إليك وإلى الذين من قبلك) .

إنها قصة بعيدة البداية ضاربة فى أطـواء الزمـان وسلسلة كثيرة الحلقات متشـابكة الحلقـات ومـنهج ثابـت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة حين تسـتقر فـى ضـمائر المـؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ووحدة مصدره وطريقـه وتشدهم إلى مصدر هذا الوحى الذى يوحى وحده إلى الرسل جميعاً (الله العزيز الحكيم) كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبـين المؤمنين أتباع الوحى فى كل زمان ومكان .. فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهى للواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التى لا تؤدى إلى الله ولا يعرف لها مصدر ولا تستقيم على إتجاه قاصد كريم .. ([1])

([1]) الظلال جـ ٥ صـ ٣١٤٠.

وقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌّ حكيم وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) (٢) .

وهكذا تنتهى هذه السورة الكريمة سورة الشورى التى بدأت بالحديث عن الوحى وكان الوحى محورها الرئيسى وقد عالجت قصة الوحى منذ النبوات الأولى لتقرر وحدة الدين ووحدة المنهج ووحدة الطريق ..

عناصر الدين الإلهى :

إن الآيات القرآنية التى عرضناها فى مقام الإستدلال على وحدة الوحى ومصدره قد أوضحت أيضاً أن الدين الإلهى يشتمل على أربعة عناصر وهى :

١- المصدر : وهو الله عز وجل .

(٢) سورة الشورى الآية ٥١ ـ ٥٣ .

٢- **الوحى** : وهو جبريل عليه السلام .

٣- **الموحى به** : وهو الكتاب كما قال تعالى **(وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير)** (١) .

٤- **الموحى إليه** : وهم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فالدين الإلهى مصدره رب العـــالمين ولا يكـــون إلا وحياً من لدن حكم عليم بواسطة جبريل الأمين أو بمقام آخر من مقامات الوحى كما قررت الآية الكريمة **(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌّ حكيم)** إلى صفوة الخلق وهم الأنبيـــاء والرسل الكرام الذين إصطفاهم وأنزل عليهم كتبه وأرســلهم إلى خلقه أئمة يهدون بأمر الله :

(قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يـــدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا

---

(١) سورة الشورى الآية ٧ .

بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد أباؤنا فأتونا ســلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن علــى من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بســلطان إلا بــإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هــدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)([٢]).

(وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فسألوا أهل الــذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كــانوا خالدين) ([٣]) .

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ قل هل يستوى الأعمى والبصــير أفلا تفكرون) ([٤]) .

<u>(ب) وحدة الموضوع :</u>

عرض القرآن الكريم فى كثير من آياتة الوحدة الموضــوعة للرسالات الإلهية رسالات الأنبياء نقتبس من أنوارها ما يلى:

([٢]) سورة إبراهيم الآية ١٠ ـ ١٢ .
([٣]) سورة الأنبياء الآية ٧ ـ ٨ .
([٤]) سورة الأنعام الآية ٥٠ .

▪ قال تعالى عن جوهر رسالة سيدنا نوح - عليه السـلام -:

(لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ([1]) .

▪ وقال تعالى عن جوهر رسالة سيدنا هود - عليه السـلام :

(وإلى عاد أخاهم هود قال ياقوم أعبدوا الله مالكم من إله غـيره أفلا تتقون) ([2]) .

▪ وقال تعالى عن جوهر رسالة سيدنا صالح -عليه السلام-:

(وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) ([3]) .

▪ وقال تعالى عن جوهر رسالة سيدنا شعيب - عليه السلام-:

(وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) ([4]) .

([1]) سورة الأعراف الآية ٥٩ .
([2])سورة الأعراف الآية ٦٥ .
([3])سورة الأعراف الآية ٧٣ .
([4])سورة الأعراف الآية ٨٥ .

- وقال تعالى عن جوهر رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام :
((وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)) (٥) .
- وقال تعالى عن جوهر رسالة سيدنا موسى عليه السلام وعلى لسانه :
((إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علماً)) (٦).
- وقال تعالى عن جوهر رسالة سيدنا عيسى عليه السلام :
((وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)) (٧) .

وفى موضع آخر يقول تعالى عنه :
((ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم)) (٨) .

---

(٥) سورة العنكبوت الآية ١٦ .
(٦) سورة طه الآية ٩٨ .
(٧) سورة المائدة الآية ٧٢ .
(٨) سورة الزخرف الآية ٦٣ ـ ٦٤ .

▪ وقال تعالى عن جوهر رسالة خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - :

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)([١]).

◆ **وعرض القرآن الكريم هذه الوحدة الموضوعة لرسالة الأنبياء على وجه الإجمال :** قال تعالى :

(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله وأجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ([٢]) .

فهذا أمره وهذه إرادته لعباده والله تعالى لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقة من القدرة عليه أو دفعهم قسراً إلى مخالفته وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين ...

▪ وقال تعالى : **(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ([٣]) .**

([١])سورة الكهف الآية ١١٠ .
([٢])سورة النحل الآية ٣٦ .
([٣])سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

يقول إبن كثير : " فكل كتاب أنزل على كل نبى أرسل ناطق بأنه (**لا إله إلا الله**) فكل نبى بعثه الله يدعو إلى عبـــادة الله وحــده لا شــريك لــه والفطــرة شــاهدة بــذلك أيضــاً والمشــركون لا بــرهان لهم وعليهم غضب ولهم عــذاب شديد " (٤) .

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعــث الله الرســل للناس لا تبديل فيه ولا تحويل توحيد الإلــه وتوحيد المعبود فلا إنفصـــال بين الألوهية والربوبيـــة ولا مجال للشرك فى الألوهيـــة ولا فى العبـــادة قاعدة ثابتة بثبوت النـــواميس الكونية متصلة بهذه النواميس وهى واحدة منها (٥) .

▪ وقال تعالى : **(وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)** (٦) .

---

(٤) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٥٠٥ .
(٥) الظلال جـ ٤ صـ ٢٣٧٤ .
(٦) سورة الزخرف الآية ٤٠ .

يقول إبن كثير : " أى جميــع الرسل دعوا إلى ما دعــوت الناس إليه من عبادة الله وحــده لا شريك لـــه ونهــوا عــن عبادة الأصنام والأنداد .. " ([1]) .

وجاء فى الظلال : " التوحيد هو أساس دين الله الواحد منــذ أقدم رسول فعلام يرتكن هــؤلاء الذين يجعلــون مـــن دون الرحمن آلهة يعبدون ؟

والقرآن يقرر هذه الحقيقة هنا فى هذه الصورة الفريدة صورة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسأل الرسل قبلـــه عن هذه القضية : (**أجعلنا من دون الـــرحمن آلهـــة يعبـــدون؟**) وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول وهى صورة طريفة حقاً وهو أسلوب مـــوحٍ شـــديد التـــأثير فـــى القلوب.

وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - والرسل قبله وهناك أبعاد الموت والحياة وهـــى أكبر من أبعاد الزمان والمكان ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى

([1]) مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٢٩١.

هنا أمام الحقيقة الثابتة المطـردة حقيقـة وحـدة الرسـالة المرتكزة كلها على التوحيد وهى كفيلة أن تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسـائر الظـواهر المتغيرة ويتلاشى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين وهذه هى ظلال التعبير القرآنى اللطيـف العجيب .

على أنه بالقياس إلى النبى - صلى الله عليه وسـلم - وإخوانه من الرسل مع ربهم لا يبقى شئ بعيد وآخر قريـب فهناك دائماً تلك اللحظة اللدنية التى تـزال فيهـا الحـواجز وترتفع فيها السدود وتتجلى الحقيقة الكلية عارية مـن كـل ستار حقيقة النفس وحقيقة الوجود كله وأهل هـذا الوجـود تتجلى وحدة متصلة وقد سقط عنها حاجز الزمـان وحـاجز المكان وحاجز الشكل والصورة وهنا يسأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويجاب بلا حاجز ولا حجاب كما وقع فـى ليلة الإسراء والمعراج ... " (٢) .

---

(٢) الظلال جـ ٥ صـ ٣١٩١ ـ ٣١٩٢ .

- وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والـذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) (1) .

لقد جاء فى مطلع السورة : (**كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم**) فكانت هذه إشارة إجمالية إلى وحدة المصدر ووحدة المنهج ووحدة الإتجاه .

فالآن يفصل هذه الإشارة ويقرر أن مـا شـرعه الله تعالى للمسلمين هو فى عمومه ما وصى به نوحاً وإبـراهيم وموسى وعيسى وهو أن يقيموا دين الله الواحد ولا يتفرقـوا فيه .

وبذلك يقرر حقيقة الأصل الواحد والنشأة الضاربة فى أصول الزمان ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع فـى حـس المؤمن وهو ينظر إلى سلفه فى الطريق الممتد من بعيد فإذا هم على التتابع.

---

(1) سورة الشورى الآية ١٣ .

هؤلاء الكرام : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمـد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ويستشعر أنه إمتـداد لهؤلاء الكرام وأنه على دربهم يسير .. ([٢]) .

وهكذا فإن القرآن الكريم قد عرض موضوعية رسالة الأنبياء عرضها بأسلوب واضح وميسر لا غموض فيـه ولا تعقيد .

فالرسالات الإلهية - كما عرفنا - قد إلتقت كلها على أصول العقيدة والعبادة والأخلاق فكل نبى دعا قومـه إلـى التوحيد الخالص وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة كما قـررت الآيات السالفة واشتركت العبادة مع الأخلاق فى إطارها العام بين جميع الرسل فى مثل قوله تعالى : **(وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ([٣]).**

([٢]) راجع الظلال جـ ٥ صـ ٣١٤٧ .
([٣])سورة البقرة الآية ٨٣

وما وراء ذلك من تفصيلات الأحكام والعبادات والشرائع فتلك قضية تخضع لظروف الزمان والمكان فما يصلح لأمة قد لا يتناسب مع أمة أخرى قال تعالى :

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) (١) .

يقول ابن كثير : " هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد .. وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى فقد يكون الشئ فى هذه الشريعة حراماً ثم يحل فى الشريعة الأخرى وبالعكس وخفيفاً فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه وذلك لما له من الحكمة البالغة والحجة الدامغة (٢) .

فرسالات الله تمثل أطوار مناهج التربية الإلهية لبنى الإنسان:

---

(١)سورة المائدة الآية ٤٨ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٥٢٥ .

▪ فقد حرمت رسالة موسى - عليه السلام - أشياء كثيرة على بني إسرائيل قال تعالى : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) (٣) .

▪ ثم جاء عيسى - عليه السلام - منادياً فى قومه كما حكى القرآن : (ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون)(٤).

وعلى حين فترة من الرسل أشرقت الأرض بنور ربها وجاء سيدنا محمد خاتم الأنبياء قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت

---
(٣)سورة الأنعام الآية ١٤٦ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٤٦ .

عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنــزل معه أولئك هم المفلحون) ([1]) .

وهذا المعنى هو المشار إليه فى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (الأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينــهم واحد) ([2]) .

فالأخوة لعلات هم الأخوة يلتقون فى الأب ويختلفون فى الأمهات فالرسول - صلى الله عليه وسلم - شبه الإلتقــاء على أصول العقيدة والعبادة والأخلاق فى الرسالات الإلهيــة بالإلتقاء فــى الأب والإخــتلاف فــى تفصــيلات الأحكــام والعبادات والشرائع بالإختلاف فى الأمهات .

<u>(جـ) وحدة التسمية :</u>

ولئن كانت حقيقة الدين عند الله تعالى هى الإسلام مصــدراً وموضوعاً - كما عرفنا من قبل فإن الأنبياء جميعاً قد أقروا

([1])سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

([2]) صحيح البخارى جـ ٢ صـ ٢٥٥ ومسلم جـ ١٥ صـ ١١٩ عن أبى هريرة .

بأنهم على دين واحد هو دين الإسلام ونطقوا بهذه التسمية هم وأتباعهم باللفظ الصريح .

ويعرض القرآن الكريم وحدة التسمية أو وحدة النطق بالإسلام الذى هتف به جميع الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء على النحو التالى :

◆ ففى شأن نوح - عليه السلام - يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إلىّ ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) ([٣]) .

◆ وفى شأن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ووصية إبراهيم لبنيه وأحفاده يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك

([٣])سورة يونس الآية ٧١ ـ ٧٢ .

وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنـــا وابعـــث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمـــة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ومن يرغب عن ملة إبـــراهيم إلا من سفه نفسه ولقد إصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبـــراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنـــتم مسلمون) [1] .

◆ وينفى القرآن الكريم عن إبراهيم – عليه السلام – إنه كان على دين غير الإسلام قال تعالى : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) [2]

◆ وفى شأن يعقوب – عليه السلام – ووصيته لبنيه يحكـــى القرآن الكريم قوله تعالى : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقـــوب

---

[1] سورة البقرة الآية ١٢٧ _ ١٣٢ .
[2] سورة آل عمران الآية ٦٧ .

الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم واسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) (٣) .

◆ وفي شأن يوسف – عليه السلام – وتضرعه لفاطر السماوات والأرض يحكى القرآن الكريم قوله تعالى :(رب قد أتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) (٤) .

◆ وفي شأن لوط – عليه السلام – والمؤمنين من قومه يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) (٥) .

◆ وفي شأن موسى - عليه السلام – ونصحه لقومه يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٦) .

---

(٣)سورة البقرة الآية ١٣٣.
(٤)سورة يوسف الآية ١٠١ .
(٥) سورة الذاريات ٣٦ .
(٦)سورة يونس الآية ٧٤ .

◆ وفى شأن السحرة الذين أعلنوا إسـلامهم أمـام فرعـون يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (قالوا إنا إلى ربنا منقلبـون وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) (١) .

◆ وفى شأن فرعون حين أدركه الغرق يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحـر فـأتبعهم فرعـون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل أنا من المسلمين) (٢) .

◆ وفى شأن أنبياء بنى إسرائيل ووصفهم بهذا الوصف يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (أنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونـور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشـوا النـاس

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٢) سورة يونس الآية ٩٠ .

وخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ([٣]) .

◆ وفى شأن سليمان - عليه السلام - يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) ([٤]) .

◆ وفى شأن بلقيس حين دخلت الصرح يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ([٥]) .

◆ ويحكى القرآن الكريم مضمون الخطاب الذى كان قد وصلها من سليمان - عليه السلام - مع الهدهد قال تعالى : (قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين) ([٦]) .

◆وفى شأن عيسى - عليه السلام - وصحبه الحواريين يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال

([٣])سورة المائدة الآية ٤٤.
([٤])سورة النحل الآية ٤٢ .
([٥])سورة النحل الآية ٤٤ .
([٦])سورة النحل الآية ٣١ .

من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون) ([1]) .

◆ وكان ذلك وحياً من عند الله تعالى كما يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) ([2]) .

◆ وفى شأن خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) ([3]) .

(قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين) ([4]) .

◆ وفى شأن دعوة أهل الكتاب يحكى القرآن الكريم قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا

([1]) سورة آل عمران ٥٢ .
([2]) سورة المائدة الآية ١١١ .
([3]) سورة الأنبياء الآية ١٠٨ .
([4]) سورة الزمر الآية ١١ _ ١٢ .

نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (٥) .

♦ والقرآن الكريم يسوق هذا المبدأ الإسلامى للمسلمين جميعاً قال تعالى :(**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين**) (٦).

♦ بل يصل هذا الوصف إلى ذكر ما يدين بـه الجـن قـال تعالى: (**وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً**) (٧) .

وبهذا يتبين لنا : أن الإسلام :

ليس هو ما أنزل على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -: فحسب .

وليس هو ما أنزل على الرسل والأنبياء قاطبة فحسب .

---

(٥)سورة آل عمران الآية ٦٤ .
(٦)سورة فصلت الآية ٣٣ .
(٧)سورة الجن الآية ١٣ ـ ١٥ .

بل إنه الدين عند الله تعالى أزلاً وأبداً . وهـذا هـو معنى قوله تعالى : **(إن الدين عند الله الإسلام)** (1) .

ومن هنا يأتى قرار قاطع برفض كل دين غير ديـنْ الإسلام : **(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)** (2) .

وهذا الرفض ليس تعصباً ولا إنحساراً إلى زاوية ضـيقة من زوايا الكون أو المجتمع وإنما هو العكس من ذلك :

- هو إزاحة لكل ما يحول بين الإنسان وبين الإنتساب إلـى الكون فى شموله وأبديته .
- بل هو إزاحة لكل ما يحول بين الإنسان وبين الإنتساب إلى الإنسانية كافة .

يدل على ذلك : شمول هذا الدين لجميع الأنبيـاء والرسـل عليهم السلام : **(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والـذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)** (3) .

---

(1)سورة آل عمران الآية ١٩ .
(2)سورة آل عمران الآية ٨٥ .
(3)سورة الشورى الآية ١٣ .

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان المشركين قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد إهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) (٤) .

ومن الحقائق ذات المغزى العميق فى دلالتها على إستغراق هذا الدين الإلهى لجميع الأنبياء والمرسلين أن ترى القرآن الكريم يتتبع الرسل وأصحابهم فيما يشبه الإستقصاء ليصفهم بالمسلمين .

وهذا الدين لا يقبل التبديل لأنه دين الفطرة التى لا تبديل لها:**(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)** (٥) .

ويستنكر القرآن الكريم آية ديانة غير الإسلام على مستوى الإنسانية كلها : **(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان**

---

(٤)سورة البقرة الآية ١٣٥ ـ ١٣٨ .
(٥)سورة الروم الآية ٣٠ .

هوداً أو نصارى قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هـــم يحزنون)([1]).

وفى الحديث (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد) ([2]) .

ويقول الإمام الطحاوى : " ودين الله فـــى الأرض والســـماء واحد وهو دين الإسلام " ([3]).

ويقول الدكتور دراز : " إنا إذا أخذنا كلمة إســـلام بمعناهـــا القرآنى نجدها لا تدع مجالاً للسؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية فالإسلام فى لغة القـــرآن لـــيس إسماً لدين خاص وإنما هو إسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء " ([4]) .

([1])سورة البقرة الآية ١١٢.
([2]) صـــحيح البخـــارى جــ ٢ صـــ ٢٥٥ ، وصـــحيح مسـلم جـــ ١٥ صـ ١١٩ عن أبى هريرة .
([3]) شرح العقيدة الطحاوية جـ ٢ صـ ٧٨٦ .
([4]) الفكر الإسلامى فى مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة صـــ ٢٧٦ د / يحيى هاشم نقلاً عن مجلة المجلة .

ويحدثنا الأستاذ أحمد أمين عن نشوء كلمـــة (الإســـلام) فيقول: " رأينا أن معنى الإسلام المسالمة وضـــد المســـالمة الحرب والخصام جاء فى القرآن : (**وعباد الـــرحمن الـــذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**)(°).

ولعل هذه الآية هى المفتاح الذى نصل بـــه إلـــى معرفـــة السبب فى تسمية العهد الذى قبل محمد - صـــلى الله عليـــه وسلم - جاهلية وعهده إسلاماً .

والجاهلية ليست من الجهل الذى هو ضد العلم ولكن الجهل الذى هو السفه والغضب والآنفة جاء فى حـــديث الأفـــك : (**ولكن إجتهلته الحميَّة**) أى حملته الآنفـــة والغضـــب علـــى الجهل وفى الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - قال لأبى ذر - وقد عير رجلاً بأمه - (**إنك إمرؤ فيه جاهلية**) أى فيك روح الجاهلية ..

(°) سورة الفرقان الآية ٦٣.

فترى من هذا كله أن كلمة الجاهلية تـدل علـى الخفـة والآنفة والحميَّة والمفاخرة وهى أمور أوضح ما كانت فـى حياة العرب قبل الإسلام فسمى العصر : الجاهلية .

ويقابل هذه المعانى هدوء الـنفس والتواضـع والإعتـداد بالعمل الصالح لا بالنسب وهى كلها نزعة سلام فمعنى الآية كما قال الطبرى : " أن عباد الله هم الـذين يمشـون علـى الأرض بالحلم لا يجهلون على من جهل عليهم " .

ثم إنتقلت الكلمة إلى معنى آخر قريـب مـن هـذا وهـو إستعمال أسلم المشتق من السلام بمعنى الخضوع والإنقيـاد لما كان الخضوع أدعى إلى السلام وفى هذا المعنـى جـاء قوله تعالى: (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) (١) (فقل أسلمت وجهى لله) (٢) .

وقد أطلقها القرآن بهذا المعنى أحيانـاً علـى المـؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ومنقـادون لـه بحكـم

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٤

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٠ .

خلقتهم رضوا أو كرهوا تسرى علـيهم قـوانين العـالم ولا يستطيعون الخروج عليها **(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون)** (٣) .

فكل من فى السماوات والأرض مسلم بهذا المعنـى أى خاضع لأمر الله مطيع لما وضع فى العالم من قوانين .

ثم قصرت فى الإستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً فكان المسلم هو الذى رضى بإطاعة الله فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة وقريب من هذا المعنى قولـه الله **(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر النـاس عليهـا لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)**(٤).

وبهذا المعنى تطلق كلمة (مسلم) على كل من خضـع لله وأطاع أى نبى من الأنبياء فأتباع الأنبياء مسلمون .. فهذا الإسلام عماده الخضوع لله والإنقياد له " (٥) .

---

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٣ .
(٤) سورة الروم الآية ٣٠ .
(٥) فجر الإسلام صـ ٦٩ ـ ٧٠ الطبعة الرابعة عشر ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦.

ولذلك فإن :

المسلم فى عهد نوح هو المتبع لرسالة نـوح عليـه السـلام
والمسلم فى عهد إبراهيم هو المتبع لرسالة إبـراهيم عليـه السلام
والمسلم فى عهد موسى هو المتبع لرسالة موسى عليـه السـلام
والمسلم فى عهد عيسى هو المتبع لرسالة عيسى عليـه السـلام
والمسلم فى عهد خاتم الأنبياء سيدنا محمد هو المتبـع لرسـالته صلى الله عليه وسلم .

(وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسـلموا فقـد إهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) (١) .

موقف القرآن الكريم من الرسل والرسالات السابقة :

إن القرآن الكريم قد طلب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل كما طلب الإيمان بما أنزل عليهم جميعـاً وكـان الإيمـان بالبعض دون البعض فى الرسالة الخاتمة خروجاً عن ديـن الله تعالى وهديه .

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠ .

لأن الرسالة الخاتمة تعتبر رسالات الأنبياء جميعاً "وحدة" لا تحتمل التفرقة فمن لم يؤمن بإحداها لا يكون مسلماً قــط وأنه نتيجة لذلك يكون الناس جميعاً أمام هذه الرسالات وأمام الله سواء بلا تفرقة بين أتباع هذا أو ذاك من الرسل ما داموا جميعاً يؤمنون برسالة خاتم الأنبياء والرسل علـيهم جميعـاً أفضل الصلاة والسلام .

إن الرسالة الخاتمة أو الإسلام لم يقل كما قال أتباع موسى وعيسى عليهما السلام : **(لن يدخل الجنة إلا من كان هــود أو نصارى)** [٢] .

بل رد هذه المقالة التى تتضح بالتفرقة بـين الرسـالات وأصحابها ومتبعيها والتى لا سند لها من حجـة أو برهـان فقال : **(بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)** [٣] .

---

[٢] سورة البقرة الآية ١١١.
[٣] سورة البقرة الآية ١١٢ .

كما قال القرآن الكريم قبل هذه الآية :(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً لفهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (1) .

وهذا الأصل الذى تضمنته هاتان الآيتان الأخيرتان يقرر صراحة ما جاء به الإسلام من " الوحدة " فى الدين ورسالات الله تعالى لأنبيائه ورسله وما يتبع ذلك من " الوحدة " فى الحقوق والواجبات وفى المسئولية والجزاء فى الدنيا والآخرة (2) .

ومن ثم كان الإسلام هو الدين وكانت رسالة خاتم الأنبياء والرسل - صلى الله عليه وسلم - خاتمة الرسالات وكان المسلمون (**خير أمة أخرجت للناس**) (3) وكان من يفرقون بين بعض الرسل وبعض منقطعين عن موكب الإيمان مفرقين للوحدة التى جمعها الله منكرين للوحدانية التى يقوم

---

(1) سورة البقرة الآية ٦٢

(2) د / محمد يوسف موسى : الإسلام وحاجة الإنسانية إليه صـ ٢٨_٢٩ .

(3) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

عليها الإيمان بالله عز وجل قال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) ([٤]) .

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) ([٥]) .

(يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله الكتاب الذى أنزل من قبل) ([٦]) .

وبين القرآن الكريم أن التفرقة بينهم هو الضلال والكفر حق الكفر : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) ([٧]) .

([٤]) سورة البقرة الآية ١٣٦ .
([٥])سورة البقرة الآية ٢٨٥ .
([٦])سورة النساء الآية ١٣٦ .
([٧])سورة النساء الآية ١٣٦ .

(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً)([1]).

كما بين القرآن الكريم أن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان : **(والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً)** ([2]) .

يقول القرطبى في معنى قوله تعالى **(ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله)** :

" .. نص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر وإنما كان كفراً لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم فكانوا ممتنعين من إلتزام العبودية التى أمروا بإلتزامها فكان كجحد الصانع سبحانه وجحد

([1]) سورة النساء الآية ١٥٠- ١٥١ .
([2]) سورة النساء الآية ١٥٢ .

الصانع كفر لما فيه من ترك إلتزام الطاعة والعبودية وكذلك التفريق بين رسله فى الإيمان بهم كفر.." (٣) .

ويقول الشيخ رشيد رضا فى تعليقه على الآية السابقة :

" وهذا مبنى على الإيمان بأن دين الله تعالى الذى أرسل به جميع رسله واحد فى أصوله ومقاصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة وإنما كانت تختلف صور العبادات والشرائع بإختلاف إستعداد الأقوام ومقتضيات الزمان والمكان حتى بعث الرسول العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان مع الإذن بالإجتهاد فى المصالح التى تختلف بإختلاف الأطوار والأحوال .

فالإيمان ببعض الرسل دون بعض فى رسالتهم الإلهية إتباع للهوى فى الإيمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لأنه عين الكفر .

وقد إنفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون أهل الملة الوثنية من المجوس والهندوس ودون أهل الكتاب الذين لا

---

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ صـ ٥.

يؤمنون إلا بأنبياء بنى إسرائيل وأبيهم وجـدهم علـى مـا يذكرون فى كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمـونهم بها.

وأما المسلمون فيؤمنون بأن رب العالمين أرسل فى كل الأمم رسلاً هادين مهديين فهم يؤمنون بهم إجمالاً وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلاً فقد كرم الإسـلام بهـذا نـوع الإنسان ومهد به السبيل للألفة والأخوة الإنسانية العامة ..

فالمسلم صديق ومحب وحبيب لجميع الأنبياء والمرسـلين فى الدنيا والآخرة وتجاه هذا يصح أن يقال أن غير المسـلم عدو لله وللرسل كلهم لأن تكذيبه لبعضهم تكذيب لرسـالتهم ولمرسلهم سبحانه .

وهذه المزيّة لأمة محمد - صلى الله عليه وسـلم - مـن المزايا التى كانت بها حجة على سائر الأمم وأهلاً لمنصـب الإمامة فيها قال تعالى : (**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**) ففى الوسـط العدل فى الإيمان بجميع الرسل وما جاؤا به من أركان الدين

وأما شهادتها على الناس فهى تابعة لما كلفته من دعوة جميع الأمم إلى حقيقة دين الرسل التى تلقتها مــن خـــاتم النبيـــين - صلى الله عليه وسلم – .. " [١] .

وجاء فى الظلال ما نصه :

" لقد كان اليهود يدّعون الإيمان بأنبيائهم وينكــرون رســالة عيسى ورسالة محمد – عليهما السلام – كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى - فضلاً عن تأليهه – وينكــرون رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - كذلك .

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ويقرر التصـــور الإسلامى الشامل الكامل من الإيمان بـــالله ورســوله بـــدون تفريق بين الله ورسله وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً.

وبهذا الشمول كان الإسلام هو " الدين " الذى لا يقبـــل الله من الناس غيره لأنه هـــو الـــذى يتفـــق مـــع وحدانيـــة الله ومقتضيات هذه الوحدانية .

---

(١) الوحى المحمدى صـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضى توحيد دينه الــذى أرسل به الرسل للبشر وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هــو كفــر بوحدانية الله فى الحقيقة وسوء تصــور لمقتضــيات هــذه الوحدانية فدين الله للبشر ومنهجه للناس هو هو لا يتغير فى أساسه كما أنه لا يتغير فى مصدره لذلك عبر الســياق هنــا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل وعمن يريدون التفرقة بــين الرســل بــأن يؤمنــوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم عبر عن هؤلاء وهــؤلاء بــأنهم (**الذين يكفرون بالله ورسله**) وعد تفرقتهم بــين الله ورســله وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض كفراً بالله وبرسله .

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ الإيمان بالله إيمــان بوحدانيتــه سبحانه وحدانيته تقتضى وحدة الدين الذى إرتضــاه للنــاس لتقوم حياتهم كلها - كوحدة - على أساسه ويقتضــى وحــدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده - لا من عند أنفسهم ولا فى معزل عن إرادته ووحيه - ووحدة الموقف تجــاههم

جميعاً ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا بالكفر المطلق وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض وكان جزاءهم عند الله أن أعد لهم العذاب المهين أجمعين (**أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**) .

أما المسلمون فهم الذين يشتمل تصورهم الإعتقادى على الإيمان بالله ورسله جميعاً بلا تفرقة فكل الرسل عندهم موضع إعتقاد وإحترام وكل الديانات السماوية عندهم حق – مالم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذ من دين الله وإن بقى فيها جانب لم يحرف إذ أن الدين وحدة - وهم يتصورون الأمر - كما هو فى حقيقته – : إلهاً واحداً إرتضى للناس ديناً واحداً ووضع لحياتهم منهجاً واحداً وأرسل رسله إلى الناس بهذا الدين الواحد وهذا المنهج الواحد . وموكب الإيمان - فى حسهم – موصول يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - ونسبهم هم إلى هذا الموكب الموصول عريق وهم حملة هذه الأمانة الكبرى وهم ورثة هذا الخير الموصول

على طول الطريق المبارك لا تفرقة ولا عزلة ولا انفصـــام وإليهم وحدهم إنتهى ميراث الدين الحـــق ولـــيس وراء مـــا عندهم إلا الباطل والضلال .

وهذا هو (**الإسلام**) الذى لا يقبل الله غيره مـــن أحـــد وهؤلاء هم (**المسلمون**) الذين يستحقون الأجر من الله على ما عملوا ويستحقون منه المغفرة والرحمة فيما قصروا فيه : (**أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً**) (١) (٢).

والإيمان بالكتب المقدسة الوارد فى الآيات السابقة يكـــون تفصيلاً فيما فصله القرآن وإجمالاً فيما أجمله القرآن والكتب التى جاء ذكرها بالتعيين هى :

صحف إبراهيم وتوراة موســـى وزبـــور داود وإنجيـــل عيسى. والإيمان بما سبق من كتب إنما هو فى حالة نقاءهـــا الأول وصفاءها الإلهى قبل أن تنال منها أيـــدى التحريـــف والتبديل والتغيير - كما سيأتي - .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٢ .
(٢) الظلال جـ ٢ صـ ٧٩٧ ـ ٧٩٨ .

وما يسمى الآن بالتوراة أو الإنجيل ويتداول بين اليهـود والنصارى ويطلقون عليه الكتاب المقدس ليس هو بالكتـاب الحق وليس هو بالوحي الصحيح وليس هو بعينه مـا بلّغـه موسى وعيسى - عليهما السلام - ([٣]) .

وبناء على ذلك يتقرر :

- أن الرسالات الإلهية كلها ذات هدف واحـد هـو تعلـيم الناس ما به يصلح حالهم ويستعدون لمآلهم بطريق التبشـير لمن آمن وأصلح عملاً بحسن الثواب وإنذار من كفر وأفسـد عملاً بالعقاب وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة. بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان وما تصـلح بـه الأنفس وتتزكى من صالح الأعمال فتستعد لسـعادة الـدنيا بقدرها وسعادة الآخرة من بعدها ([٤]) .
- وبذلك تعاقبت الرسالات الإلهية على الإنسان أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وكلها ذات هدف واحد - كما أشرنا - وهو

([٣]) د / المسير / الرسالة والرسل فى العقيدة الإسلامية صـ ٧٥ .
([٤]) الوحى المحمدى صـ ٧٤ بتصرف يسير .

توجيه الإنسان إلى طريق الكمال وكانت أصـول رسـالتهم وعقائدها الأولى واحدة لا تختلف فى رسالة عنها فى رسالة أخرى هو إفراده تعالى بالربوبية والإستسـلام لـه وحـده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هـو مصـلحة للبشر وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ([1]).

◆ أن الرسل كما إتفقت كلمتهم جميعاً على جوهر هذا الدين إتفقت كلمتهم أيضاً فى إسم الدين وهو (**الإسلام**) فالإسـلام إسم لجميع الرسالات الإلهية كلها بحسب أصولها الصـحيحة فى الإعتقاد والسلوك وفى كل ما يحدد غاية الإنسان فهو إسم عام لدين الله منذ فجر الإنسانية وحتى يرث الله الأرض ومن عليها وما من نبى إلا أعلن إسلامه كما أعلـن ذلـك أتبـاع الأنبياء من الإنس والجن إذن الرب تعـالى واحـد والـدين واحد- دين الفطرة الإنسانية التى لا تقبل التبديل - والأمـة الإسلامية وحدة متكاملة دستورها واحد وأحكامهـا واحـدة

([1]) شلتوت / الإسلام عقيدة وشريعة صـ ٤٩ والشيخ محمد عبده / رسالة التوحيد صـ ١٢٩ - بتصرف .

مستمدة من رب العالمين بواسطة رسله الكرام :(**يـا أيهـا الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون علـيم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**) ([٢]) فوحدة الدين عند الله تعالى عقيدة أساسية عند المسلم وتعدد الأنبياء لـم يكـن لتعدد الأديان التى جاءت من عند الله وإنما كان تعدد الأنبياء يدور وجوداً وعدماً مع بقاء الدين الحق بين أيدى النـاس أو إندثاره من بين أيديهم ([٣]) .

◆ وما من نبى من الأنبياء إلا وقد أمره الله تعالى أن يـؤمن بما سبقه من رسالات وأن يصحح ما حدث فيها من تحريفات وأن يحل بعض المحرمات يقول الله تعالى فى شأن عيسى- عليه السلام-: (**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**)([٤]).
(**ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حـرم عليكم**) ([٥]) .

([٢]) سورة المؤمنون الآية ٥١ ـ ٥٢ .
([٣]) د / يحيى هاشم / الفكر الإسلامى صـ ٢٧٦ .
([٤]) سورة آل عمران الآية ٤٨ .
([٥])سورة آل عمران الآية ٥٠ .

◆ وأخذ الله تعالى الميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء وبرسالته يقول سبحانه : (**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصـــدق لمـــا معكـــم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قـــالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلـــك فأولئك هم الفاسقون**) (1) .

إن هذا الميثاق يصور حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات على عهد من الله وميثاق ينبني عليه فسوق مـــن يتولى عن إتباع آخر الرسالات وشذوذ عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق .

لقد أخذ الله سبحانه موثقاً رهيباً جليلاً كان هـــو شـــاهده وأشهد عليه رسله موثقاً على كل رسول أنه مهما آتاه مـــن كتاب وحكمة ثم جاء رسول بعده مصدقاً لما معه أن يؤمن به وينصره ويتبع دينه وجعل هذا عهداً بينه وبين كل رسول.

---

(1) سورة آل عمران الآية ٨١ ـ ٨٢ .

والتعبير القرآنى يطوى الأزمنة المتتابعة بـين الرسـل ويجمعهم كلهم فى مشهد والله الجليل الكبير يخاطبهم جملة : هل أقروا هذا الميثاق وأخذوا عليه ـهد الله الثقيـل **(قـال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟)**.وهـم يجيبـون **(قـالوا أقررنا)**.فيشهد الجليل على هذا الميثاق ويشهدهم عليه : **(قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)**.

هذا المشهد الهائل الجليل يرسمه التعبير فيجف له القلب ويجب وهو يتمثل المشهد بحضرة البارئ الجليـل والرسـل مجتمعين .

وفى ظل هذا المشهد يبدو الموكب الكريم متصلاً متسانداً مستسلماً للتوجيه العلوى ممثلاً للحقيقة الواحدة التى شاء الله سبحانه أن تقوم عليها الحياة البشرية ولا تنحرف ولا تتعـدد ولا تتعارض ولا تتصادم إنما ينتدب لها المختار من عباد الله ثم يسلمها إلى المختار بعده ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحـق به فما لنبي فى نفسه من شئ وما له فى هذه المهمة من إرب شخصى ولا مجد ذاتى إنما هو عبد مصطفى ومبلغ مختـار

والله سبحانه هو الذى ينقل خطى هذه الدعوة بـين أجيـال البشر ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف شاء ويخلص ديـن الله بهذا العهد وبهذا التصور من العصبية الذاتيـة عصـبية الرسول لشخصه وعصبيته لقومه وعصبية أتباعه لنحلـتهم وعصبيتهم لأنفسهم وعصبيتهم لقوميتهم ويخلص الأمر كلـه لله فى هذا الدين الواحد الذى تتابع به وتوالى ذلك الموكـب السنى الكريم ([1]).

يقول إبن كثير : " يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبى بعثـه من لدن آدم – عليه السلام – إلى عيسى – عليه السـلام – مهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أى مبلغ ثم جـاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ما هو فيـه من العلم والنبوة من إتباع من بعث بعده ونصرته " قال على وابن عباس – رضى الله عنهما – : ما بعث الله نبيـاً مـن الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً و هو حـى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لـئن

([1]) الظلال جـ ١ صـ ٤٢٠-٤٢١ .

بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال الحسن البصرى وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً وهذا لا يضاد ما قاله على وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه وقد قال الإمام أحمد : جاء عمر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله إنى أمرت بأخ لى يهودى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن ثابت قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً قال : فسرى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال : (والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى - عليه السلام - ثم إتبعتموه وتركتمونى لضللتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين) .
وعن جابر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حياً

بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) وفي بعض الأحاديث : **(لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا إتباعي)** فالرسول محمد خاتم الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه - دائماً إلى يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له والذي يحيد عنه أولوا العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به - صلوات الله وسلامه عليه - ([1]).

◆ ولما كان دين الله واحد ورسالات الأنبياء ذات هدف واحد وكل الأنبياء قد أمروا أن يصدق بعضهم بعضاً فإن الله تعالى ينكر على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتابه

([1]) مختصر ابن كثير جـ ١ صـ ٢٩٦ .

وأرسل به رسله فيقول سبحانه : (**أفغير دين الله يبغــون ولــه أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون**)(٢).

◆ وكما أمر الله تعالى جميع الأنبيــاء والرســل أن يؤمنــوا بخاتمهم – صلى الله عليه وسلم – فإن الله تعالى أمر خــاتم الأنبياء أن يهتدى بهــدى الأنبيــاء والرســل الســابقين لأن رسالتهم كما عرفنا واحدة (**ما يقال لك إلا ما قد قيل للرســل من قبلك**) (٣).

ففى سورة الأنعام وبعد أن أورد عدداً كبيراً من الأنبياء والرسل السابقين يخاطب الله تعالى نبيه الخاتم بقوله:(**أولئك الذين هدى الله فبهداهم إقتده**)(٤).

◆ وأمره سبحانه هو وأمته أن يؤمنوا بكل نبى أرسل وبكل كتاب أنزل لا يكفرون بشئ من ذلك بل هم يصــدقون بمــا أنزل من عند الله وبكل نبى بعثه الله :

---

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٣ .
(٣) سورة فصلت الآية ٤٣ .
(٤) سورة الأنعام الآية ٩٠ .

(قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبـــراهيم وإسماعيـــل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ومـــن يبتـــغ غـــير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) (١).

فقد بدأت الآية الأولى بالآتى :

- إثبات الإيمان بالله باعتباره أصلاً للإيمان بالنبوة .
- ثم قدمت الإيمان بالوحى لسيدنا محمد صـــلى الله عليــه وسلم باعتباره المصحح لأوهام أهل الكتاب وتحريفاتهم .
- ثم ذكرت الإيمان بالوحى لإبراهيم و إسماعيل وإســحاق ويعقوب والأسباط باعتبارهم منشأ أهل الكتاب من يهــود ونصارى وإليهم يرجع نسبهم ودينهم .
- ثم خصصت ما أوتى موسى وعيسى باعتبارهما أصحاب الرسالتين الأخيرتين قبل رسالة خاتم الأنبيــاء فــاليهود يقفون عند شريعة موسى والنصارى يقفون عند شــريعة عيسى .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٤ ـ ٨٥ .

- ثم عمت الآية ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء الســـابقين من نعرف ومن لا نعرف على وجه الإجمال .
- ثم جاءت الآية الأخيرة فأعلنت الحقيقة الكبرى المتمثلـــة فى طريق النجاة الأوحد والوحيد (٢) وهو الإسلام .

◆ والقرآن الكريم صدق ما قبله من الكتب الصحيحة :

(الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للنـــاس وأنـــزل الفرقان) (٣).

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديـــه مـــن الكتـــاب ومهيمناً عليه) (٤) .

وأشرنا من قبل إلى أن الإيمان بالكتب السابقة إنما هـــو فى حال نقائها الأول وصفائها الإلهى قبل أن تنال فيها أيدى التحريف والتبديل والتغيير.

---

(٢) د/ المسير / المدخل لدراسة الأديان صـ ٥٠ ـ ٥١ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١ ـ ٤ .
(٤) سورة المائدة الآية ٤٨ .

(ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)([1]).

(وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتـــاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عنـــد الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) ([2]) .

فالوحى الإلهى الذى جاء به الأنبياء كان مستحفظاً لدى الأحبار والرهبان كى يبلغوه للناس ويتحملوا أمانة نشره بين أقوامهم لكنهم خانوا الأمانة ونقضوا العهد وحرفـوا وبـــدلوا وغيروا وحى الله ([3]) .

وينفرد القرآن الكريم بأن الله الحفيظ سبحانه قـــد تـــولى حفظه والعناية به لأنه الكتاب الخاتم والخالد والشامل الـــذى

([1]) سورة البقرة الآية ٧٨ ـ ٧٩ .
([2]) سورة آل عمران الآية ٧٨ .
([3]) سيأتى تفصيل ذلك فى المبحث السابع .

حوى الأصول الصحيحة التى جاءت بها الرسالات السابقة : (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**) ([٤]) .

ولذا كان القرآن الكريم مهيمناً على ما سبقه مـــن كتـــب يرجع إليه فى الحل والحرمة ويهرع إليه فى قضايا الإيمـــان والغيب ويلتزم به العالمون فى نظام حياتهم ومنهج عبـــادتهم وهو الفيصل فى أمر المعاش والمعاد ([٥]) .

◆ ومن هنا أمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يعلن : (**إن الدين عند الله الإسلام**) ([٦]).

◆ فمن لقى الله بعد بعثة النبى الخاتم بدين على غير شـــريعة الإسلام فليس بمتقبل : (**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الأخرة من الخاسرين**) ([٧]).

◆ وأمره أن يخاطب أهل الكتاب وغيرهم قائلاً : (**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيناً وبيـــنكم ألا نعبـــد إلا الله ولا**

([٤]) سورة الحجر الآية ٩ .
([٥]) د / المسير / الرسالة والرسل صـ ٧٥ .
([٦]) سورة آل عمران الآية ١٩ .
([٧]) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولـــوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون) ([1]).

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم علـــيكم ألا تشـــركوا بـــه شـــيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحـــن نـــرزقكم وإياهم ولا تقربوا لفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) ([2]) .

◆ فالرسل جميعاً بناة بيت واحد يؤســـس ســـابقهم للاحقهـــم ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم فهم لبنات بناء عال وصرح مشيد يشد بعضه بعضاً **(اليوم أكملت لكم ديـــنكم وأتممـــت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)** ([3]).

ويقول – صلى الله عليه وسلم – : **(إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويـــة**

([1]) سورة آل عمران الآية ٦٤ .
([2]) سورة الأنعام الآية ١٥١ .
([3]) سورة المائدة الآية ٣ .

فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هـــذه اللبنة قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء) [٤].

ومن هنا لم تأت رسالة سيدنا محمد – صـــلى الله عليــه وسلم – بإنشاء دين جديد ولكنها إنضمام إلى موكب المسلمين على وجه الكون والتاريخ .

وبعد أن استعرضنا تعريفات وبعض سمات وخصائص الدين الإلهى على النحو السالف والتى تؤكد تميزه وتفـرده عـن غيره من الأديان الباطلة ننتقل الآن إلى استعراض تعريــف الدين الوضعى وسماته وخصائص حتى تكتمــل الصـــورة ويتضح الفارق الكبير بين دين الله الحـق وديــن الشــرك والأصنام والأهواء .

ثانياً : الأديان الوضعية وخصائصها :

وقبل أن أتناول الأديان الوضعية من ناحية التعريــف ومــن ناحية السمات والخصائص أشير إلى أن الأديان الوضـــعية تسمى بعدة تسميات :

([٤]) صحيح البخارى جـ ٢ صـ ٢٧٠ ومسلم جـ ١٥ صـ ٥١ .

- منها ما هو شائع ومشهور كالتسمية بالأديان الوضعية .
- ومنها ما هو نادر كالتسمية بالأديان الأرضية فى مقابل الأديان السماوية .
- ومنها ما هو محل توارد كالتسمية بالأديان الإنسانية فى مواجهة الأديان الإلهية .

وهذه الأديان الأرضية منها :

١- **أديان بشرية خالصة** : وهى مجموعة المعانى والقوانين والتعاليم التى صاغها بشر توسموا فى أنفسهم ملكات القيادة والزعامة وطالبوا الناس بإعتناقها وإعتقاد صحتها والقيام عليها بحيث تكون هى عقيدة وعبادة معاً وهى بشرية خالصة لا علاقة لها بوحى أو أصول دين سابق كالديانة البرهمية فى الهند والديانة البوذية فيها وفى شرق آسيا وديانة قدماء المصريين والديانة الفارسية القديمة وغيرها فهى ديانات بشرية خالصة ([1]).

([1]) د / محمد حسينى الغزالى : حفيف الأفنان صـ ٢٠٠ / ٢٠١ وانظر د/ عوض الله حجازى مقارنة الأديان صـ ١١ .

٢- **أديان محرفة** : وهى التعاليم والمبادئ والمؤتمرات التى قامت على تحريف الدين الإلهى بالإضافة إليه والزيادة عليه والتبديل من أحكامه بما يقضى على معالم التوحيد والتنزيه الإلهى ويوضح أنها من وضع بشرى وإن تسمت بالدين السماوى كالمسيحية التى قامت على أنقاض النصرانية واليهودية التى قامت على أكتاف الموسوية .

٣- **أديان ملفقة** : وهى التى قامت على مجموعة من المبادئ والقوانين الفكرية البشرية وفى بعضها ظواهر أو شواهد لتعاليم سماوية فهى من حيث الأصل ليست سماوية ومن حيث المظاهر والشواهد تدعمها سلوكيات فيها نغم سماوى على سبيل الإقتباس منها بغير إشارة إليه ([٢]).

وربما نرى ذلك فى تعاليم كونفشيوس حكيم الصين الأكبر الذى كان يدعو إلى الأخلاق الفاضلة والتسامح والإحسان والصفح والعفو وبر الوالدين والإحسان إلى الفقراء والعطف على الضعفاء .. ووضع مجموعة من النظم والتشريعات

([٢]) حفيف الأفنان صـ ٢٠١ .

تتعلق بإصلاح القوانين والتعاليم وكان يهتم بتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك حتى يُوجِد مجموعة من الرجال ذوى الفضل([1]).

وهو نوع من التلفيق إذ لم ينادى بمذهب فلسفى أو فكرة أخلاقية وإنما إعتبر نفسه صاحب دين يجب إتباعه حتى ولو خالفه الآخرون .

ومن هذا النوع : الصهيونية التى لفقت صورة للديانة اليهودية وبات الجميع لا يقبلون عليها ، أما لماذا ؟ فلأن الصهيونية يخفون الملابس الصهيونية القذرة والفجة تحت ثياب طاهرة ومقدسة ولذلك فإنهم لا يسيرون على هدى تعاليم الدين والشريعة اليهودية الحقة ([2]).

إذن الأديان الأرضية متعددة وذات أنماط مختلفة وبعضها مذاهب فلسفية أو أخلاقية وبعضها تصورات عقلية

([1]) المصدر السابق نقلاً عن د/ صفوت حامد مبارك : مدخل لدراسة الأديان صـ ٤٠ .

([2]) المصدر السابق نقلاً عن د / رشاد عبد الله الشامى : القوى الدينية فى إسرائيل صـ ١٢٥ سلسلة عالم المعرفة العدد ١٨٦ .

وبعض آخر يمثل صورة لنواح سيكولوجية وكل هذا تحـت إسم **الأديان الوضعية** ، يندرج وباسم الأديان الأرضية يصح أن يعلم ويخبر عنه .

ونشير فيما يلى إلى تعريف الأديان الوضـعية وسـماتها وخصائصها .

١- تعريف الأديان الوضعية :

يقول أستاذنا الدكتور عوض الله حجازى عن تعريـف الدين الوضعى :

" **الدين الوضعى** : هو الدين الذى يكون من صـنع البشـر أنفسهم وهو عبارة عن مجموعة من المبادئ والقوانين العامة وضعها بعض الناس المستنيرين لأممهـم ليسـيروا عليهـا ويعملوا بما فيها والتى لم يستندوا فى وضعها إلـى وحـى سماوى ولا إلى الأخذ عن رسول مرسل وإنما هى جملة من التعاليم والقواعد العامة إصطلحوا عليها وساروا على منوالها وخضعوا فيها لمعبود معين أو معبودات متعددة .

أما الدين السماوى : فهو تعاليم إلهية من وضع الله تعـالى وإرشادات سماوية من لدن العليم الخبيـر بنفـوس العبـاد وطبائعهم وما يحتاجون إليه فى إصلاح حالهم فى المعـاش والمعاد والدنيا والآخرة إنه مجموعـة التعـاليم والأوامـر والنواهى التى يجئ بها رسول من البشر أوحى الله تعالى بها إليه .

وفى مقدمتها : الإيمان بخالق واحد موجد لهذا الكـون ولا شريك له فى ملكه يجب صرف العبادة كلها له والخضـوع والتذلل لهذا الإله الخالق الرزاق ووجوب إفراده تعالى وحده بالعبادة والإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء والثواب فى الجنة والنعيم المقيم أو النار والعذاب الأليم " ([1]).

توحيد الربوبية
توحيد الألوهية

٢- سمات الأديان الوضعية وخصائصها :

للأديان الوضعية - كما أشـرنا - سـمات وخصـائص تميزها عن الدين الحق الدين الإلهى وقد ذكر الدكتور عوض

([1]) مقارنة الأديان صـ ١١ ، ١٢ وراجع تعريفات الدين عند علماء الأديان فى مبحث تعريف الدين فى الاصطلاح .

الله حجازى عدداً من الفروق بين الدين الوضعى والدين السماوى وهى تتضمن سمات وخصائص كلا منهما ، من هذه الفروق ما يأتى :

١- أن **الدين السماوى** دين قائم على وحى الله تعالى إلى البشر بواسطة رسول يختاره الله منهم .

أما **الدين الوضعى** فهو جملة من التعاليم وضعها البشر أنفسهم واتفقوا عليها واصطلحوا على التمسك بها والعمل بما فيها إنه تعاليم ناشئة عن تفكير الإنسان نفسه.

٢- **الدين السماوى** يدعوا دائماً إلى وحدانية الله تعالى وإختصاص هذا الواحد بالعبادة فلا يخضع المرء إلا لله ولا يستعين إلا به ولا يذبح إلا بإسمه جل شأنه .

أما **الدين الوضعى** فإنه يقدس الأحجار والأصنام ويجيز تعدد الآلهة فيجعلها كثيرة ومتغايرة بل قد تكون متنافرة ومتخالفة مثل إله الخير وإله الشر أو إله الحرب وإله السلم..الخ .

٣- **الدين السماوى** ينزه الإله المعبود عن مشابهته لخلقه فالله عز وجل لا يشبه شيئاً من مخلوقاته لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله قال تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

أما **الدين الوضعي** فإنه يجيز أن يكون الإله بشراً مثلهم أو حيواناً أو حجراً يعبدونه ويخضعون له ويقدمون له القرابين والهدايا فقد عبد بعض الناس الشمس وعبدوا العجل واتخذوا فرعون الذى قال لهم (أنا ربكم الأعلى) إلهاً وعبدوا الأصنام والأوثان .

ولا يزال بعض الناس حتى هذا القرن عصر العلم والحضارة والمدنية يقدسون بعض الأشخاص ويتقربون إليهم ويعبدون البقر والغنم كما هو حاصل الآن فى الهند وغيرها.

٤- **الدين السماوى** بالنسبة لمسائل العقيدة غير قابل للنسخ والتبديل أو التغيير فعقيدة الرسل جميعهم واحدة فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته والرسل وعصمتهم واليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب وعقاب .. وهذا قدر مشترك بين جميع الأديان السماوية .

أما الدين الوضعي فالمعبود فيه قد يتغير من جيل إلـــى جيل ومن قبيلة إلى أخرى .

٥- **الدين السماوى** دين كامل وتام وشامل لأنه من وضـــع خالق السماوات والأرض علام الغيوب الذى لا تغيب عنـــه صغيرة ولا كبيرة والذى يحيط بكل شئ علما .

أما الدين الوضعي فيلازمه النقص وعدم الكمال ذلك أنه من وضع الإنسان والإنسان لا يمكنه أن يحيط بجميع حاجات البشر ومتطلباتهم المتجددة دائماً ([1]).

ولمزيد من إلقاء الضوء على سمات وخصـــائص الأديـــان الوضعية نقول :

◆ إن الأديان الوضعية ليست من عند الله تعالى وبالتالى فهى لا تستند إلى وحى سماوى معصوم إذن فهى منســـوبة إلـــى الأرض لا إلى السماء إلى الوضع لا إلى الإنزال الســـماوى ولأنها من عند غير الله فقد طبعـــت بطـــابع مـــن أنشـــأها ووضعها ومجرد نظرة عابرة فى تعاليم الأديـــان الوضـــعية يتكشف للناظر عورها وإضطرابها وتناقضـــها وإختلافهـــا

([1]) د/ عوض الله حجازى مقارنة الأديان صـ ١٢ ـ ١٤ .

سواء على المستوى الديانة الواحدة من حيث المبادئ وطرق التطبيق والتناقض بين السلوك الواقعى والأفكار النظرية وهذا الإختلاف كبير جداً لا يمكن الجمع بين أطرافه ولعل هذه السمة قد نبه إليها القرآن الكريم حين تنزه عن الإختلافات القليلة والكثيرة والمح إلى أن الأديان التى من عند غير الله سماتها الإختلاف البين قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كانوا من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً) ([1]) .

" لو كان القرآن من كلام البشر كما زعم الكفار لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً تناقض المعنى وتفاوت النظم وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض على ما دل عليه الإستقراء لنقصان القوة البشرية "([2])

وبالتالى فإن وجود الإختلاف فى الأديان الوضعية دليل صريح على أنها ليست من عند الله مع الأخذ فى الإعتبار أن

([1]) سورة النساء الآية ٨٢ .

([2]) الشيخ / اسماعيل حقى البروسوى : تنوير الأذهان من تفسر روح البيان جـ ١ صـ ٣٥١ نقلاً عن حفيف الأفنان د/ محمد حسينى الغزالى صـ ٢٠٥ .

الأديان الوضعية تتخالف فيما بينهـــا : فالهندوســـية ليســت كالبوذية والمانوية ليست كالمزدكية وإنما يجمع بينهم جميعاً أنها قواعد نظرية وتطبيقات خيالية ومبـــادئ أوليـــة بحيــث يصعب الجمع بينها على جهة مقبولة .

◆ الأديان الوضعية الإلهية فيها متعددة بل فى كل ديانة نرى عدداً من الآلهة ففى أرض الهند على سبيل المثال ظهــرت كثرة من الآلهة .. كما أن الآلهة فى الأديان الوضــعية مــع كثرتها فهى متغايرة وخصائصها تتخالف وتتنافر إله الخيــر وإله الشر إله الحرب وإله السلم إلى النور وإله الظلمة وقــد يكون المقدس عندهم حجر أو شجر أو صنم أو وثن أو برق أو مطر وقد يكون المقدس إنسان أو حيوان المهم أن المقدس عندهم متعدد وليس واحد - كما سيأتى -

◆ التجسيد والتمثيل للآلهة المزعومة من الســمات البــارزة للأديان الوضعية فقد صارت فيها الآلهــة أناســى كثيــرين يأكلون ويشربون ويُضربون ويُغلبون ويصحون ويمرضـــون ويخونون ويكذبون إنهم يعبدون آلهة فيهم البشرية أو صورة للحيوانية وربما كانت أحجاراً تعبد أو أصناماً تذل لها الجباة وتخضع أمامها الرؤوس بل ربما كانت الآلهــة مخلوقــات

علوية وما ذلك إلا لأنها ظواهر مادية فيها الجسمية والمماثلة كما قدموا لتلك الآلهة القرابين والهدايا وذبحوا لها وخضعوا لأوامرها ونواهيها الخيالية حتـــى صـــارت تلــك الأعمـــال أساطير موروثة تهتز حيناً فتسقط من عليائها وتقوى حولهـــا الترميمات فتثبت بعض الوقت فى مكانها ولو عاد إليها نقدها لانكبت على وجهها . كما حدث أن إهتزت الصورة الإلهيـــة الموروثة عند اليونان وترنحت عقيدتهم الراسخة أمام النشاط العلمى الواسع فى البحث عن معنى العادات الدينية ومفهـــوم التصورات الميتافيزيقية ([1]).

- الأديان الوضعية من سماتها سرعة التغير وهـــذا التغيـــر دليل النقص فى المعلومات فهى متغيرة ولا ثبات فيها لا فى أفكارها ولا فى عقائدها وسلوكياتها .

- الأديان الوضعية لا تسمع إلا لصوت العقل وحده رغم أن عقول البشر قاصرة وغير معصومة ولا يمكنها الخوض فى غير مجالات الحس فالعقل ميدانه الطبيعة وحدها أمـــا مـــا وراءها فتلك غيبيات لا مجال فيهـــا إلا للـــوحى المعصـــوم فالأديان الوضعية بفقدها خاصية الإتصال بالوحى تكون قـــد

([1]) د / محمد عبد الغنى شامة / بحوث فى عالم الأديان المقارنة صـــ ٢٨نقلاً عن حفيف الأفنان صـ ٢١١ .

فقدت دعامة أساسية ومن ثم سقطت فى عثرات لم تقم لهـا بعدها قائمة .

◆ الأديان الوضعية فيها النقص من جميع الجهات والـنقص فى الأديان الوضعية كما يأتى من ناحية مبادئها وتشـريعاتها فإنه يأتى كذلك من ناحية مسألة الثـواب والعقـاب فالـدين الوضعى لا تبدوا فيه مسألة الثواب أو العقاب لأن الإلـه أو الآلهة التى تعبد من دون الله تعالى يحدث لها تغير وتطـور من جيل إلى جيل ومن قبيلة إلى قبيلـة ومثـل هـذا الإلـه المزعوم غير منزه عن النقائص بل إن هؤلاء الآلهـة قـد أحاطت بهم مناقصهم من كل حدب وصوب فكيف يتأتى لهم أن يحاسبوا الناس على أعمالهم بالخير خيراً والشر شراً ؟

كما أن الأديان الوضعية فيها من النقص ما يجعلها غير قادرة على الإحاطة بجميـع حاجـات البشـر ومتطلبـاتهم المتجددة دائماً (٢) (٣) .

---

(٢) راجع د/ عوض الله حجازى عند الحديث عن سمات الدين الوضعى وقد تقدم .

(٣) وقد اقتبسنا معظم العبارات السابقة من كتاب حفيف الأفنان د/ محمد حسينى الغزالى صـ ٢٠٤ وما بعدها .

وهكذا فإن الأديان الوضعية :

- ليست من عند الله وبهذا فقدت النسبة .
- ولا علاقة لها بالوحى وبهذا فقدت المصدر .
- ومن ثم قام بنيانها الهزيل فى المبنى والمعنى على تعـدد الآلهة فى الكم أو الكيفية وعلى التجسـيد والتمثيـل للآلهـة المدعاة وعلى سرعة التغير فى الأفكار والعقائـد والسـلوك وعلى سماع صوت العقل الذى لا يعقل والـذى لـو حـرر لتآخى مع الضمير وهتفا سوياً بأن (لا إله إلا الله) .

هذه بعض سمات وخصائص الأديان الوضـعية وسـيأتى عرض مفصل لبعضها فى المبحث القادم عن الحديث عـن صورة الإله فى الأمم والحضارات القديمة .

⚘⚘⚘⚘

المبحث السادس

فـــى

صورة الإله بين أمم الحضارات القديمة

المبحث السادس
فى
صورة الإله بين أمم الحضارات القديمة

لا نريد فى هذا المبحث أن نتتبع كافة تصورات الأمم القديمة لمعبودهم وإنما نجتزئ منها بالنماذج الدالة عليها فيما هبطت إليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه ، وغايتنا مــن وراء ذلــك أن نحيط علماً بما وقعت فيه الأمم الهالكة من إنحراف وضلال كــى نعلم قيمة ديننا العظيم فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتميــز الأشياء ورضى الله عن الفاروق حيث قال : " توشك أن تــنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإســلام مــن لا يعــرف الجاهلية ".

فالإنسان لا يدرك ضرورة هذه الرسالة الخاتمة وضــرورة هذا الإنفكاك عن الضلالات التى كانت البشرية تائهة فى ظلماتها وضرورة الإستقرار على يقين واضح فى أمر العقيدة حتى يطلع على ضخامة ذلك الركام وحتى يرتاد ذلــك التيــه مــن العقائــد

والتصورات والفلسفات والأساطير والأفكار والأوهام والشعائر والتقاليد والأوضاع والأحوال التى جاء الإسلام فوجدها تـرين علي الضمير البشرى في كل مكان وحتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد التى كانت تتخبط فيها بقايا العقائد السماوية التى دخلها التحريف والتأويل والإضافات البشرية إلى المصادر الإلهية والتى إلتبست بالفلسفات والوثنيات والأساطير سواء ([1]) .

ويغنينا فى ذلك أن نقدم بعض شواهد من تصورات الأمم الهالكة فى الحضارات القديمة للإله وهى شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتفصيل وهى على النحو التالى :

١- فى الحضارة الهندية القديمة (فى التفكير الهندوسي والجينى والبوذى) .

٢- في الحضارة اليونانية (الفلسفة الأرسطية - وفى شعائر الكهان والمتعبدين) .

([1]) أ / سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته صـ ٢٤ .

أولاً : صورة الإله فى الحضارة الهندية القديمة :

يحدثنا الأستاذ العقاد بإيجاز عن صورة الإله فـــى الحضـــارة الهندية فيقول :

" فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعابدها على طوائف مـــن الأرباب :

منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة .

ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب .

وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا إليـــه بالبغـــاء المقـــدس وسفك الدماء .

وقد إنتهت هذه الأرباب المتعددة إلى الثالوث الأبـــدى الـــذى إشتمل على ثلاث من الصور الإلهية هى :

الإله " براهما " فى صورة الخالق .

والإله " فشنو " فى صورة الحافظ .

والإله " سيفا " فى صورة الهادم .

فجعلوا الهدم والفساد من عمل الإله الأعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده فى تلك الصورة .

وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل إله قريناً يسمونه " الشاكتى" أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون إليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو صاحبها .

فهذه الأرباب صور لا تتباعد المسافة بينها وبين صورة الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة المعهودة فى أقدم الديانات... " (1) .

وبشئ من التفصيل نتناول فيما يلى الإله فى التفكير الهندوسى والجينى والبوذى .

(أ) الإله فى التفكير الهندوسى :

يتجه التفكير الهندوسى فيما يختص بالإله إلى نزعة التعدد غالباً وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغاً كبيراً فقد كان عندهم لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعبدونه ويستنصرون به فى الشدائد

---

(1) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ٤١ – ٤٢ .

كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها وكانوا يدعون تلك الألهة لتبارك لهم فى ذريتهم وأموالهم من المواشى والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم ([2]) .

يقول غوستاف لوبون : وهيهات أن تجد هندوسياً لا يعبد عدداً من الألهة فالعالم عنده زاخر بها حتى أنه يصل للنمر الذى يفترس أنعامه ولجسر الخط الحديدى الذى يصنعه الأوروبى وللأوروبى نفسه عند الإقتضاء ([3]) .

◆ **عبادة الحيوانات ومظاهر الطبيعة :**

وقد عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة كما عرفوا عبادة قوى الطبيعة وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق وفى العصور الآرية إندمج هذا الإله فى الإله الذى تكون منه الثالوث الهندى .

([2]) د / أحمد شلبى أديان الهند الكبرى صـ ٤٧ ـ ٢٠٩ .
([3]) حضارة الهند صـ ٣٦٨ نقلاً عن المصدر السابق صـ ٢٠٩ .

وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمى أو عن إعتقادهم بأن الله يتجلى فى بعض الأحياء فيحل فيها فيحتمل حلوله فى هذا الحيوان أو ذاك أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة([١]).

وقد كان للبقر من بين الحيوانات قدسية خاصة نشير إليها أولاً ثم إلى آلهة الهنود من الظواهر الطبيعية ثانياً .

◆ عبادة البقرة:

من بين المعبودات سالفة الذكر حظيت البقرة فى الهند بأسمى مكانة وهى من المعبودات الهندية التى لم تضعف قداستها مع كر السنين وتوالى القرون ففى " الويدا " حديث عن قدسيتها والصلاة لها ولا تزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهذه القدسية .

◆ صلاة إلى البقرة:

أيتها البقرة المقدسة لك التمجيد والدعاء فى كل مظهر تظهرين به أنتى تدرين اللبن فى الفجر وعند الغسق أو عجلاً صغيراً أو ثوراً

([١]) د / أحمد شلبى / أديان الهند الكبرى صـ ٢٩ .

كبيراً فلنعد لكى مكاناً واسعاً نظيفاً يليق بك وماءاً نقيــاً تشــربينه لعلك تنعمين بيننا بالسعادة ([٢]) .

أما رأى " المهاتما غاندى " فى عبادة البقر والذى جاء بعنوان " أمى البقرة " فننقل منه لمحات فيما يلى :

" إن حماية البقرة التى فرضتها الهندوسية هى هدية الهنــد إلــى العالم وهى إحساس برباط الأخوة بين الإنســان وبــين الحيــوان والفكر الهندى يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهى كذلك فى الحقيقــة إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندى وهى خير حماية للهنــد .. عندما أرى بقرة لا أعدنى أرى حيواناً لأنى أعبد البقرة وســأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع ..

وأمى البقرة تفضل أمى الحقيقية من عدة وجوه فــالأم الحقيقيــة ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائماً ولا تطلب منا شيئاً مقابــل ذلك سوى الطعام العادى . وعندما تمرض الأم الحقيقيــة تكلفنــا

([٢]) نفسه صـ ٢٩ – ٣٠ .

نفقات باهظة ولكن أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئاً ذا بال وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهى حية لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون .

أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم ولكن لأبين السبب الذى دعانى لعبادة البقرة . إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسى واحداً من هؤلاء الملايين " ([1]) .

أما عن آلهة الهنود من الظواهر الطبيعة والتى تظهر فيها نزعة التعدد فنشير إليها فيما يلى :

◆ **الآلهة من الظواهر الطبيعية :**

وارونا : إله السماء .

أندرا : إله الرعد الذى يسبب الأمطار وكانت له الغلبة فيما بعد .

([1]) د / أحمد شلبى / أديان الهند الكبرى صـ ٣٢ – ٣٣ .

الشمس : وكانت تعبد فى خمسة أشكال فتعبد لذاتها باسم (سورية) .
وتعبد كمصدر للإنتعاش باسم (ساوترى) .
وتعبد لتأثيرها فى نمو الحشائش والنباتات باسم (بوشان) .
وتعبد كبنت السماء باسم (مترا) .
وأخيرا باسم (وشنوا) أى النائب عن الشمس ثم إستقل وشنو فعبد لذاته .

أغنى : إله النار .

أوشا : إله الصبح .

رودرا : إله العواصف .

بارجانيا : إله المطر والمياه والأنهار .

وايو ، وانو : إله الرياح .

إن هذه الديانة توزع الآلهة الكثيرة حسب المناطق وحسب الأعمال التى تناط بهذه الآلهة فلكل منطقة إله ولكل عمل أو ظاهرة إله [٢] .

---

(٢) المصدر السابق صـ ٣٣ .

<u>(ب) الإله فى التفكير الجينى :</u>

كانت الجينية نوعاً من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة ومن هنا لم يعترف " مهاويرا " زعيم الجينية بالآلهة فالإعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يكونون صلة بين الناس والآلهة وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ومن هنا سمى هذا الدين دين إلحاد واتجهت الجينية إلى الإعتقاد بأن كل موجود إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً يتركب من جسم وروح وأن كل روح من هذه الأرواح خالدة مستقلة يجرى عليها التناسخ الذى اتفقت فيه الجينية مع الهندوسية .

هذا هو أساس الفكر الجينى تجاه الأله .

غير أن العقل البشرى يميل إلى الإعتراف بإله ويحتاج الإلحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التى يحتاجها إثبات الآلهة ومن هنا وجد فراغ كبير فى الجينية بسبب عدم إعتراف "مهاويرا" بإله يكمل به صورة الدين الذى دعا إليه وكان من نتيجة ذلك أن اعتبرد اتباعه

إلهاً بل عدوا الجيناوات الأربعة والعشرين آلهة لهم ولعلهم بـذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندى الذى يميل فى الأكثـر إلـى تعـدد الآلهة([1]) .

وبسبب هذه المسألة – أى عدم إعتـراف مهـاويرا بإلـه – إعترف الجينيون بآلهة الهندوس فيما عدا الثـالثوث (برهمـا – وشنو – سيفا) وكانوا فى بادئ الأمر – كما يظهر من كتـبهم – يعترفون بآلهة الهندوس للهندوس ويحترمونها للمجاملة والمسالمة ولكنهم عادوا فأجلُّوها لذاتها وإن لم يصلوا فى إجلالها إلى درجة الهندوس بطبيعة الحال .

وعدم الإعتراف بالآلهة إستتبع عند الجينيين إتجاهات مهمـة سلبية تتعلق بالعقائد فهم لا يقولون بالصلاة ولا بتقديم القرابين ولا يعترفون بالطبقات ولا بما تدعيه الطبقـات العليـا فـى النظـام الهندوسى وهى طبقة البراهمة مـن إمتيـازات ومزايـا ولكـن المجاملة والمسالمة التى دفعت الجينيين إلـى الإعتـراف بآلهـة

---

(1) أديان الهند الكبرى صـ ١١٤ – ١١٥ ، ٢١١ – ٢١٢ .

الهندوس – كما أشرنا آنفـاً – دعـتهم هنـا إلـى الإعتـراف بالبراهمة... ([1]) .

(جـ) الإله في التفكير البوذي :

إختلفت آراء الباحثين حول موقف " بوذا " من قضية الألوهية .

- **فبعضهم** يرى أن بوذا لم يتعرض للبحث في الألوهية بسلب أو إيجاب وأن مذهبه إصلاحي إجتماعي خلقي أكثر منه ديني وممن يمثلون هذا الإتجاه الشيخ محمد أبو زهرة .
- وبعضهم يرى أن "بوذا" أنكر البحث في الألوهية وأنـه كـان ينهى أصحابه وزواره عن الخوض في هذه الأبحاث بل إنه سخر ممن يقولون بوجود إله وممن يمثلون هذا الإتجاه الدكتور / أحمد شلبي .

ونعرض الإتجاهين فيما يلي :

الإتجاه الأول :

يقول الشيخ أبو زهرة : " ثبت أن "بوذا" كان عاكفاً على دراسـة واحدة هي التي جعلها عماد نظره وقوام بحثه والأساس الذي بني

([1]) المصدر السابق صـ ١١٥ بتصرف .

عليه ديانته أو بعبارة أدق مذهبه الخلقى وتلك الدراسة كانت موضوعها تخفيف ويلات الإنسانية والقضاء على الشقاء فى هذه الحياة أو إجتثاثه من أصله.

وقد زعم بعض المؤرخين أنه روى عن "بوذا" أنه أنكر وجود إله قد أنشأ الأكوان ويقولون أنه كان يقول : وما الإله ؟ أهو العناصر نفسها ؟ لئن كان ذلك ما كان فى الأمر جديد غير وضع إسم على شئ ويقول أنصار ذلك : أنه كان يعتقد أن فى العالم فقط روحاً عاماً متغلغلاً فى كل شئ (٢) .

ويقول : وأن الذى نعتقده أن "بوذا" لم يتعرض للبحث فى الألوهية بسلب أو إيجاب وأن مذهبه إصلاحى إجتماعى خلقى أكثر منه دينى ولذا لم يتعرض للاهوت ولعل الرواية التى وردت فى بعض الروايات كانت فى أثناء حيرته وهو منهمك فى الأدغال والأحراش هائم على وجهه طالباً للحقيقة بل إن العبارة يبين من لحنها وإستفهامها أنها عبارة شاك متحير لا عبارة منكر جاحد .

---

(٢) الديانات القديمة صـ ٦٩ .

إن أولئك الذين يعتمدون على تفكيرهم الخاص فى الوصول إلـى الحقيقة يعتريهم مثل ذلك الإضطراب .

والمذهب لا يؤخذ من قول المفكر عند حيرته ولا من عبـارة تلقف عنه بل المذهب ما يستقر عليه الشخص ويتجه إليه يـدعو الناس لإعتناقه ولم يدع أحد أن ذلك كان جزءاً من مذهبه وآراءه دعا الناس إليه بل إن منتحلى نحلته كانوا جميعاً يؤمنـون بقـوة مسيطرة على العالم ولم يمنعهم ذلك من أن يجمعوا بين عقيـدتهم ومذهبه وإذا كان من متبعيه من نحله أوصاف الإله فـذلك دنيـل يظن أنه ليس من دعايته إنكار الإله " ([1]) .

<u>الإتجاه الثانى :</u>

يقول الدكتور / أحمد شلبى : " لم يعن " بوذا " بالحـديث عـن الإله وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو عن القضايا الدقيقة فى الكون إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على الإله ويرى أن الإنسان صانع مصـيره.

([1]) الديانات القديمة صـ٧٠ .

من كلماته فى ذلك : " كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفاً ولا تعتصموا بملاذ خـــارجى ولا تحتمـــوا بغير أنفسكم .

وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا فى هـــذه الأبحـــاث ويوبخهم على سؤالهم عن مثل هذه القضايا ويؤمرهم بـــالخوض فى أعمالهم ودواعيها وميولهم وعواطفهم وعواملها وقد سأله أحد مريديه مرة هل الذات موجودة ؟ فسكت ، فسأله : هـــل الـــذات موجودة ؟ فظل ساكتاً . فسأله : هل هذا الكون دائم أم غير دائم ؟ وأخيراً قال بوذا لهذا المريد: هل قلت لك جئنى أعلمك عن الذات وعن الكون ؟ لا لم أقل هذا أيها المريدون لا تفكروا كمـــا يفكـــر الناس بل فكروا هكذا : هذا ألم هذا مصدر الألم هذا إعدام الألـــم هذا سبيل إعدام الألم .

وقد وقف " بوذا " فى إحدى خطبه يســـخر ممـــن يقولـــون بوجود الإله وكان مما قاله فى ذلك : إن المشايخ الذين يتكلمـــون عن الله ولم يروه وجهاً لوجه كالعاشق الذى يذوب كمداً وهـــو لا

يعرف من هى حبيبته أو كالذى يبنى السلم وهو لا يـدرى أيـن يوجد القصر أو كالذى يريد أن يعبر نهراً فينادى الشاطئ الآخـر ليقدم له .

ومن أجل إهمال " الإله " أو الإتجاه إلى نكرانه أحياناً إتجـه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الإلحاد .

والإيمان بإله إتجاه نفسى قوى لا يقل عن قوة الغرائـز فـى البشر وإهمال هذا الإتجاه يحدث إرتباكاً وإضطراباً ومن أجل هذا نجد أتباع " بوذا " من بعده يفكرون فى "الإلـه" ويعملـون علـى الوصول إليه أو التعرف عليه ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خالياً فقد لعبت بهم الأهواء فاتجه بعضهم إلى الإعتقـاد أن بـوذا ليس إنساناً محضاً بل أن روح الله قد حلت به وهذه العقيدة تشـبه عقيدة الحلول التى يعتنقها بعض المسيحيين فى السـيد المسـيح فيقولون أن شخصيته ثنائية : لاهوتية وناسـوتية وأن الشخصـية اللاهوتية حلت بالناسوت وتسربت هذه العقيدة أيضاً إلى مـدعى التشيع فقالوا بها فيما يتعلق بعلى بـن أبـى طالـب وعـاقبهم

– رضى الله عنه – بما يستحقوه بل ذهب بعض البـوذيين إلـى القول بأن بوذا كائن لاهوتى هبط إلى هذا العالم لينقذه.مما فيه من شرور وقد تسـربت هـذه العقيـدة كـذلك لـبعض الطوائـف المسيحية"([1]).

إمتزاج البوذية بالهندوكية :

بقى موضوع خطير يتصل " بالإله " عنـد " بـوذا " فاتجاهـات البوذية الخلقية واللاعقائدية سببت سرعة إنتشار البوذية فى الهند لسهولة هذه الإتجاهات ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس وعلـى هذا كان كثير من الهنود يتبعون البوذية فى أخلاقها ويظلون مـع ذلك على ولائهم لآلهة الهندوس ومن هنا بدأت البوذية تختلط فى مظاهرها بالهندوسية وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عـدم الإعتراف بالإله يعترفون بالآلهة الهندوكية ويتقربون إليها لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة لها بل كانـت خليطـاً منهـا ومـن الهندوسية ومن هنا أخذت البوذية تتلاشى من الهند شـيئاً فشـيئاً

([1]) أديان الهند الكبرى صـ ١٦٧ – ١٦٩ ، ٢١٢ – ٢١٣ .

ويندمج أتباعها فى تقاليد الهندوسية وطقوسها وآلهتهـا ووضـع البوذيون الذين قالوا بأن بوذا كائن إلهى تمثال بـوذا بـين آلهـة الهندوس ولم يعارض الهندوس لأن العقل الهندى لا يضـيره أن ينضم إله جديد إلى ما يعترف به من آلهة وبمرور الـزمن ذاب تمثال بوذا بين الآلهة الكثيرة وذاب أتباع البوذية بين الهندوس فلم يعد للبوذية شأن فى شبه القارة الهندية وبجوار تمثال بوذا إنتعش آلهة آخرون فى البلدان الأخرى التى دخلتها البوذية فظهـر فـى اليابان تمثال الإله " شنتو " وفى الصـين ظهـر تمثـال الإلـه "تاوتم"(١).

ثانياً : صورة الإله فى الحضارة اليونانية :

(أ) صورة الإله فى الفلسفة الأرسطية :

الإله عند " أرسطو " يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ويتنـزه عـن الإرادة لأن الإرادة طلب فى رأيه والله كمال لا يطلب شيئاً غيـر ذاته ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسـبها مـن علـم

(١) نفسه صـ ١٦٩ .

العقول البشرية ولا يعني بالخلق رحمة ولا قسوة .. لأن الخلــق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه ([٢]) .

(ب) **صورة الإله في شعائر الكهان والمتعبدين :**

أما التنزيه الفلسفي فيكاد يكون خيالاً جامحــاً بالنســبة إلــى العقائد الإلهية التى كانت فاشية بين الكهانِ والمتعبدين من أبنــاء اليونان .

فلا شك أن صورة " جوبيتر " رب الأرباب عندهم كانت أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنــزهين .. فقــد كان " جوبيتر " حقوداً لدوداً مشغولاً بشهوات الطعام والغــرام لا يبالى من شئون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعينــه علــى حفــظ سلطانه والتمادى فى طغيانه .

وكان يغضب على " أسقولاب " إله الطب لأنه يداوى المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلــون مــن ظهر الأرض إلى باطن الهاوية .

([٢]) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ٣٧ .

وكان يغضب على " برومثيوس " إله المعرفة والصناعة لأنه يعلّم الإنسان أن يستخدم النار فى الصناعة وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلـم يقنـع بموته ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة بل تفنن فى إختراع ألـوان العذاب له فقيده إلى جبل سحيق وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار حتى إذا جن الليل عادت سليمة فى بدنه لتعـود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس ... ولا يزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء .

ومما رواه الشاعر الفيلسوف " هزيود " عن علة غضب الإله " جوبيتر " على " برومثيوس " أنه قسم له نصيبه من الطعام فـى وليمة الأرباب فأكثر فيه من العظام وأقل فيه من اللحوم والشحوم فاعتقد " جوبيتر " أنه يتعالى عليه بمعرفته وفطنته لأنه إشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشـتهر بهـا الإلـه الكبيـر " جوبيتر " .

ولا يغيب عنا ونحن نروى أخبار الإله الكبير منقولة عن " هزيود " أن هذا الشاعر الفيلسوف قد إجتهد قصارى اجتهاده فى تنزيه " جوبيتر " وتصويره للناس فى صورة من القداسة والعظمة تناسب صورة الإله المعبود بعد إرتقاء العبادة شيئاً ما فى ديانة اليونان الأقدمية .

ورغم ذلك فإن الرواة المختلفون روا عن " جوبيتر " أنه كان يخادع زوجته " هيرة " ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس فى مطلعها حذراً من هبوب زوجته الغيرة عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش " الأولمب " .

وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه " جانيميد " راعى الضأن الجميل الذى لمحه يوماً فى الخلاء فاختطفه وصعد به إلى السماء... فلم تتصل " جوبيتر " من تهمة الشغف بساقيه ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاء (١) .

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ٤٠ – ٤١ .

وبعد فقد تعرفنا على نمـــاذج وشـــواهد ملئـــى بالخرافـــات والسخافات التى لا يقرها العقل السليم فأديان الهند وفيمـــا يتعلـــق بالإله كما أشرنا نجد الفكر الهندى يتراوح بين التعدد كما هو شأن الهندوسية وبين الإنكار كما هو شأن الجينية أو الإهمال كما هـــو شأن البوذية فى بداية عهدها .

ففى الهندوسية تعددت الآلهة بكثرة كما عرفنا يعبـــدون الخـــط الحديدى ويعبدون الحيوانات ويصلون للبقرة ويعبـــدون مظـــاهر الطبيعة المتعددة بل إن الآلهة فى الهندوسية بلغت مـــن الكثـــرة لدرجة أنها توزع حسب المناطق وحسب الأعمال التى تناط بهذه الآلهة فلكل منطقة إله ولكل عمل أو ظاهرة إله .

والإله يطلب من سدنته أن يتقربوا إليه بالبغاء المقدس وســـفك الدماء والثالوث الأبدى الذى إشتمل على ثلاث من صور الإلهيـــة إله خالق أو موجد ، إله حافظ ، إله هادم أو مهلك .

وفى الجينية رأينا زعيمها رفض الإعتراف بالآلهة كرد فعـــل لسوء تصرف طبقة البراهمة وإستبدادهم فخاف مهـــاويرا زعـــيم

الجينية أن تتكون عندهم طبقة لاهوتية كالبراهمة إن قالوا بالإلــه فقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون واتجهــت الجينية إلى التناسخ الذى أتفقت فيه مع الهندوسية وقد ترتب على إنكار الجينية للإله أن إله الجينيون مهاويرا وإعترفوا أيضاً بآلهة الهندوس.

وفى البوذية عرفنا أن بوذا لم يهتم بالحديث عن الإله وكــان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هــو لا علــى الإلــه وأن الإنسان صانع مصيره وكان يسخر ممن يقولون بوجود إله ومــن أجل إهماله ونكرانه للإله إتجه براهمة عصره إلــى أن يصــموه بوصمة الإلحاد .

واتجه اتباع بوذا إلى تأليهه وأنه ليس إنساناً محضــاً بــل أن روح الله قد حلت به بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بــوذا كائن لاهوتى هبط إلى العالم لينقذه مما فيه من شرور وقد تسربت هذه الأفكار إلى بعض الطوائف المسيحية .

وانحدر الفكر الهندى إلى عبادة الأوثان ويعتبر علماء الأديان أن الوثنية نتيجة حتمية لإنكار الإله فكل دين ينبى على إنكار الإلـــه ينتهى بالفشل وسبب ذلك أن الناس مفطورون على الإيمان بـــالله وهم دائماً يفكرون فيمن خلق السماوات والأرض ومـــن يحيـــى ويميت فإذا خلت عقيدة من الإيمان بالله بادر أتباعهـــا فـــابتكروا الإله على النحو الذى يتفـــق مـــع ثقـــافتهم ومســـتواهم العقلـــى والعلمى([1]).

أما عن صورة الإله فى الحضارة اليونانية : نجد أرسطو – كمـــا مر – وصف الذات الإلهية بصفات أقرب إلى العدم منهـــا إلـــى الكمال فالله عنده يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ويتنزه عن الإرادة ويجل على علم الكليات والجزئيات ولا يعنى بالخلق رحمـــة ولا قسوة ...

([1]) أديان الهند صـ ١٩٧ – ١٩٨ بتصرف .

إنه كما يقول الأستاذ العقاد كمال مطلق لا يعمل ولا يريد أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء ([٢]) .

ويطرح العقاد سؤالاً : هل إستطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمو بالكمال الأعلى فوق مرتبته التى يستلهمها المسلم من عقيدة دينه ؟ ويجيب العقاد بقوله : نقول عن يقين : كلا فإن الله فى الإسلام إله صمد لا أول له ولا آخر وله المثل الأعلى فليس كمثله شئ وهو محيط بكل شئ .

ويطرح العقاد سؤالاً آخر: " هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية فى مذهب التنزيه ؟ والجواب كلا : بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة إذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح لأن صفات الإله التى تعددت فى عقيدة الإسلام لا تعدو أن تكون نفياً للنقائص التى لا تجوز فى حق الإله وليس تعدد النقائص مما يقتضى بتعدد الكمال المطلق الذى ينفرد ولا يتعدد .

([٢]) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ٣٤ .

فإن الكمال المطلق واحد والنقائص كثيرة ينفيها جميعاً ذلــك الكمال الواحد . وما إيمان المسلم بأن الله عليم قدير فعال لما يريد كريم رحيم إلا إيماناً بأنه جل وعلا قد تنزه عن نقــائص الجهــل والعجز والجحد والغشم فهو كامل منزه عــن جميــع النقــائص ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق ويريد لخلقه ما يشاء ومقتضـــى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك " العزلة السعيدة " التــى توهمهــا أرسطو مخطئاً فى التجريد والتنزيه فهو سعيد بنعمة كماله ســعيد بنعمة عطاءه كفايته لذاته العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلــق كفايتهم من الوجود فى الزمان أى من ذلك الوجود المحدود الذى لا يغض من وجود الله فى الأبد بلا أول ولا آخر ولا شــريك ولا مثيل .

إذاً للتنزيه الفلسفى الذى إرتقت إليه حكمة اليونان فى مــذهب أرسطو يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلــق ويخــرج لنـــا

صورة الإله لا تصلح للإيمان بها ولا للإقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح [1] .

ومن صفات الله فى الإسلام ما يعتبر رداً على فكرة الله فـــى الفلسفة الأرسطية فالله تعالى فى الإسلام موصوف بالكمال المطلق يقول عز وجـــل : (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) [2] .

(وهو بكل خلق عليم) [3] . (وما كنا عن الخلق غافلين) [4] .

(وسع ربنا كل شئ علماً) [5] .(ألا له الخلق والأمر) [6] .

(إنه عليم بذات الصدور) [7] .(فعال لما يريد) [8] .

---

[1] حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ٣٦ – ٣٧ – ٤٤ .
[2] سورة يونس الآية ٦١ .
[3] سورة يس الآية ٧٩ .
[4] سورة المؤمنون الآية ١٧ .
[5] سورة الأعراف الآية ٨٩ .
[6] سورة الأعراف الآية ٥٤ .
[7] سورة فاطر الآية ٣٨ .
[8] سورة البروج الآية ١٦ .

أما عن صورة الإله عند الكهان والمتعبدين من أبناء اليونـــان فقد عرفنا من قبل أن الآلهة عند اليونان آلهة متعـــددة تتصـــارع وتتقابل فــ " جوبيتر " رب الأرباب عندهم كـــان حقــوداً لــدوداً مشغولاً بالطعام والشراب والغرام أنانى ظـــالم مخـــادع خـــائن لزوجته يمارس اللواط .. فأى عقل يقر هذه السخافات والأوهـــام إنها كما يقول العقاد : إن صورة " جوبيتر " رب الأرباب عندهم كانت أقرب إلى صورة الشيطان منهـــا إلـــى صـــورة الأربـــاب المنزهين .

وشتان بين هذه الأديان الفاســدة التـــى صـــنعتها الخرافـــات والأوهام فغدت أساطير يتوارثها اللاحق عن السابق ممن فســدت فطرتهم وضلت عقولهم . شتان بينها وبين الدين الإلهى الصـــادر عن الله والقائم عن الوحى المعصوم فهو إذن دين صحيح المصدر صحيح النسبة إلى رب العالمين الذى يدعو البشـــر جمعيـــاً إلـــى عبادة إله واحد يخضع له الجميع بالعبادة والطاعة والإنقياد ويلوذ

الناس به وحده فهو الواحد من كل وجه الكامل عن كـل نقـص المتفرد بكل ما يريد لا شريك له ولا ند له ولا شبيه ولا نظير له **(قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)**

فالدين الإلهى ينزه المعبود سـبحانه وتعـالى عـن المكـان والحلول وعن مشابهة المخلوقات له أو مشابهتها له فهـو واحـد وهى متعددة وهو متفرد وهى متشابهة وهو كامل وهى عـاجزة وضعيفة وناقصة وهو مستغن وهى محتاجـة ولـذا فـإن الإلـه صاحب الجلال والكمال والجمال منزه فى ذاته وفى صفاته وفـى أفعاله **(ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)** هذا الـدين الإلهـى أصوله ثابتة لم تتغير على مدار الزمان تتعدد الرسـل والـوحى واحد فى جوهره كما هو واحد فى مصدره فهى رسالات متعاقبة بهدى واحد .

*****

المبحث السابع
في
صورة الإله عند اليهود

المبحث السابع
فى
صورة الإله عند اليهود

تمهيد :

لقد حفلت ديانة بنى إسرائيل – اليهودية – بالتصورات الوثنية وباللوثة القومية على السواء فبنوا إسرائيل – وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام – جاءتهم رسلهم – وفى أولهم أبوهم إسرائيل – بالتوحيد الخالص الذى علمهم إياه أبوهم إبراهيم ثم جاءهم نبيهم الأكبر موسى – عليه السلام – بدعوة التوحيد أيضاً مع الشريعة الموسوية المبنية على أساسه .

ولكنهم إنحرفوا على مدى الزمن وهبطوا فى تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات وأثبتوا فى كتبهم المقدسة وفى صلب العهد القديم أساطير وتصورات عن الله – سبحانه – لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية ولا كان لهم من عند الله كتاب .

ولقد كانت عقيدة التوحيد التى أسسها جدهم إبراهيم – عليه السلام– عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه قبل أن يموت :

(واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين قل هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم وأغفر لأبى إنه كان من الضالين ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من آتى الله بقلب سليم) ([1]).

([1]) سورة الشعراء الآية ٦٩ – ٨٩ .

(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد إصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قـال أسـلمت لـرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب المـوت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإلـه آبائـك إبـراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) (٢) .

ومن هذا التوحيد الخالص وهذه العقيـدة الناصـعة وهـذا الإعتقاد فى الآخرة إنتكس الأحفاد وظلوا فـى إنتكاسـهم حتـى جاءهم موسى – عليه السلام – بعقيدة التوحيد والتنزيـه مـن جديد والقرآن الكريم يذكر أصول هذه العقيدة التـى جـاء بهـا موسى – عليه السلام – لبنى إسرائيل – ويذكر تراجعهم عنها :

(وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالـدين إحسـاناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيمـوا الصـلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون وإذ أخذنا ميثاقكم

---

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٠ ـ ١٣٣ .

لا تسفكون دمائكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنـــتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفكسم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشـــد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) ([1]) .

أولاً: صورة الإله عند اليهود كما صورها القرآن الكريم :

ولقد بدأ إنحرافهم وموسى- عليه السلام - بين أظهـــرهم مـــن ذلك:

◆ عبادتهم للعجل الذى صنعه لهم السامرى مـــن الـــذهب الـــذى حملوه معه من حلى نساء المصريين وقبل ذلك كانوا قـــد مـــروا عقب خروجهم من مصر على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا إلـــى موسى - عليه السلام - أن يقيم لهم صنماً يعبدونه وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

([1]) سورة البقرة الآية ٨٣ -٨٥ .

(ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم أتخذتم العجل من بعده وأنتم ظـالمون وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعـوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) ([٢]) .

(وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهـم قالوا يا موسى إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) ([٣]) .

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروه أنه لا يكلمه ولا يهديهم سبيلاً أتخذوه وكانوا ظالمين) ([٤]) .

(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً مـن زينـة القـوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) ([١]) .

([٢]) سورة البقرة الآية ٩٢ – ٩٣ .

([٣]) سورة الأعراف الآية ١٣٨ – ١٣٩ وخصائص التصور الإسلامى ومقوماته صـ ٢٤ – ٢٦ .

([٤]) سورة الأعراف الآية ١٤٨ .

◆ واشترطوا على نبى الله موسى أنهم لن يؤمنوا حتى يـــروا الله تعالى عياناً بالبصر :

(وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) (٢) .

◆ وكذلك حكى القرآن الكريم الكثيـــر عـــن إنحـــرافهم وســـوء تصورهم لله سبحانه وشركهم ووثنيتهم فمن أكاذيبهم المفتراة عن الله وإجرامهم فى حقه تعالى كما حكاه القرآن الكريم :

■ **نسبتهم الولد إلى الله تعالى :**

(وقالت اليهود عزير بن الله) (٣) .

والولد : إنما يتخذه الفانى للإمتداد ويتخذه الضعيف للنصـــرة والله تعالى باق لا يخشى فناء قادر لا يحتاج ناصراً .

وكيف يكون له ولد ، وولد كل شئ شبيهه والله تعالى لا شبيه ولا مثيل له (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٤) .

---

(١) سورة طه الآية ٨٧ – ٨٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ٥٥ .
(٣) سورة التوبة الآية ٣٠.

وكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة .

والقرآن الكريم قد نفى دعوى الولدية وبين أنها دعــوى كاذبــة مفتراه لا دليل عليها :

(وينذر الذين قالوا إتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كــبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) (٥) .

(وقالوا إتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) (٦) .

إن الكون كله : السماوات والأرض والجبال ينتفض ويرتعش ويرتجف من هول تلك الكلمة المنكرة النابية التى تمــس قداســة الذات العلية المنزهة كما ينتفض كل عضو وكــل جارحــة فــى الإنسان عندما يغضب للمساس بكرامته أو كرامــة مــن يحبــه

---

(٤) سورة الشورى الآية ١١ .
(٥) سورة الكهف الآية ٤ – ٥ .
(٦) سورة مريم الآية ٨٨ - ٩٥ .

ويوقره وفى وسط الغضبة الكونية التى تهز كل ساكن وترج كل مستقر يصدر البيان الرهيب : **(إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً)** فلا ولد ولا شريك إنما خلق وعبيد .

▪ **وصفهم الله تعالى بالبخل :**

(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) ([1]) .

هذا نموذج من قولهم الإثم فى أبشع صوره ، قول اليهود الغبى اللئيم وقد بلغ من غلظ حسهم وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا **(يد الله مغلولة)** ويجيئ الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم **(غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا)** وكذلك كانوا فهم أبخل خلق الله بمال .

([1]) سورة المائدة الآية ٦٤.

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب : (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وعطاياه التى لا تكف ولا تنفذ لكل مخلوق ظاهر للعيان شاهدة باليد المبسوطة والفضل الغامر والعطاء الجزيل ناطقة بكل لسان ولكن يهود لا تراها لأنها مشغولة عنها باللم والضم وبالكنود وبالجحود وبالبذاءة حتى فى حق الله تعالى ([٢]) .

■ **وصفهم الله تعالى بالفقر :**

(لقد سمع الله قول اللذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) ([٣]) .

هذه المقولة تبلغ مبلغاً عظيماً من سوء التصور ومن سوء الأدب معاً ومن ثم يستحقون هذا التهديد المتلاحق :

([٢]) الظلال جـ ٢ صـ ٩٢٩ بتصرف يسير .
([٣]) سورة آل عمران الآية ١٨١ – ١٨٢ .

(**سنكتب ما قالوا**) نحاسبهم عليه فما هو بمتروك ولا منســـى ولا مهمل وإلى جانبه تسجيل آثامهم الســـابقة وهـــى آثـــام جنســـهم وأجيالهم متضامنة فيه فكلهم جبلهم واحدة فى المعصية والإثم .

(**وقتلهم الأنبياء بغير حق**) وقد حفظ تاريخ بنى اســـرائيل سلســـلة أثيمة فى قتل الأنبياء آخرها محـــاولتهم قتـــل المســـيح - عليـــه السلام- وهم يزعمون أنهم قتلوه متباهين بهذا الجرم العظيم .

(**ونقول ذوقوا عذاب الحريق**) والنص على الحريق هنا مقصـــود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه ولتجسيم مشهد العذاب بهوله وتأججه وضرامه جزاء على الفعلة الشنيعة : قتل الأنبياء بغيـــر حـــق .

وجزاء على القولة الشنيعة : إن الله فقير ونحن أغنياء .

(**ذلك بما قدمت أيديكم**) جزاءاً وفاقاً لا ظلم فيه ولا قسوة .

(**وأن الله ليس بظلام للعبيد**) والتعبير بالعبيد هنا إبـــراز لحقيقـــة وضعهم وهم عبيد من العبيد بالقياس إلى الله تعالى وهو يزيد فى

شناعة الجرم وفظاعة سوء الأدب الذى يتجلى فى قول العبيـد : (إن الله فقير ونحن أغنياء) والذى يتجلى كذلك فى قتل الأنبياء([1]).

■ **ومن جرائم اليهود أنهم يقبلون حكـم الأحبـار والرهبـان و يرفضون حكم الله :**

(إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ([2]) .

■ **ومن لوثة القومية وإعتقادهم أن إلههم إله قومى لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا فى سلوكهم مع بعضهم البعض أما الغربـاء غير اليهود فهؤلاء لا يحاسبهم معهم على سلوك معيـب ، مـن هذه اللوثة كان قولهم الذى حكاه القرآن الكريم :**

(ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلـك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمين سبيل ويقولون على الله الكذب وهـم يعلمون) ([3]) .

([1]) الظلال جـ ١ صـ ٥٣٧ .
([2]) سورة التوبة الآية ٣١ .
([3]) سورة آل عمران الآية ٧٥ .

ثانياً : صورة الإله فى كتبهم :

وقد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافاً لإلههم وأكاذيب دسـها أحبار اليهود فى أسفارهم وهى لا ترتفع كثيـراً عـن أوصـاف الإغريق فى وثنيتهم لآلهتهم .

ونشير فيما يلى لبعض أكاذيبهم المفتراة عن الله وإجـرامهم فـى حقه تعالى من كتبهم المحرفة التلمود والعهد القديم :

◆ **الإله فى التلمود :**

يروى التلمود أن الله ندم لما أنزله باليهود وبالهيكل ومما يرويـه التلمود على لسان الله قوله :

" تباً لى لأنى صرحت بخراب بيتـى وإحـراق الهيكـل ونهـب أولادى " .

وليست العصمة من صفات الله فى رأى التلمود :

لأنه غضب مرة على بنى إسرائيل فاستولى عليه الطيش فحلـف بحرمانهم من الحياة الأبدية ولكنه ندم على ذلك بعد أن هدأ غضبه ولم ينفذ قسمه لأنه عرف أنه فعل فعلاً ضد العدالة .

ويقرر التلمود أن الله هو مصدر الشر كما أنه مصدر الخير وأنه أعطى الإنسان طبيعة ردیئة وسن له شريعة لم يستطع بطبيعتــه الرديئة أن يسير على نهجها فوقف الإنسان حائراً بين إتجاه الشر فى نفسه وبين الشريعة المرسومة إليه وعلى هذا فإن داود الملــك لم يرتكب خطيئة بقتله أوريا وإتصاله بامرأته لأن الله هو الســبب فى كل ذلك (١) .

◆ **الإله فى العهد القديم :**

يمتلئ العهد القديم كذلك بالأكاذيب والإفتراءات المنسوبة لله وهى تمثل إنعكاساً لصفات اليهود واتجاهاتهم المادية وغيرها . والناظر فى أسفار التوراة الخمسة يجدها ترسم صورة بشرية محضة للإله فيصفون الإله بأوصف حسية وبشرية بل إن الإله عنــدهم لــيس معصوماً من الأخطاء وفيما يلى بعض النماذج الدالة على ذلك :

---

(١) د / أحمد شلبى اليهودية صـ ٢٧٥ نقلاً عن التلمود شريعة إسرائيل صـ ١٧ – ١٩ .

■ **زعم اليهود أن لله أبناء :**

جاء فى سفر التكوين الإصحاح السادس صـ ١٠ :

" وحدث لما إبتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنـــات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرب يدين روحى فى الإنســـان إلـــى الأبـــد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة كان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذا دخل بنو الله علـــى بنـــات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الـــدهر ذوو اسم " .

■ **وزعم اليهود أن الله يلاطف إحدى النساء ويذهب بهـــا إلـــى البرية.**

ففى سفر هوشع الأصحاح الثانى صـ ١٢٨٧ :

" والآن أكشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يدى وأبطل كل أفراحهـــا وأعيادهـــا ورؤوس شـــهورها .. وجميـــع مواسمها وأخرب كرمها وتينها اللذين قالت همـــا أجرتـــى لتـــى

أعطانيها محبى وأجعلها وعراً فيأكلها حيوان البرية وأعاقبها على أيام بعليم التى فيها كانت " تتزين لهم " بخزائمها وحليها وتـذهب وراء محبيها وتنسانى أنا يقول الرب لكن هأنذا أتملقها وأذهب بها إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك ووادى عخـورا باباً للرجاء وهى تغنى هناك كأيام صباها وكيوم صـعودها مـن أرض مصر ويكون فى ذلك اليوم يقول الرب أنك تدعيننى رجلى ولا تدعيننى بعد بعلى وأنزع أسماء البعليم من فمها فـلا تـذكر أيضا بأسمائها وأقطع لهم عهداً فى ذلك اليوم مع حيوان البريـة وطيور السماء ودبابات الأرض وأكسر القوس والسيف والحرب من الأرض وأجعلهم يضطجعون آمنين وأخطبـك لنفسـى إلـى الأبد... "

◆ **زعم اليهود أن الله تعالى يتعب من العمل ويستريح :**

ففى سفر التكوين الأصحاح الثانى صـ ٥ :

" فأكملت السماوات والأرض وكل جندها وفرغ الله فـى اليـوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميـع

عمله الذى عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه إســتراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً .. " .

هكذا وصفوا الله بالتعب والإرهاق بعد العمل وأنه فى حاجــة إلى أن يستريح من عناء العمل .

إن البداهة تقتضى أن يكون الخلاق الكبير الذى خلق السماوات والأرض فوق الإجهاد وذهاب القوة والقرآن الكريم يقــرر هــذه الحقيقة (**أو لم يروا أن الله الذى خلق الســماوات والأرض ولم يعــى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شئ قــدير**) (١) . (**ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا مــن لغوب**) (٢) .

■ **وزعم اليهود أن الله يجهل الأشياء ولا يعلمها ويطلب مــنهم أن يرشدوه :**

فقد قرر حينما كان بنو إسرائيل لا يزالون فى مصر أن يضــرب أهلها لكن لا يريد أن تنزل ضربات ببنى إسرائيل وطلب منهم أن يميزوا بيوتهم حتى لا يفتك بهم دون قصد :

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٣ .
(٢) سورة ق الآية ٣٨ .

ففى سفر الخروج الاصحاح الثانى عشر صـ ١٠٥ :

" فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكـر فـى أرض مصر من الناس والبهائم وأصـنعوا أحكامـاً بكـل آلهـة المصريين أنا الرب ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حـين أضرب أرض مصر .."

وفى وصف آدم وزوجته بعدما أكلا من الشجرة :

جاء فى سفر التكوين الأصحاح الثالث صـ ٦ :

" وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار فأختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شـجر الجنـة فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت ؟ فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فأختبأت . فقال من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ ..."

كأن الإله يتمشى فى الجنة لا يعلم ما حدث ثم تكشـفت لـه الأمور شيئاً فشيئاً فعرف أن آدم خالف أمره وأكل مـن الشـجرة

المحرمة ما أبعد هذا الوصف الكاذب عن وصف الله تعالى لنفسه في القرآن الكريم .

(وسع ربنا كل شئ علماً) ([1]) .

(وهو بكل خلق عليم) ([2]) .

(إنه عليم بذات الصدور) ([3]).

(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) ([4]) .

(وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) ([5]) .

▪ وبعد أن وصفوا الله تعالى بالجهل على النحو السالف وصفوه بأنه قلق على ملكه من آدم الذى ارتفع بعصيانه وأكله من

([1]) سورة الأعراف الآية ٨٩ .
([2]) سورة يس الآية ٧٩ .
([3]) سورة فاطر الآية ٣٨ .
([4]) سورة ق الآية ١٦ .
([5]) سورة يونس الآية ٦١ .

الشجرة إلى مصاف الآلهة وأنه قد ينازع الله تعالى فى ملكه إذن فليطرد قبل استفحال أمره :

جاء فى سفر التكوين الاصحاح الثالث صـ ٧ :

" وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن (الكروبيم)(٦) ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة"

■ **وزعم اليهود أن الله تعالى يحزن ويندم على خلق الإنسان :**

ففى سفر التكوين الاصحاح السادس صـ ١٠ – ١١ :

" ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الأرض

---

(٦) (الكروبيم) ملائكة هم على الغالب يمثلون قضاء الله .

الإنسان الذى خلقته الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأنى حزنت أنى عملتهم .. "

إن سيرة آدم وأبنائه على ظهر الأرض لم تكن مرضية الله – كما زعموا – ولم يكن الله تعالى حين خلقه يعرف أنـــه ســيكون شريراً إلى هذا الحد لقد فوجئ بما وقع ومن أجل ذلك حزن الرب وندم وتأسف فى قلبه أن خلق آدم وأبناؤه .

ويحدثنا العهد القديم أن الله تعالى أعلن ندمـــه علـــى إغـــراق الأرض بالطوفان وقال لنوح لن أرتكب هذه الفعلة مـــرة أخـــرى وسأضع علامة تذكرنى بذلك حتـــى لا أعـــاود إهـــلاك الحيـــاة والأحياء على الأرض :

ففى سفر التكوين الاصحاح التاسع صـــ ١٤ – ١٥ :

" وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً : وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومـــع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم الطيـــور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كـــل

ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض وقال الله هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس فى السحاب أنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد فلا تكون أيضا المياه طوفاناً لتهلك كل ذى جسد فمتى كان القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض ...."

ففى هذا النص وصف لله تعالى بالضيق والندم لما إرتكب من إغراق الأرض وتعهده ألا يفعل ذلك وأن الله وضع علامة فى السحاب كلما رآها تذكر حتى لا يتورط فى طوفان آخر .

وجاء فى سفر صموئيل الثانى الاصحاح الرابع والعشرين :

صـ ٢٥٦ :

" ... فجعل الرب وباءً في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب كفى الآن رد يدك ... "

وفى سفر الخروج الاصحاح الثانى والثلاثون صـــ ١٤٠ :

" فندم الرب على الشر الذى قال أنه يفعله بشعبه "

وفى سفر صموئيل الاصحاح الخامس عشر صـــ ٤٥٠ :

" وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً : ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكاً لأنه رجع من ورائى ولم يقم كلامى "

■ **وزعم اليهود أن الله تعالى يجئ فى شكل رجل ويأكل ويشرب ويجالس خلقه فالعهد القديم يحكى أن الله قدم فى شكل رجل مع إثنين من ملائكته لضيافة نبيه إبراهيم وأقام لهم إبراهيم وليمـــة مناسبة :**

ففى سفر التكوين الأصحاح الثامن عشر صـــ ٢٥ – ٢٦ :

" وظهر له الرب عند بلوطات ممراً وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه فلما نظر ركض لإستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال يا سيد (يقصد الله) إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك ليؤخذ قليل ماء وأغسلوا أرجلكم وأنكسوا تحت الشجرة فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت .

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعى بثلاث كيلات دقيقاً .. إعجنى وأصنعى خبز ملة ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا .

وقالوا له أين سارة إمرأتك فقال هاهى فى الخيمة فقال إنى أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك إبن وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة وهو وراءه .. فضحكت سارة فى

باطنها قائلة أبعد فنائى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ فقال الـــرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت هل يستحيل على الرب شئ فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحيـــاة ويكون لسارة إبن فأنكرت سارة قائلة لم أضحك لأنها خافت فقال لا بل ضحكت ... "

* **ومن الأوصاف البشرية المحضة أيضاً ما جـــاء فـــى ســـفر الخروج الأصحاح الرابع والعشرين صــ ١٢٥ :**

" ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهور وسبعون من شـــيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيـــق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة.ولكنه لم يمد يده إلـــى أشراف بنى إسرائيل .. "

وجاء فى سفر الخروج الإصحاح الخامس والعشرون صــ١٢٦:

" وكلم الرب موسى قائلاً كلم بنـــى إســـرائيل أن يأخـــذوا إلـــىّ تقدمة... فيصنعون لى مقدساً لأسكن فى وسطهم ... " .

■ **وزعم اليهود أن الله تعالى يصارع خلقه :**

يحكى العهد القديم : مصارعة بين الله وعبده يعقوب .

وهذه المصارعة دامت ليلاً طويلاً وكاد يعقوب يفوز فيها لولا أن الطرف الآخر فى المصارعة وهو الله لجأ إلـى حيلـة غيـر رياضية هُزم بعدها يعقوب ومع ذلك فإن يعقوب تشبث بالله وأبى أن يطلقه حتى حصل منه على لقب (إسرائيل) ومنحه الله هـذا اللقب ثم تركه ليصعد إلى العرش ويدبر أمر السماء والأرض .

ففى سفر التكوين الإصحاح الثانى والثلاثون صـ ٥٤ :

" فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه فانخلع حُقَّ فخذ يعقـوب فـى مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركنى فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب فقال : لا يُـدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عـن اسمى ؟ وباركه هناك .

فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأنى نظـرت الله وجهـاً لوجه ونجيت نفسى وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يجمع على فخذه لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حُـق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حُق فخذ يعقـوب علـى عـرق النسا".

نعم تخليداً لذكرى هذه المصارعة بين الله وبين يعقوب نشـأ حكم فقهى بتحريم أكل عرق النسا وكم يفخر اليهود إذ كان جدهم الأعلى يعقوب بهذه المثابة من القوة التى عاجزت الإله وكـادت توقع به الهزيمة إن اليهود يريدون أن يرفعوا مكانة جدهم يعقوب ولا عليهم أن يختلقوا ما يستغربه الخيال حتى ولو كان فى حـق الله .

■ **وزعم اليهود أن الله يأمر بالسـرقة وسـلب أمـوال الغيـر وأمتعتهم:**

ففى سفر الخروج الإصحاح الثالث صـ ٩١ :

" وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبنى إسـرائيل ... وأعطـى نعمة لهذا الشعب (بنى إسرائيل) فى عيون المصريين فيكـون حينما تمضون (أى تخرجون من مصـر) أنكـم لا تمضـون

فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتهـا أمتعـة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسـلبون المصريين " .

■ وزعم اليهود أن الله قاس مدمر متعصب لشعبه لأنه ليس إله كل الشعوب بل إله بنى إسرائيل وحدهم وهو بهذا عدو للآخرين كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى :

جاء فى سفر التثنية الإصحاح السابع صـ ٢٩٠ :

" متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنـت داخـل إليهـا لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك : الحيثيين والجرجاشـيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسـيين سـبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامـك وضـربتهم فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم : بنتك لا تعطى لإبنه وبنته لا تأخذ لابنك لأنه يرد إبنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى فيحمى غضب الرب علـيكم ويهلككـم سـريعاً ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مـذابحهم وتكسـرون أنصـابهم

وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار لأنــك أنــت شــعب مقدس للرب إلهك إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ... " .

وفى سفر المزامير الإصحاح التاسع صـــ ٨٣٨ :

" رنمو للرب الساكن فى صهيون أخبروا بين الشعوب بأفعاله لأنه مطالب بالدماء ... "

فشعب إسرائيل لم يقر بالإله الواحد إله الخلق أجمعــين ولــم يثبت على ميثاقه وإنما كان يعبد إلهاً يسميه إله إسرائيل ويحســب أن هذا الإله يميزه ويختاره على عامة الخلق لغيــر طاعــة ولا إيمان ولا فضيلة ولا إحسان ولكنها وثيقة كتبها شــعب إســرائيل على آلهة منذ القدم وهذا الإله مسئول عنها كما يسأل المدين عــن القرض ورباه لقد كان إلههم إله عشيرة واحدة يســميها عشــيرته وشعبه وتسميه هى ربها وإلهها دون العالمين .

وتبعاً لذلك كان ممنوعاً على غيـر اليهـود أن يقبلـوا فـي الجماعة اليهودية وأن يدينوا بالولاء لرب بني إسرائيل (١) .

ففي سفر التثنية الإصحاح السادس والعشرون صـ ٣١٥ :

" لا يدخل عموني ولا موابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد من أجل أنهـم لـم يلاقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر .. "

فالديانة اليهودية ليس ديناً تبشيرياً ولا إنسانياً عاماً وأن بنـي إسرائيل كانوا يعتبرون الديانة ديانتهم والإلـه خاصـاً بهـم وأن دخول غير اليهود فيها لم يكن تبشيرياً بها وإنما كان مـن بـاب السماح لمن يريد بنفسه وبدون دعوة أن يدخل في جماعة الـرب بشرط مرور عدة أجيال وفي بعض الحالات نرى الكتاب المقدس يسد باب الله ودينه أمام بعض الناس إلى الأبد (٢) .

---

(١) اليهودية صـ ١٩٢ ـ ١٩٣ نقلاً عن عباس العقاد ـ ما يقال عن الإسلام صـ ٣٠٧ .

(٢) نفسه صـ ١٩٣ نقلاً عن أ / محمد عزه دروزة / تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم جـ ١ صـ ١٢٦ ـ ١٢٧ .

■ **ويحكى العهد القديم أن بنى إسرائيل عبدوا أنواعاً من الآلهة وقد ندد بها أرميا فى سفره:**

فجاء فى سفر أرميا الإصحاح الثانى صـــ ١٠٧٤ :

" إسمعوا كلمة الرب يا بيت يعقوب وكل عشائر بيـــت إســـرائيل هكذا قال الرب :

ماذا وجد فى آباؤكم من جوْر حتى ابتعدوا عنـــى وســـاروا وراء الباطل وصاروا باطلاً ولم يقولوا أين هـــو الـــرب الـــذى أصعدنا من أرض مصر ... "

وفى الإصحاح الخامس منه صـــ ١٠٨١ :

" ويقول حين تقولون لما صنع الرب إلهنا بنا كل هذه ؟ يقول لهم كما أنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم هكذا تعبـــدون الغرباء فى أرض ليست لكم أخبروا بهذا فى بيت يعقوب واسمعوا به فى يهوذا قائلين : إسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهـــم الذين لهم أعين ولا يبصرون . لهم آذان ولا يسمعون ..."

وفى الإصحاح السابع منه صـــ ١٠٨٤:

" .. إنكم متكلون على كلام الكذب الذى لا ينفع أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرون للبعــل وتســيرون وراء آلهــة أخرى لم تعرفوها .." .

وفى الإصحاح السادس عشر منه صـــ ١٠٩٩ :

" فتقول لهم من أجل أن أبائكم قد تركونى يقول الــرب وذهبــوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياى تركوا وشريعتى لم يحفظوها وأنتم أسأتم فى عملكم أكثر من آبائكم وهاأنتم ذاهبــون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى لا تسمعوا لى.. "

فهذه النصوص تؤكد على أن اليهود عبدوا مع "يهوه" آلهــة أخرى مثل الوثنيات يقول العقاد : فصورة الإله فى مراجع اليهود (والتى أشهرها التوراة والتلمود) من أوائلها إلى أواخرها هــى صورة (يهوا) إله شعب إسرائيل وهــى صــورة بعيــدة عــن الوحدانية يشترك معها آلهة كثيرون تعبدها الأمم التــى جــاورت العبريين فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم ولكن يهــوا يغــار

منها ولا يريد من شعب إسرائيل أن يلتفت إليها لأنـــه يريـــد أن يستأثر بشعب إسرائيل لنفسه بين سائر الشعوب وأن يستأثر شعب إسرائيل به لأنفسهم من بين سائر الآلهة .. فلم يكـــن العبريـــون ينكرون وجود الآلهة الكثيرين غير إلههم الـــذى يعبدونـــه تـــارة ويتركونه تارة أخرى وإذا تركوا " يهوا " حيناً من الزمن ثم آثروا الرجعى إلى عبادته فإنما يرجعـــون إليـــه لإعتقـــادهم بالتجربـــة المزعومة أنه أقدر على النكاية بهم وأن اللآلهة الأخرى عجـــزت عن حمايتهم من سخطه وإنتقامه ([1]) .

ويحدثنا الدكتور / أحمد شلبى فيقول :

" لم يستطع بنوا اسرائيل فى أى فترة من فتـــرات تـــاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الأحد الذى دعا له الأنبياء وكـــان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحاً فى جميع مراحـــل تاريخهم وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم وتعد كثرة أنبيائهم دليلاً على تجدد الشـــرك

([1]) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ٤٥ – ٤٦ .

فيهم وبالتالى تجدد الحالة إلى أنبياء يجددون الدعوة إلى التوحيد وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أى حال فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح والأحجار وأحياناً مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التى كانت لها حضارة وفكر قلدهما اليهود ، فاليهود كانوا فى مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلاً تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين والإعتقاد فى الأرواح وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار.. " (٢) .

ويقول " .. على أن مسألة الألوهية كلها سواء اتجهت للوحدانية أو للتعدد لم تكن عميقة الجذور فى نفوس بنى اسرائيل فقد كانت المادية والتطلع إسلوب نفعى فى الحياة من أكثر ما يشغلهم وإذا تخطينا عدة قرون فإننا نجد الفكر اليهودى الحديث يجعل لليهود رباً جديداً نفعياً كذلك ذلك هو تربة فلسطين " (٣) .

---

(٢) اليهودية صـ ١٨٠ .
(٣) نفسه صـ ٢٠٠ – ٢٠١ .

وبعـــد فهذه شواهد من صورة الإله عند اليهود من خــلال القرآن الكريم ومن خلال كتبهم التى صورت الإلـــه فـــى أبشـــع صورة وما أشك فى أن مؤلف هذه السطور كان سجين تصورات وثنية عن حقيقة الألوهية وما ينبغى لها وأول ما نســتعيده حــين نقرأ هذه العبارات التى تنضح بالسفاهات والخرافات والتناقضات نستبعد أن تكون وحياً أو شبه وحـــى ومـــع ذلـــك فـــإن اليهـــود والنصارى يقدسون ذلك الكلام المنكر ويقول أحـــد القساوســـة : الكتاب المقدس – يعنى العهدين معاً – هو صوت الجالس علـــى العرش كل سفر من أسفاره أو إصحاح من إصحاحاته أو آية من آياته هو حديث نطق به الكائن الأعلى ([1]) .

وهو كلام مضحك مثير للدهشة كيف يصف إلـــه نفســـه بهـــذه الأوصاف المخجلة :

فالإله عندهم بخيل وفقير ويحزن ويندم ويرتكب أعمالاً طائشة يلاطف إحدى النساء ويذهب بها إلى البرية يعجز ويتعب ويجهل

([1]) الشيخ محمد الغزالى السقا اليهود المعتدون ودولتهم إسرائيل صـ ٣١٠ - ٣١١ .

الأشياء ولا يعلمها ويطلب مساعدة الخلق يقلق على ملكه من أن ينازعه فيه آدم ، يأتى إلى الأرض فى شكل رجل ويأكل ويشرب ويجلس مع الناس ويسكن فى وسطهم ويصارع ويأمر اليهود بسلب أموال المصريين بلا حق وهو إله قاس مدمر عدوانى متعصب لشعبه لأنه ليس إله العالمين بل إله اليهود وحدهم .

إن الإله فى هذه السياقات الصبيانية إله لا يستحق أن يكون إلهاً إنه إله صناعة يهودية .

أما الإله الذى نعرفه ونؤمن به فهو رب العالمين وهو **(ليس كمثله شئ)** ونحن المسلمين نعتقد أن الكتاب المنزل على سيدنا موسى برئ من هذا اللغو أما التوراة الحالية - أو العهد القديم - فهى تأليف بشرى والدليل على ذلك ما فيها من خرافات وسفاهات وأخطاء وتناقضات وتحريفات (**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**) [٢] .

---

(٢) سورة البقرة الآية ٧٩.

يقول الفيلسوف الفرنسى (موريس بوكاى) فى وصف العهـد القديم :

" إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية أنتجـت على مدى تسعة قرون تقريباً وهو يشكل مجموعة متنافرة جداً من النصوص عدل البشر من عناصرها عبر السنين وقـد أضـيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل بحيـث أن التعـرف على مصادر هذه النصوص اليـوم عسـير جـداً فـى بعـض الأحيان"([1]) .

ويقول الباحث اليهودى " أرثرن روبن " :

" إن الأسس التاريخية لعقيدة اليهود قد أعطيت لهم فى تشـريعات عزرا ونحميا حوالى ٤٠٠ سنة قبل الميلاد ثم عـدلت ونقحـت وكتبت فى القرون التالية بما يوافق طموحات صهيون " ([2]) .

([1]) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة صـ ٢٨٤.
([2]) نقلاً عن نهاية اليهود صـ ٤٧ أبو الفداء محمد عزت محمد عارف.

وبعد إستعراضنا لصورة الإله عند الأمم الهالكة يمكننا أن نقول :

إن الدين الإسلامى قرر فى جانب " الإله " الوحدانية الشاملة لوحدانية الربوبية فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف سواه سبحانه ووحدانية الألوهية فلا معبود ولا مسئول ولا مستعان سواه سبحانه فهو سبحانه المتفرد بالخلق والتدبير والتصرف وهو سبحانه المتفرد بإستحقاق العبادة والتقديس والسؤال والإستعانة والخضوع :

(يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)([٣]).

ويقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

(إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) ([٤]) .

([٣]) سورة البقرة الآية ٢١- ٢٢

([٤]) سورة الأنعام الآية ٧٩ .

وأمر خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن :

(قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) ([١]) .

(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شئ)([٢]) .

وينكر التعدد بكل صوره ومظاهره :

(قل لو كان معه آلهه كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن) ([٣]) .

(أم أتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى

([١]) سورة الأنعام الآية ١٤ .
([٢]) سورة الأنعام الآية ١٦٢ ـ ١٦٤ .
([٣]) سورة الإسراء الآية ٤٢ ـ ٤٤ .

وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٤) .

(ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلـــق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشـــهادة فتعالى عما يشركون) (٥) .

والقرآن الكريم فى العديد من آياته يؤكد على تنزيـــه الله تعالى عن النقائص والأشباه والنظائر فهو سبحانه المنزه عـــن المشاركة والمماثلة والمشابهة لأحد مـــن خلقـــه أو الإتحـــاد أو الحلول فى شئ مما خلق (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) (٦) .

(ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٧) .

---

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢١ ـ ٢٥ .
(٥) سورة المؤمنون الآية ٩١ ـ ٩٢ .
(٦) سورة الإخلاص .
(٧) سورة الشورى الآية ١١.

فالله تعالى لم يوجد له مماثل أو مكافئ لا فى حقيقة الوجـــود ولا فى حقيقة الفاعلية ولا فى أى صفة من الصفات الذاتية وهـــذا كذلك يتحقق بأنه " أحد " ولكن هذا توكيد وتفصـــيل وهـــو نفـــى للعقيدة الثنائية التى تزعم أن الله هو إله الخيـــر وأن للشـــر إلهـــاً يعاكس الله بزعمهم ويعكس عليهم أعماله الخيرة وينشر الفساد فى الأرض وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس فى إله النـــور وإله الظلام.. ([1]) .

أما رب العالمين فهو سبحانه تفرد دون خلقه جميعاً فلـــيس هنالك من شئ يماثله سبحانه وتعالى (ليس كمثله شئ) والفطـــرة تؤمن بهذا بداهة فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التى هى من خلقه .. ومع أنه سبحانه (ليس كمثله شئ) فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الإختلاف الكامل فهو يسمع ويبصـــر (**وهو السميع البصير**) ثم يحكم حكم السميع البصير ([2]).

([1]) الظلال جـ ٦ صـ ٤٠٠٤ ـ ٤٠٠٥ .
([2])الظلال بتصرف يسير جـ ٥ صـ ٣١٤٦ .

ويقول سبحانه (**قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهـو يطعم ولا يطعم**) ([٣]) .

ويقول سبحانه (**وما خلقت الجن والإنس إلا يعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**) ([٤]) .

ويقول سبحانه (**وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير**) ([٥]) .

" لمسة أخرى من حقيقة الألوهية لمسة القوة القاهرة فوق العباد .. فهو صاحب السلطان القاهر وهم تحت سيطرته وقهره هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان لا قوة لهم ولا ناصر هم عبـاد والقهـر فوقهم وهم خاضعون له مقهورون . وهذه هى العبودية المطلقـة للألوهية القاهرة وهذه هى الحقيقة التى ينطق بها واقع الناس مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا ومن العلم ليعرفوا ومـن القـدرة ليقوموا بالخلافة إن كل نفس من أنفساهم بقدر وكل حركـة فـى كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه فى كيانهم من نـاموس لا

([٣]) سورة الأنعام الآية ١٤.

([٤]) سورة الذاريات الآية ٥٦ ـ ٥٨ .

([٥]) سورة الأنعام الآية ١٨ .

يملكون أن يخالفوه وإن كان هذا الناموس يجرى فى كل مرة بقدر خالص حتى فى النفَس والحركة .. " [١] .

والله تعالى أوصد أمام خلقه باب التطلع إلى معرفـة حقيقـة ذاته تعالى وصرفهم عن محاولة التفكير فى هذا الجانب :

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كـل شئ وكيل لا تدركه الأبصار وهو يـدرك الأبصـار وهـو اللطيـف الخبير)[٢].

إن الذين كانوا يطلبون فى سذاجة أن يروا الله كالذين يطلبون فى سماجة دليلاً مادياً على الله هؤلاء وهؤلاء لا يـدركون مـاذا يقولون.

إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهنى كذلك كلها إنمـا خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون والقيام بالخلافة فى الأرض وإدراك آثار الوجود الإلهى فى صفحات هـذا الوجـود

---

(١) الظلال جـ ٢ صـ ١١٢٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٢ ـ ١٠٣ .

المخلوق فأما ذات الله سبحانه فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها لأنه لا طاقة للحادث الفانى أن يرى الأزلى الأبدى فضلاً على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم فى خلافة الأرض وهى الوظيفة التى هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها.([٣])

يقول الشيخ محمد عبده :

" جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شئ من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون (**قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**).

.. وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان .. وكان لابد من الخضوع له والرجوع إليه

([٣]) الظلال جـ ٢ صـ ١١٦٦- ١١٦٧.

والاستعانة به فذلك إنما يرد إلى الله وحده فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجـوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة لا يسوغ لها أن تلجأ إلـى أحـد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين إجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو إختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفـظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقـول مـن الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلـة ثـم تنـزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانـت تـلازم تلـك الأوهـام وتخلصت بتلك الطهارة من الإختلاف فى المعبودين وعليهم إرتفع شأن الإنسان وسميت قيمته بما صار إليه مـن الكرامـة بحيـث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السماوات والأرض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم

(إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا مـن المشركين) وكما أمر رسول الله – صلى الله عليـه وسـلم – أن

يقول **(إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك لـه وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)** .

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة وأطلقت إرادته مـن القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنهـا هـى كـإرادة الرؤسـاء والمسيطرين أو إرادة موهومة إخترعها الخيال كمـا يظـن فـى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها وأفتكـت عزيمتـه من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السـيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيمـا بينـه وبين الله الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الإشقاء والإسـعاد وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية لغير الله صار الإنسـان بالتوحيد عبدالله خاصة حراً من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لا علىّ فى الحق ولا وضيع ولا سـافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم لا يقربهم من الله إلا طهارة العقل

من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا التوحيد خلصت أقوال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقـــراء والمســـاكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كـــان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية إســـتئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم وضنا به على كل من لـــم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضـــوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرؤا قطعاً من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمى إليـــه ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلاً ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحـــروف فذهبوا بحكمة الإرسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال :

(**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون**) (¹) .

(**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بـئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين**) (²) .

وإذا عن لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصـده لشـهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله (**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيـديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً**) (³).

ويقول العقاد :

" فلما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية كان عليـه أن يصـحح أفكاراً كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية ، وكـان عليـه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبـادات الأولـى وزيادات المتنازعين على تأويل الـديانات الكتابيـة .. فرسـالة

(¹) سورة البقرة الآية ٧٨.
(²) سورة الجمعة الآية ٥ .
(³) سورة البقرة الآية ٧٩ – ورسالة التوحيد صـ ١١٩ – ١٢٧ .

الإسلام التى لا إلتباس فيها أنها أول دين تمـم الفكـرة الإلهيـة وصححها مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلهية فى الإسلام " فكرة تامة " لا يتغلب فيها جانب على جانب ، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلاً فى الحس ولا فى الضمير . بل لـه " المثـل الأعلى " وليس كمثله شئ فالله وحده (لا شريك له) ([1]) ... (ولم يكن له شريك فى الملك) ([2]) ... (فتعالى الله عما يشركون) ([3]) ... (وسبحانه عما يشركون) ([4]) .

والمسلمون هم الذين يقولون : (ما كان لنا أن نشـرك بـالله مـن شئ)([5]) ... (ولن نشرك بربنا أحداً) ([6]) ويرفض الإسلام الأصنام على كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب .

([1]) سورة الأنعام الآية ١٨٣ .
([2]) سورة الفرقان الآية ٢ .
([3]) سورة الأعراف الآية ١٩٠ .
([4]) سورة التوبة الآية ٣١ .
([5]) سورة يوسف الآية ٣٨ .
([6]) سورة الجن الآية ٢ .

ولله المثل الأعلى من صفات الكمـال جمعـاء ، ولـه الأسـماء الحسنى. فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمـة والمحبة ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القـوة والقدرة . فهو قادر على كل شئ وهو عزيز ذو انتقـام ، وهـو كذلك رحمن رحيم وغفور كريم .. قد وسعت رحمته كل شـئ . و(**يختص برحمته من يشاء**) ([٧]) .

وهو الخلاق دون غيره و (**هل من خالق غـير الله ؟**) ([٨]) فلـيس الإله فى الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر الحركة الأولى وكفى ولكن (**الله خالق كل شئ**) ([٩]) ... و (**خلق كل شئ فقـدره تقديراً**) ([١٠]) و (**إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده**) ([١١]) ... (**وهـو بكـل خلق عليم**) ([١٢]) .

([٧]) سورة آل عمران الآية ٧٣ .
([٨]) سورة فاطر الآية ٣ .
([٩]) سورة الرعد الآية ١٦ .
([١٠]) سورة الفرقان الآية ٢ .
([١١]) سورة يونس الآية ٤ .
([١٢]) سورة يس الآية ٧٩ .

ومن صفات الله في الإسلام ما يعتبر رداً على فكرة الله في الفلسفة الأرسطية كما يعتبر رداً على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية .

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة ... لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه . ولكن الله في الإسلام : (عالم الغيب والشهادة) ([1]) . و(لا يعزب عنه مثقال ذرة) ([2]) . و (وهو بكل خلق عليم)([3]) . و(وما كنا عن الخلق غافلين) ([4]) . (وسع كل شئ علماً) ([5]) . (ألا له الخلق والأمر) ([6]). (عليم بما في الصدور) ([7]) .

([1]) سورة المؤمنون الآية ٩٢ .
([2]) سورة سبأ الآية ٣ .
([3]) سورة يس الآية ٧٩ .
([4]) سورة المؤمنون الآية ١٧ .
([5]) سورة طه الآية ٩٨ .
([6]) سورة الأعراف الآية ٥٤ .
([7]) سورة فاطر الآية ٣٨ .

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد : (**وقالت اليهـود يـد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسـوطتان**) ([٨]) . وفـي هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلـق بالزكـاة والصدقات كما جاء في أقوال بعض المفسرين ، ولكنها ترد على كل من يغلون إرادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون في يهود الجزيرة من يشير إلى روايـة مـن روايـات الفلسـفة الأرسطية بذلك المقال .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة ، فجاء فيه من سورة الحج (**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصـابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد**) ([٩]) .

وأشار إلى الدهريين فجاء فيه من سورة الأنعام : (**وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**) ([١٠]) وجاء فيه مـن سـورة

([٨]) سورة المائدة الآية ٦٤ .
([٩]) سورة الحج الآية ١٧ .
([١٠]) سورة الأنعام الآية ٢٩ .

الجاثية : (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومـــا يهلكنـــا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) ([1]).

فكانت فكرة الله فى الإسلام هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تـــدور عليها . ولهذا بلغت المثل الأعلى فى صـــفات الـــذات الإلهيـــة ، وتضمنت تصحيحاً للضمائر وتصحيحاً للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله ، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس.

ومن ثم كان الفكر الإنسانى من وسائل الوصول إلى معرفة الله فى الإسلام ، وإن كانت الهداية كلها مـــن الله : (**يعلم ما بـــين أيديهم وما خلفهم و لا يحيطون بشئ من علمه إلا بمـــا شـــاء**) ([2]) .. و(**وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله**) ([3]).

ومجمل ما يقال فى عقيدة الذات الإلهية التى جاء بها الإســـلام إن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى مـــن الكمـــال فـــى

([1]) سورة الجاثية الآية ٢٤ .
([2]) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
([3]) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

أشرف الصفات فالله هو المثل الأعلى . وهو الواحد الصمد الذى لا يحيط به الزمان والمكان وهو محيط بالزمان والمكان و (هـو الأول والآخر والظاهر والباطن) (٤) .. و(وسع كرسيه السـماوات والأرض) (٥) و(ألا إنه بكل شئ محيط) (٦)... ولا شك أن العالم كان فى حاجة إلى هذه العقيدة .. وجاءه محمد – عليه السـلام – بصورة تامة فى العقل والشعور .. وربما تلخص الإسـلام فـى كلمة واحدة هى الحق (ذلك بأن الله هو الحق) (٧) .. (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) (٨) .. (فتعالى الله الملك الحق) (٩) و(قل يـا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) (١٠) .

---

(٤) سورة الحديد الآية ٣ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٦) سورة فصلت الآية ٥٤ .
(٧) سورة الحج الآية ٦٢ .
(٨) سورة البقرة ١١٩ .
(٩) سورة المؤمنون الآية ١١٦ .
(١٠) سورة المائدة الآية ٧٧ .

.. وإذا بقى الإيمان بالحق فقد بقى أساس الشريعة لكل جيل وفى كل حال ([1]) .

ونختم حديثنا بقول الله تعالى :

(قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون .

قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون .

بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) ([2]) .

([1]) الله كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية بقلم / عباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر صـ ١٥٩ـ ١٦٣ بتصرف .

([2]) سورة المؤمنون الآية ٨٤ ـ ٩٢ .

(أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون .

أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون .

أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون .

أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون .

أمن يبدئ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون) (٣) .

---

(٣) سورة النمل الآيات ٦٠- ٦٥

(هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) [1] .

رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد نبياً ورسولاً

*****

---

[1] سورة الحشر الآية ٢٢ ـ ٢٤ .



الفهرس